المكتبة الأدبية

عبقرية الشريف الرضي

تأليف
الدكتور زكي مبارك

الجزء الأول

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعـــة الأولـــى
١٤٢٧هـ / ٢٠٠٧م

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد – القاهرة
ت/ 5922620 -5938411 / فاكس: 5936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

رقم الايداع	2005 /15867
الترقيم الدولي I.S.B.N.	977-341-240-7

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

باسم الله الذي أمدني بالصبر على مكاره الحياة الأدبية، باسم الله الذي حبب إلي الأنس بعناء البحث والدرس في غفوات الليل، باسم الله أقدم الطبعة الثانية من كتاب "عبقرية الشريف الرضي" مصحوبة بزيادات وتحقيقات رجوت بها أن يكون كتابي هو الفيصل في قضاء حق الشريف.

وهذا الكتاب هو صورة من صور النشاط الذي بذلته حين تشرفت بخدمة العلم والأدب بدار المعلمين العالية في بغداد، وهو عزيز علي جدا؛ لأنه جعل لي مقام صدق في الأقطار العربية والإسلامية ولأنه من كرائم الذكريات التي خلفتها في ديار الرافدين؛ ولأن القلم جرى فيه بأسلوب ما أحسبني سبقت إليه في شرح أغراض الشعراء، حتى كدت أتوهم أني طفت بأودية لم تعرفها الملائكة ولا الشياطين!

وما تذكرت عهدي بدار المعلمين العالية في بغداد إلا ذكرت بالخير تلامذتي وزملائي هناك، فقد كانت أيامي في صحبتهم من أخصب العهود في حياتي. حفظ الله عليهم نعمة العافية، وجعلهم من ذخائر الأدب الرفيع!

هذا، وقد كان قيل: إني احتفلت بالأسلوب في هذا الكتاب، وأقول: إني لم أتعمد ذلك، فقد كانت المطابع تأخذ المواد ورقة، ورقة بحيث لم أستطع مراجعة ما كنت أكتب من أفانين البحوث، وكنت حينذاك أغذي مطبعتين في وقت واحد، مع الاشتغال بأصول كتاب "وحي بغداد" وكتاب "ليلى المريضة في العراق" وكتاب ثالث سيعلم القراء أنباءه بعد حين، وتلك جهود لا يتسع معها الوقت للزخرف والتنميق.

وإنما فتن بأسلوبي في هذا الكتاب من فتن لأنه رآني أقبس من النار التي

قبس منها الشريف، ومن هنا جاز لأحد الفضلاء أن يقول في إحدى مجلات بغداد: "إن نثر زكي مبارك له روعة تفوق روعة شعر الشريف في بعض الأحيان" فإن صح ذلك القول فهو شاهد على قوة الصلة بيني وبين الشريف، وهو أيضا من علائم التوفيق، فما كان يجوز أن نلقى الشريف إلا بنثر يماثل شعره في القوة والعذوبة والصفاء.

أيها الشريف!

لقد قضيت حقك وأنصفتك، وأيدت مركزك في عالم الخلود، بلا من عليك، وهذا كتابي أقدمه هدية إليك بمناسبة مرور ألف سنة على ميلادك، وأنا أحمد الله الذي وصل جناحي بوطنك لأحلق في الجو الذي عشت فيه فأرى أسرار قلبك وسرائر روحك، وألقاك وجها لوجه بين مدارج الرشد والغي في ضمائر "الزوراء".

وأرجو -أيها الشريف- أن تنسى بعض ما قدمت إليك من إساءة في هذا الكتاب، فمن واجب الصديق أن ينسى هفوات الصديق، إذا صدرت عن إخلاص للأدب وغيرة على التاريخ.

محمد زكي عبد السلام مبارك

مصر الجديدة في: ١٤ صفر سنة ١٣٥٩هـ

٢٣ آذار سنة ١٩٤٠م

عبقرية الجندي المجهول

أيها السادة:

من طرائف ما اصطلح الناس عليه في العصر الحديث إقامة ضريح يحج إليه المشغوفون بتقديس البطولة والأبطال، وهو الذي يسمونه قبر الجندي المجهول، وذلك القبر يضم عظاما لا يعرف صاحبها على التحقيق، ولكنها في أذهان الناس رمز التضحية والإخلاص.

قد يكون ذلك الجندي أشجع الجنود، وقد يكون أجبن الجنود، ولكنه في جميع أحواله أسعد الأموات؛ لأن النار المقدسة تظل مشبوبة فوق قبره صباح مساء؛ ولأن قبره يظل كعبة تقدم إليها أطيب القرابين، من الأزهار والرياحين فهو إن كان في حقيقة أمره من أشجع الجنود حمد الطالع السعيد الذي قضى بأن ينال حقه فيكون رمز الوفاء، وإن كان من الضعفاء الجبناء شكر الله على أن ستر حاله فأضافه إلى الشهداء.

وإقامة الضريح للجندي المجهول هي أعظم تعزية لأرواح الأبطال الذين جهلت أقدارهم بعد الموت، فكلهم يرجو أن يكون الصورة التي يتمثلها من يزور قبر الجندي المجهول، وكلهم يرجو أن يكون له حظ من الذكرى ومن الدموع يوم يحج الناس إلى ذلك القبر في المواسم والأعياد.

ولكن حدثوني، أيها السادة، كيف يكون شعور الروح، روح الجندي المعروف لا المجهول، حين يمر الناس على قبره فلا تلوح لهم من وجهه صورة، ولا يعترضهم من روحه مثال؟

كيف يكون شعور الروح، روح القائد المغوار الذي يمر الناس على قبره فلا يذكرون كيف صارع النوائب وصاول الخطوب؟

حدثوني كيف يكون شعور ذلك الروح، وكان في دنياه أرق من الزهر،

وأقسى من الزمان؟ ولو كان ذلك الروح يعرف أن عظامه دفنت في أرض موات لهان عليه خطب النسيان!

ولكنه يعرف أن عظامه دفنت في أرض تخرج أطيب الثمرات، وتختال بمن يمشي فوقها من أقطاب الرجال، كيف يكون شعور ذلك الروح في تلك الأرض: الروح الذي اسمه "الشريف الرضي" في الوطن الذي اسمه "العراق"؟

ولكن مهلا فلن ينسى الشريف الرضي بعد اليوم، فستنشر ذكراه في جميع الأقطار العربية، وسيذكر في أكثر اللغات الأجنبية، وسيحيا شعره على الألسنة والقلوب فيما سيأتي من الأجيال.

قد تسألون: وكيف تحكم على الشريف الرضي بالخمول وهو جد معروف؟ وأجيب بأن الشريف الرضي لقي في دنيا الأدب أعنف ضروب العقوق، فهو أفحل شاعر عرفته اللغة العربية، وأعظم شاعر تنسم هواء العراق، ومع ذلك سكت عنه النقد الأدبي فلم يؤلف عنه كتاب ولا فصل جيد من كتاب، ولو كان ديوان الشريف الرضي في لغة الفرنسيس أو الإنجليز أو الألمان لصنفت في شعره مئات المصنفات وأقيمت له عشرات التماثيل.

أليس من العجيب أن يطبع ديوان الشريف الرضي منذ ثلاثين سنة في وطن غير وطنه ثم لا يعاد طبعه بعد ذلك الحين.

أليس من العجيب أن لا يعرف قبر الشريف الرضي على التحقيق فيقام له ضريح في الكاظمية، مع أن مترجميه ينصون على أنه دفن في كربلاء؟

أليس من العجيب أن يسألنا الأستاذ على الجارم بك المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف المصرية عن المصدر الذي يرجع إليه في أبيات الشريف:

لقـــد وقفـــت عـــلى ديـــارهم ... وطلوهـــا بيـــد الـــبلى نهـــب
فبكيـــت حتـــى ضـــج مـــن لغـــب ... نـــضوى ولـــج بعـــذلي الركـــب
وتلفتـــت عينـــي فمـــذ خفيـــت ... عنـــى الطلـــول تلفـــت القلـــب

وأن يجزم بأنه لم يرها في ديوان الشريف مع أنها مثبتة في الديوان، وكان ذلك دليلا على أن الشريف منسي لا يعرف ديوانه رجل في منزلة الجارم وهو شاعر مجيد؟!

على أن الأبيات لم يعرفها الأدباء إلا أنها اتصلت بحادثة وجدانية تناقلها المؤلفون، ولولا ذلك لظلت مطمورة لا يرويها سامر ولا يتمثل بها خطيب.

قد يكون فيكم من ينكر أن يكون الشريف الرضي من الخاملين.

وأنا أيضا أنكر ذلك الخمول.

ولكن حدثوني في أي ميدان كانت نباهة الشريف عند المؤلفين والناقدين؟

لقد تكررت الإشارة إلى اسمه عند القدماء من المؤلفين بالعربية، وعند المحدثين من المستشرقين الذين نوهوا باسمه في اللغات الأوروبية.

ولكن كيف وقع ذلك؟ لقد وقع في معرضين: الأول: في التاريخ السياسي حين تحدث المؤرخون عن النضال بين الفاطميين في مصر والعباسيين في العراق، فقد حدثوا أن الشريف الرضي قال: في التعريض بحكومة الخليفة القادر بالله.

مـــا مقـــامي عـــلى الهـــوان وعنـــدي ... مقـــول صـــارم وأنـــف حمـــي
وإبـــاء محلـــق بي عـــن الـــضيم ... كـــما راغ طـــائر وحـــشي
أي عـــذر لـــه إلى المجـــد إن ذل ... غـــلام في غمـــده المـــشرفي

ألبس الذل في ديار الأعادي ... وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه أبي ومولاه مولا ... ي إذا ضامني البعيد القصي
لف عرقي بعرقه سيدا النا ... س جميعا محمد وعلي
إن ذلي بذلك الجوع عز ... وأوامي بذلك النقع ري
قد يذل العزيز ما لم يشمر ... لانطلاق وقد يضام الأبي
إن شرا علي إسراع عزمي ... في طلاب العلا وحظي بطي
أرتضي بالأذى ولم يقف العز ... م قصورا ولم تعز المطي
تاركا أسرتي رجوعا إلى حيـ ... ث عذيري قد ورعي وبي
كالذي يخبط الظلام وقد أقـ ... مر من خلفه النهار المضي

ولهذه الأبيات قصة أشار إليها ابن أبي الحديد، ولولا صلتها بالتاريخ السياسي لسكت عنها الكاتبون، وللسبب عينه تحدث المؤرخون عن أبياته في خطاب الخليفة القادر بالله:

عطفا أمير المؤمنين فإننا ... في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... أبدا كلانا في المعالي معرق
إلا الخلافة ميزتك فإنني ... أنا عاطل منها وأنت مطوق

أما المعرض الثاني الذي أثير فيه اسم الشريف الرضي: فهو الكلام عن صحة النسب، نسب كتاب نهج البلاغة الذي جمع فيه الشريف ما أثر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- من الخطب والحكم والعهود، فقد ارتاب بعض الناقدين في نسب ذلك الكتاب ورجحوا أنه من إنشاء الشريف. والمقام لا يسمح بتحقيق هذه القضية، وقد أشرت إليها في كتاب النثر الفني[1] فلا أعود إليها الآن، وإنما يهمني أن أسجل أن الثورة على نهج البلاغة كانت السبب الثاني في نباهة الشريف، وإنما كانت كذلك؛ لأن الكتاب

(١) ج ص ٩٦ وأشرت إليها بعد ذلك في كتاب (وحي بغداد) ص ٢٤٦ و ٢٤٧.

منسوب إلى علي بن أبي طالب، وهو في جوهره يؤرخ أخطر المعارك القلمية والخطابية في العصر الإسلامي، وتصحيحه أو تزييفه يعد من المواقف الحاسمة في ذلك التاريخ .

فتصوروا كيف يكون الحال لو لم تشأ المقادير أن يقرن اسم الشريف الرضي باسم علي بن أبي طالب؟! تصوروا كيف كانت تخمل ذكراه وهو كاتب مبدع لا يعرف التاريخ الأدبي له أثرا في النثر الفني إلا حين يدعي أنه المنشئ لتلك الخطب والحكم والعهود؟!.

كان من حظ الشريف الكاتب أن يقرن اسمه باسم علي بن أبي طالب، وإلا فحدثوني أين رسائله الطوال التي كانت تقع في ثلاثة مجلدات؟

تقولون: إن التاريخ الأدبي تحامل على الشريف بسبب التشيع، إن صح ذلك، فحدثوني كيف سكت عنه أدباء مصر والشام والحجاز والمغرب والأندلس وهم لا يعرفون العصبية ضد التشيع؟ بل حدثوني كيف سكت الشيعة أنفسهم عن رسائل ذلك الكاتب البليغ؟.

تقولون: إن للشريف الرضي قبة تزار بالكاظمية؟

أهلا وسهلا، ولكن هل تعرفون لأي معنى يزور الناس قبته بالكاظمية؟

أعيذكم أن تقولوا إنهم يزورونها باسم الأدب والبيان.

إنهم يزورونها لمعنى ديني صرف، كما يزور المصريون قبة عمر بن الفارض، ولولا ما شاع وذاع من أن ابن الفارض من الأولياء لما عرف المصريون أن له ضريحا يزار وتلتمس به البركات، وهل عرف المصريون قبر ابن هشام الأنصاري الذي رفع القاهرة مكانا عليا وجعل هامتها في النحو مساوية لهامة بغداد؟

هل عرف المصريون قبر ابن خلدون الذي يعد أشرف وأعلم من درسوا بالأزهر الشريف؟

هل عرف المصريون قبر القلقشندي الذي دان اللغة العربية بأفضل كتاب في تاريخ الإنشاء وهو "صبح الأعشى"؟

هل عرف المصريون قبر النويري أول مؤلف في الموسوعات العربية؟

هل عرف المصريون قبر ابن منظور صاحب المعجم الباقي على الزمان، صاحب لسان العرب الذي ألفه وهو جالس على الحصير الممزق بحي الحسينية؟

وكيف تقولون إن الشريف الرضي خمل بفضل التشيع وهو مذهب له قواعد وأصول، ومع أن المجون كان من أسباب شهرة أبي نواس، ومع أن الزندقة كانت من أسباب شهرة أبي العلاء؟

أفي الحق أن الرجل لا يشتهر إلا إن أصبح على وفاق مع جميع الناس؟

أفي الحق أن الفضل وحده يسمو بالرجل إلى أرفع الدرجات؟

إن قلتم ذلك فقد تحدثكم شواهد العصر الحاضر بضد ما تقولون، ألسنا في هذا العصر فرائس للتيارات الاجتماعية والسياسية؟

ما هي الأسباب التي قضت بشهرة محمد عبده وقاسم أمين؟

هل يعرف أحد اليوم أن محمد عبده كان في حقيقة أمره من العلماء المحققين الذين يدركون أسرار العلوم العقلية والنقلية؟ هيهات، إنه لا يعرف إلا بفضل نضاله الدموي في إصلاح المناهج الأزهرية والثورة العرابية، ولو رفع هذان الحادثان من حياته لما عرف له تاريخ!

هل يفهم أحد اليوم أن قاسم أمين كان من أقطاب التشريع؟ هيهات هيهات، إنه لا يعرف إلا بفضل ثباته في الدعوة إلى السفور وحرب الحجاب.

آمنتم الآن بأن الشريف الرضي لم ينل الشهرة إلا بفضل المشكلات السياسية والدينية؛ ثم تسألون: ولكن كيف كتب على الشريف الرضي أن يرزأ في عالم الشعر بذلك الخمول؟

ونجيب بأن الأمر كان كذلك؛ لأن أدباء اللغة العربية ندر عندهم أن يكون الفن وحده هو مرجع النباهة والشهرة وبعد الصيت، فامرؤ القيس لم تكن شاعريته سبب شهرته، ولولا انتقاله من أرض إلى أرض، وموته مسموما في سبيل الثأر لأبيه لما ذكره الذاكرون؛ وطرفة بن العبد لم يسر ذكره إلا لموته قتيلا وهو في سن العشرين؛ وحسان لم يشتهر إلا لأنه كان شاعر الرسول؛ والشاعر المفلق أبو نواس لم تكن شاعريته سبب شهرته، وإنما اشتهر بفضل اشتراكه وهو راغم في فتنة الأمين والمأمون؛ وأبو تمام لم يشتهر بفضل شاعريته، وإنما اشتهر لأنه سجل في شعره حادثة رجت الأرض وهي فتح عمورية، والبحتري لم يشتهر بفضل شعره، وإنما اشتهر لأنه حضر مأساة دونها التاريخ وهي شهوده قتل المتوكل والفتح بن خاقان؛ والمتنبي لم يكن شعره سبب شهرته، وإنما اشتهر بفضل حادثتين ظاهرتين:

الأولى: رحلته إلى مصر في سبيل المجد؛ والثانية: موته قتيلا بالبيداء.

ولم يتفق للشريف الرضي شيء من ذلك، فقد كان يطلب الخلافة سرا لا علانية، ولو تم له ما أراد من الملك لعرف الناس شاعريته وسطروا في الثناء عليه مئات التآليف؛ ولكنه مات ميتة عادية، فلم يذكر الناس يوم موته إلا أنه رجل شريف ينبغي أن يدفن بجانب جده الحسين في كربلاء.

ولست بهذا أتجنى على أسلافنا من أدباء اللغة العربية، وإنما أذكر حقائق مؤلمة كانت السبب الأصيل في انحراف الموازين.

فإن لم يكن ذلك صحيحا فحدثوني عن المشهور من قصائد الشريف؟

أليست قصيدته في رثاء أبي إسحاق الصابي أشهر شعره؟ بلى، هي كذلك، فهل تعرفون أن تلك القصيدة لم تشتهر إلا بفضل ما اتصل بها من الشذوذ، إذ كانت في رجل صابئ يرثيه سيد شريف؟

فإن تخطيتم هذه القصيدة لم تجدوا من يعرف عيون القصائد في ديوان ذلكم الشاعر العظيم.

أين من يعرف الدالية:

جرى النسيم على ماء العناقيد ... وعللي بالأماني كل معمود

يا نفحة هزت الأحشاء شائقة ... فذكرت نفحات الخرد الغيد

أين من يعرف العينية:

منابت العشب لا حام ولا راع ... مضي الردى بطويل الرمح والباع

أين من يعرف اللامية:

أمل من مثانيها فهذا مقيلها ... وهذي مغاني دورهم وطلولها

ولو كان أسلافنا من أدباء اللغة العربية تستهويهم المعاني مجردة عن الحوادث الدامية لوجدوا في أشعار الشريف أوسع مجال، فسترون عنده كرائم الطيبات، سترون أن ذلك الرجل عانى في حياته أعنف أزمات الوجدان، سترون كيف كان الرجل يشغل أعظم وظيفة دينية وهي نقابة الأشراف ثم يكون في الوقت نفسه أعظم شاعر يتغنى بالحب والجمال، سترون أن الشريف الرضي تفرد بوصف مواسم العيون والقلوب في قصائده الحجازيات، سترون أنه قال في الصداقة والأصدقاء ما لم يسبقه إليه سابق، وما يعسر أن يلحقه فيه لاحق، سترون أن كلمة (العلا) وكلمة (المعالي) لم يهتف بهما خاطر أشرف من ذلك الخاطر، ولم يلهج بهما لسان أفصح من ذلك اللسان، سترون أن العفاف

لم يجد شاعرا يجعله أظرف من الفسق وأعذب من المجون غير ذلك الشاعر العفيف الشريف، سترون أن الأحباب الذاهبين لم يجدوا من يبكيهم بأندى من ذلك الدمع وأصدق من ذلك الفؤاد، سترون أن لثام الناس لم توسم جباههم وجنوبهم بميسم أقوى وأعنف من قصائد ذلك الفاتك الصوال.

سترون أيها السادة أن الشريف الرضي كان شاعر القلب والعقل والذكاء؛ سترون شاعر الإنسانية يفصح عما تعاني من شهوات وأهواء وآلام وأرزاء، وأمان وآمال.

سترون أنه يحس ما تحسون اليوم، ويشعر بما تشعرون، مع أنه سبقكم إلى تنسم هواء العراق بنحو ألف سنة، وسيظل يشارك الناس في أحلامهم وأحقادهم آلاف السنين.

أفما كان في تلك الجوانب النفسية والذوقية والعقلية ما يلفت أنظار النقاد إلى ذلك الرجل لو كانوا يفهمون أقدار المعاني؟

ألم تكن هموم المجد في أشعار الشريف الرضي أولى بعناية النقاد من البحث عن سرقات المتنبي؟

ألم يكن الحرص على تدوين أوابده في نقد المجتمع أولى من الحرص على تدوين قصائد ابن الرومي في شتم الناس؟

ألم يكن فيهم من سمع الشريف وهو يصرخ فيقول:

أنـــا النـــضار الـــذي يـــضن بـــه ... لـــو قلبتنـــي يمـــين منتقـــد

ألم يكن فيهم من يدفعه التطلع إلى شكواه من طول الليل في بغداد إذ يقول:

لـــيلي بغـــداد لا أقـــر بـــه ... كـــأنني فيـــه نـــاظر الرمـــد

ينفـــر نـــومي كـــأن مقلتـــه ... تـــشرج أجفانهـــا عـــلى ضـــمد

أما كان فيهم من يسأل كيف ضجر الرجل من أهل بغداد فقال يخاطب الثلج الذي رآه أهلها أول مرة في شهر ربيع الآخر سنة ٣٩٨هـ.

أقول له وقد أمسى مكبا ... على الأقطار يضعف أو يزيد
وراءك فالخواطر باردات ... على الإحسان والأيدي جمود
وإنك لو تروم مزيد برد ... على برد لأعوزك المزيد

إن النقاد سكتوا عن ضجر الشريف من العراق؛ ولكنهم لم يسكتوا عن ضجر المتنبي من مصر؛ لأن ضجر الشريف من العراق لم تشهره الحوادث، أما ضجر المتنبي من مصر فقد صحبته خطوات تحدث بها الركبان، فكأن الرواة والنقاد لا يلتفتون إلى الشعر إلا أن دقت من حوله الطبول.

ألا ترونهم يذكرون ما قال بشار في التعريض بخلفاء بني أمية ولا يذكرون ما قال الرضي في التعريض بخلفاء بني العباس؟

إنهم يذكرون أبيات بشار لأنها جرت عليه القتل، ولا يذكرون أبيات الرضي لأنه خرج منها بعافية، وإلا فأي شعر أخطر من شعره وهو يقول في التعريض بخلفاء بني العباس:

أما تحرك للأقدار نابضة ... أما يغير سلطان ولا ملك
قد هادن الدهر حتى لا قراع له ... وأطرق الخطب حتى ما به حرك
كل يفوت الرزايا أن يقعن به ... أما لأيدي المنايا فيهم درك
قد قصر الدهر عجزا عن لحاقهم ... فأين أين ذميل الدهر والرتك[1]
أخلت السبعة العليا طرائقها؟ ... أم أخطأت نهجها أم سمر الفلك؟

لقد غفل النقاد عن المعاني الإنسانية والشخصية في أشعار الشريف الرضي، ولم يتحدثوا عن عيون القصائد في ديوان ذلك الشاعر القليل النظائر

---

(١) الذميل: السير. والرتك: تقارب الخطو.

والأشباه، فهل ترونهم قيدوا ما في أشعاره من الحكم والأمثال؟ هل سمعتم أن أديبا جاد من وقته بأسبوعين أو ثلاثة أسابيع في الغوص على ما في ديوان الشريف من اللؤلؤ المكنون؟

أعيذكم أن تظنوا أن ذلك الشاعر خلا ديوانه من الأبيات النوادر التي تفصح عن بصره بخلائق المجتمع وسرائر الناس، فقد أستطيع أن أجزم بأنه في هذه الناحية أشعر من المتنبي؛ لأن المتنبي كان يقصد إلى الحكمة قصدا، ويتعمدها وهو متكلف، أما الرضي فكانت الحكمة تسبق إلى خاطره من فيض السجية والطبع، فيرسلها عفوا بلا تصنع ولا اعتساف.

ما رأيكم في هذا البيت:

إذ قل مالي قل صحبي وإن نما ... فلي من جميع الناس أهل ومرحب

وهذا البيت:

يغر الفتى ما طال من حبل عمره ... وترخي المنايا برهة ثم تجذب

وهذا البيت:

وآمل أن تقي الأيام نفسي ... وفي جنبي لها ظفر وناب

وهذا البيت:

تفدي الفتى في عيشه ألسن ... وما له من حتفه فاد

وهذا البيت:

كل حبس يهون عند الليالي ... بعد حبس الأرواح في الأجساد

وهذا البيت:

علامة العز أن حسدت به ... إن المعالي قرائن الحسد

وهذا البيت:

ينـال الفتـى مـن دهـره قـدر نفـسه ... وتـأتي عـلى قـدر الرجـال المكايـد[1]

وهذا البيت:

يعرفـك الإخـوان كـل بنفـسه ... وخـير أخ مـن عرفتـك الـشدائد

وهذا البيت:

ليس الغريـب الـذي تنـأى الـديار بـه ... إن الغريـب قريـب غـير مـودود

وهذا البيت:

مـا الفقـر عـار وإن كـشفت عورتـه ... وإنـما العـار مـال غـير محمـود

وهذا البيت:

إذا بـزني مـالي عطـاء تركتـه ... حميدا وطالبت القواضب بـالرد[2]

وهذا البيت:

إذا الشمس غاضت كل عين صحيحة ... فكيـف بهـا في هـذه المقـل الرمـد

وهذا البيت:

كـل جـواد كـاذب في الوعـد ... وكـل خـل خـائن في الـود

وهذا البيت:

واهـا لـنفس حبـست في جلـدي ... إن الأسـير غـرض بالقـد[3]

---

(١) في هذا البيت معنى يغاير قول المتنبي:

عـلى قـدر أهـل العـزم تـأتي العـزائم ... وتـأتي عـلى قـدر الكـرام المكـارم

(٢) القواضب: السيوف القواطع.

(٣) الغرض -بكسر الراء- المتضجر، والقد: بالكسر القيد.

وهذا البيت:

وعتاب الزمان مثل عتاب العين ... تنهى ودمعها بازدياد

وهذا البيت:

وما هذه الدنيا لنا بمطيعة ... وليس لخلق من مداراتها بد

وهذا البيت:

والمال أهون مطلبا من أن أرى ... ضرعا أراعي دونه وأداري

وهذا البيت:

نالوا على قدر الرجا وإنما ... يروى على قدر الأوام الصادي

وهذا البيت:

ما أنصف الفاسق في لحظه ... لما أرانا عفة العابد

وهذا البيت:

كنت أداوي كندي ... لو تركوا لي كبدا[1]

وهذا البيت:

وإن حديث النفس بالشيء دونه ... رمال النقا من عالج لشديد

وهذا البيت:

وجدوا وما جادوا ومحتقب ... للوم من أثرى ولم يجد

وهذا البيت:

أما كان فيكم مجمل أو مجامل ... إذا لم يكن فيكم أغر جواد

---

(١) وقد رأيته في قصة غرامية فهل يكون ورد في شعر الشريف عن طريق الاقتباس؟

وهذا البيت:

ما مقامي على الجداول أرجوه ... لنيل وقد رأيت البحارا[1]

وهذا البيت:

إذا قيد الليل خطو المنى ... مشى النوم في مقلة الساهر

وهذا البيت:

لحا الله دهرا كثير العدو ... حتى الظلام يعادي النهارا

وهذا البيت:

وكيف يتم في بلدة صلاة ... وجل بقاعه قبل الفجور

وهذا البيت:

وما فخر العفيف الجسـ ... ـم إن فسقت سرائره

وهذا البيت:

من يعشق العز لا يرنو لغانيه ... في رونق الصفو ما يغني عن الكدر

وهذا البيت:

والليث لا ترهب الأقران طلعته ... حتى يصمم منه الناب والظفر

وهذا البيت:

ما كل نسل الفتى تزكو مغارسه ... قد يفجع العود بالأوراق والثمر

وهذا البيت:

كم حاطب خانه حبل فأقعصه ... ذلا وشر الحبال الحية الذكر

---

(١) وهو ينظر إلى قوله المتنبي: ومن قصد البحر استقل السواقيا.

وهذا البيت:

سالم تصاريف الزمان فمن يرم ... حرب الزمان يعد قليل الناصر

وهذا البيت:

لو كان حفظ النفس ينفعنا ... كان الطبيب أحق بالعمر

وهذا البيت:

كل يوم نذم للدهر عهدا ... خان فيه ونشتكي منه غدرا

وهذا البيت:

إنما المرء كالقضيب تراه ... يكتسي الأخضر الرطيب ليعرى

وهذا البيت:

إذا تناءت بنا قلوب ... فلا تدانت بنا ديار

وهذا البيت:

ومن قيد الألفاظ عند نزاعها ... بقيد النهى أغنته عن طلب العذر

وهذا البيت:

والحر تنهضه إما شجاعته ... إلى الملم وإما خشية العار

وهذا البيت:

وهل نافعي يوم أقضي صدى ... إذا صاب وادي قومي المطر[1]

---

(١) هذا البيت ينظر إلى قول أبي فراس الحمداني:

معللتي بالوصل والموت دونه ... إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر

وهذا البيت:

والنـاس أسـد تحـامي عـن فرائسـها ... إمـا عقـرت وإمـا كنـت معقـورا

وهذا البيت:

ولـيس كـل ظـلام دام غيهبـه ... يـسر خابطـه أن يطلـع القمـر

وهذا البيت:

مـا كـل مثمـرة تحلـو لـذائقها ... إن الـسياط لهـا مـن مثلهـا ثمـر[1]

وهذا البيت:

وهبك اتقيت السهم من حيث يتقى ... فمن ليد ترميك من حيث لا تدري

وهذين البيتين:

يقولـون نـم في هـدأة الـدهر آمنـا ... فقلـت ومـن لي أن يهـادنني الـدهر

هـل الحـرب إلا مـا تـرون نقيـصة ... من العمر أو عدم من المال أو عسر

وهذا البيت:

وهـل نـافع يومـا وجـدك راجـل ... إذا قيـل يـوم الـروع إنـك فـارس

وهذا البيت:

إن زدتهـم فلقـد نقـصتهم ... إن الزيـادة بالـشغا نقـص[2]

ومـن المخـازي عنـد لابـسها ... مـا لا تـواري الأزر والقمـص

وهذا البيت:

---

(١) الثمر هنا هو العقد في أطراف السوط، والمراد: أن من الثمار ما تعافه النفس ومنها ما يجر إلى الهلاك.

(٢) الحكمة في الشطر الثاني. وللشريف شطرات كثيرة تجري مجرى الأمثال؛ ولكنا سكتنا عنها تجنبا للإسهاب فليراجعها في ديوانه من يشاء.

يقـــدم الباســـل الأبي عـــلى الحتف وفيه عند الهوان نكوص

وهذا البيت:

وكيف وفور العرض والمال وافر ومن يخزن الأموال ينفق من العرض

وهذا البيت:

والسيف إن مر على هامة روعها إن هو لم يقطع

وهذا البيت:

ألا إن رمحا لا يصول لنبعة وإن حساما لا يقد قطيع[1]

وهذا البيت:

وبعض مقال القائلين مكذب وبعض وداد الأقربين خدوع

وهذا البيت:

ما لبث من يمسي مجازا للردى ومعرج القدر المغذ المسرع

وهذا البيت:

رأى بارقا لم يروني وهو حاضر فكيف أرجي ريه وهو شاسع

وهذين البيتين:

الناس حولك غربان على جيف بله عن المجد إن طاروا وإن وقعوا
فما لنا فيهم إن أقبلوا طمع ولا عليهم إذا ما أدبروا جزع

وهذين البيتين:

يقولون ماش الدهر من حيث ما مشى فكيف بماش يستقيم وأظلع
وما واثق بالدهر إلا كراقد على فضل ثوب الظل والظل يسرع

---

(١) القطيع: السوط.

وهذا البيت:

لقد عاف أمواله من يجود ... وقد طلق النفس من يشجع

وهذا البيت:

بالجد لا بالمساعي يبلغ الشرف ... تمشي الجدود بأقوام وإن وقفوا

وهذا البيت:

ومن يشرب بصاف غير رنق ... يرد يوما برنق غير صافي

وهذا البيت:

كأن الليالي كن آلين حلفة ... بأن لا يرى فيهن شمل مؤلف

وهذا البيت:

كل شيء من الزمان طريف ... والليالي مغانم وحتوف

وهذا البيت:

كيف يرجو الكثير من راضه الشوق ... إلى أن رضي ببذل الطفيف

وهذا البيت:

وضيوف الهموم مذ كن لا ينزان ... إلا على العظيم الشريف

وهذا البيت:

والحظوظ البلهاء من ذي الليالي ... أنكحت بنت عامر من ثقيف[1]

---

(١) لما ظهر ديوان زكي مبارك اعترض أدباء العراق على هذا البيت:

لم تنسني فتنة الدنيا وزينتها ... ما في شمائلك الغراء من فتن

-وقالوا لا توصف الشمائل بأنها غراء، وإنما توصف بأنها غر، وأطالوا الجدل في مجلة [أبوللو]، واشترك الأب أنستاس في الجدل، وعارضنا معارضة طويلة في منزل

وهذا البيت:

إنـــما نلـــبس الـــدروع ثقـــالا ... لرجـــوع إلى خفـــاف الـــشفوف

وهذا البيت:

إذا أنـــت فتـــشت القلـــوب وجـــدتها ... قلوب الأعادي في جسوم الأصادق

وهذا البيت:

مـــا جمعـــي الأمـــوال إلا غنيمـــة ... لمن عـاش بعـدي واتهـام لرازقـي[1]

وهذا البيت:

كـــم لـــسان دنـــا إليـــك ... بقلـــــــب منـــــــافق

وهذا البيت:

ولا دار إلا ســـوف يجـــلى قطينهـــا ... على نعق غربان الخطـوب النواعـق

وهذا البيت:

ومـــا العـــيش إلا غمـــة وارتياحـــة ... ومفـــترق بعـــد الـــدنو وملتقـــي

وهذا البيت:

أراك تجـــزع للقـــوم الـــذين مـــضوا ... فهل أمنت عـلى القـوم الـذين بقـوا

وهذا البيت:

وإذا الحلـــيم رمـــى بـــسر صـــديقه ... عمـــدا فـــأولى بـــالوداد الأحمـــق

الدكتور بشر فارس، والآن نرى الشريف يصف الحظوظ بأنها بلهاء لا بله، فلينقل العراقيون المعركة إلى شاعر العراق.

(١) في الديوان "اتهاما" بالنصب وهو تحريف، ويظهر أن مصحح الديوان ظن أن خبر "ما" منصوب، وهو كذلك في غير هذا الموضع.

وهذا البيت:

كفى بقوم هجاء أن مادحهم ... يهدي الثناء إلى أعراضهم فرقا

وهذا البيت:

سابق فليس تنال ... أغراض المنى إلا سباقا

وهذا البيت:

وليس ينال الأمر إلى بحازم ... من القوم أحمي ميسما ثم ألصقا

وهذا البيت:

ولا تزرعوا شوك القتاد فإنكم ... جديرون أن تدموا به وتشاكوا

وهذا البيت:

أبتغي عدل زمان قاسط[1] ... إنما الناس على دين الملك

وهذا البيت:

وللنفس من عجز الفتى وزماعه ... زمام إلى ما يشتهي وعقال

وهذا البيت:

ولا تسمعن من حاسد ما يقوله ... فأكثر أقوال العداة محال[2]

وهذا البيت:

وليس يأتلف الإحسان في ملك ... حتى يؤلف بين القول والعمل

وهذا البيت:

كل حبيب أبدا أيامه قلائل

---

(١) القاسط: الجائر.

(٢) المحال -بكسر الميم- المكر والدهاء.

وهذا البيت:

ومـــــن دواء الـــــداء إن ... مـــا طـــل كـــي عاجـــل

وهذا البيت:

ومـــا طلـــب البـــذل مـــن باخـــل ... بميـــسوره غـــير داء عـــضال

وهذا البيت:

وإن طراد الـــنفس عـــما ترومـــه ... أشـــد عنـــاء مـــن طـــراد قبيـــل[1]

وهذا البيت:

وأول لـــؤم المـــرء لـــؤم أصـــوله ... وأول غـــدر المـــرء غـــدر خليـــل

وهذا البيت:

ألا إنـــما الـــدنيا إذا مـــا نظرتهـــا ... بقلبـــك أم للبنـــين أكـــول[2]

وهذا البيت:

وإني رأيـــت غنـــي الأنـــام ... إذا لم يكـــن ذا عـــلاء مقـــلا

وهذا البيت:

الـــنفس أدنـــى عـــدو أنـــت حـــاذره ... والقلب أعظم مـا يبلى بـه الرجـل

وهذه الأبيات:

عـــادة للزمـــان في كـــل يـــوم ... يتنـــاءى خـــل وتبكـــى طلـــول

فالليـــالي عـــون عليـــك مـــع البـــ ... ـــين كـــما ســـاعد الـــذوابل طـــول

هـــي دنيـــا إن واصـــلت ذا جفـــت ... هـــذا مـــلالا كأنهـــا عطبـــول

---

(١) في الديوان (قتيل) وهو تحريف.

(٢) في الديوان (ثكول).

كـل بـاك يبكـى عليـه وإن طـا ... ل بقـاء والثاكـل المثكـول

وهذا البيت:

نؤمل أن نروي من العيش والردى ... شروب لأعمار الرجال أكول

وهذا البيت:

وموت الفتى خير له مَن حياته ... إذا جاور الأيام وهو ذليل

وهذا البيت:

ومن مات لم يعلم وقد عانق الثرى ... بكاه خليل أم سلاه خليل

وهذا البيت:

نغالب ثم تغلبنا الليالي ... وكم يبقى الرمي على النبال

وهذا البيت:

سلي عن العيش أنا لا ندوم له ... وهون الموت ما نلقى من العلل

وهذا البيت:

هل نافع نفسك أذللتها ... كرامة البيت وعز القبيل

وهذا البيت:

وسيان عندي من طواني على جوى ... يعذب قلبي أو طواني على دخل

وهذا البيت:

وكل فتى لا يطلب المجد أعزل ... وكل عزيز لا يجود ذليل

وهذا البيت:

وما المكرهون السمهرية في الطلى ... بأشجع ممن يكره المال في البذل

وهذه الأبيات:

اشتر العز بما بيـ ... ـع فما العز بغال
بالقصار الصفر إن شئـ ... ـت أو السمر الطوال
ليس بالمغبون عقلا ... من شرى عزا بمال
إنما يدخر المـ ... ـال لحاجات الرجال
والفتى من جعل الأمـ ... ـوال أثمان المعالي

وهذا البيت:

إذا ما نفع الجهل ... فإن الضائر العقل

وهذا البيت:

وما شر تطاوح عن زناد ... بمفتقد إذا بقي الضرام[1]

وهذا البيت:

وكيف نوم المرء من تحته ... دون الكرى مضطرب الأرقم

وهذا البيت:

إذا العضو لم يؤلمك إلا قطعته ... على مضض لم تبق لحما ولا دما

وهذا البيت:

كالغيث يخلفه الربيع وبعضهم ... كالنار يخلفها الرماد المظلم

وهذا البيت:

هبوا فقد تتيقظ ... الأجداد للقوم النيام

---

(١) تأمل روعة الخيال في هذا البيت.

وهذا البيت:

ما الذنب للمزن جازتني مواطره ... وإنما الذنب للأرزاق القسم

وهذا البيت:

إن من خاضت النواظر فيه ... حر أن تخوضه الأقدام

وهذا البيت:

وما الليث إلا من يدل بنفسه ... ويمضي إذا ما بادهته العظائم

وهذا البيت:

لا تصفحن عن المليم إذا جنى ... وإذا المضارب أمكنتك فصمم

وهذا البيت:

لا يذخر الضيغم من قوته ... ما يذخر النمل من المطعم

وهذا البيت:

قد يبلغ الرجل الجبان بياله ... ما ليس يبلغه الشجاع المعدم

وهذا البيت:

قد يقدع المرء وإن كان ابن عم ... ويقطع العضو الكريم للألم

وهذا البيت:

وما كل ليث يغنم القوم زاده ... إذا خفقت تحت الظلام الضراغم

وهذا البيت:

إذا العدو عصاني خاف حد يدي ... وعرضه آمن من هاجرات فمي

وهذا البيت:

ولو أمن الجبان من المنايا ... لأغمد سيفه البطل المحامي

وهذا البيت:

من أضمر الصد عمن ليس يضمره ... بغيا مشي في نواحي سره الندم

وهذا البيت:

وغير بعيد منك ناء تزوره ... وغير قريب قاطن لا تؤمه

وهذا البيت:

أضعت الهوى حفظا لحزمي وإنما ... يصان الهوى في قلب من ضاع

وهذا البيت:

تشف خلال المرء لي قبل نطقه ... وقبل سؤالي عنه في القوم ما اسمه

وهذا البيت:

ولا تيأسن من عفو حر فإنما ... تحلمه باق إذا ضاع حلمه

وهذا البيت:

فلا عار أن تستنجد الكأس راحة ... أضر بها حمل الجزار المصمم

وهذا البيت:

تمضي الزمان ولا نحس كأنه ... ريح تمر ولا يشم نسيمها

وهذا البيت:

كم ذاهب أبكى النواظر مدة ... ومضى وطاب لمقلة تهويمها[1]

وهذا البيت:

ونلقي قبل لقيان المنايا ... رماح الداء تطعن في الجسوم

---

(١) التهويم: النوم القليل.

وهذا البيت:

فليت كريم قوم نال عرضي ... ولم يدنس بحمد[1] من لئيم

وهذا البيت:

تملي المقادير أعمارا وتنسخها ... ويضرب الدهر أياما بأيام

وهذا البيت:

نصف عيش المرء نوم والذي ... يعقل العاقل منه كالحلم

وهذين البيتين:

والحر من حذر الهوا ... ن يزايل الأمر الجسيما

والضيم أروح منه مط ... رور الظبا بلغ الصميما[2]

وهذا البيت:

وخاطر على الجلي خطار ابن حرة ... وإن زاحم الأمر العظيم فزاحم[3]

وهذا البيت:

لا تصحبن دهرك إلا خائفا ... فراق إلف ونبوا عن وطن

وهذين البيتين:

ومنظر كان بالسراء يضحكني ... يا قرب ما عاد بالضراء يبكيني

هيهات أغتر بالسلطان ثانية ... قد ضل ولاج أبواب السلاطين

وهذا البيت:

لا تخلدن إلى أرض تهون بها ... بالدار دار وبالجيران جيران

---

(١) في الديوان (بذم) والذي أثبتناه أقوى من الوجهة الشعرية.

(٢) المطرور: المحدد، والظبا: جمع ظبة وهي حد السيف أو السنان.

(٣) الجلي: الأمر العظيم.

وهذا البيت:

إذا الفتى كان في أفعاله شوه ... لم يغن أن قيل إن الوجه حسان

وهذا البيت:

يا قوم إن طويل الحلم مفسدة ... وربما ضر إبقاء وإحسان

وهذا البيت:

ما ينفع الماضين أن بقيت لهم ... خطط معمرة بعمر فان

هذا البيت:

وما خير عين خبا نورها ... ويمنى يد جذ منها البنان

وهذا البيت:

وما كل أصل كريم العرو ... ق تأبى على الغمز عيدانه

وهذا البيت:

إذا منزل راب سكانه ... من الأرض حرم إيطانه

وهذا البيت:

وما الحب إلا فرقة بعد ألفة ... وإلا حذار بعد طول أمان

وهذا البيت:

إذا المرء لم يحفظ ذماما لقومه ... فأحج به أن لا يفي بضمان

وهذا البيت:

تعرفني بأنفسها الليالي ... وآنف أن أعرفها مكاني

وهذه الأبيات:

فكم صاحب تدمى علي بنانه ... ويظهر أن العز لثم بناني

يضم حشا البغضاء عند تغيبي ... ويجلو جبين الود حين يراني
مسحت بحلمي ضغنه عن جنانه ... فلما أبى مسحته بسناني
سبقت برمي قلبه فأصبته ... ولو لم أصبه عاجلا لرماني

وهذين البيتين:

أشكو النوائب ثم أشكر فعلها ... لعظيم ما ألقى من الخلان
وإذا أمنت من الزمان فلا تكن ... إلا على حذر من الإخوان

وهذا البيت:

وما تنفع المرء الشمال وحيدة ... إذا فارقتها بالمنون يمين

وهذا البيت:

وسعت أيامي ولم تسعني ... أفضل عنها وتضيق عني

وهذا البيت:

وليس على زهر الكواكب سبة ... إذا غض من أنوارها زبرقانها[1]

وهذا البيت:

أكرر في الإخوان عينا صحيحة ... على أعين مرضى من الشنآن[2]

وهذا البيت:

لا تجعلن دليل المرء صورته ... كم مخبر سمج عن منظر حسن

وهذا البيت:

ورب وفاح الوجه يحمل كفه ... أنامل لم يعرق بهن عنان

---

(١) الزبرقان: القمر.
(٢) الشنئان: البغض.

وهذين البيتين:

وشر الأذى ما جاء من غير حسبة ... وكيد المبادي دون كيد المداهن
وإن بلوغ الخوف من قلب خائف ... لدون بلوغ الخوف من قلب آمن

وهذين البيتين:

قصور الجد مع طول المساعي ... وقول الناس لم ينجح فلان
أحب إلي من سعي هجين ... وإن بلغ العلا جد هجان[1]

وهذين البيتين:

ومن عجب صدود الحظ عنا ... إلى المتعممين على الخزايا
أسف بمن يطير إلى المعالي ... وطار بمن يسف إلى الدنايا

وهذين البيتين:

وتفرق البعداء بعد مودة ... صعب فكيف تفرق القرباء
وخلائق الدنيا خلائق مومس ... للمنع آونة وللأعطاء

وهذا البيت:

إذا ما الحر أجدب في زمان ... فعفته له زاد وماء

وهذا البيت:

هيهات يا دنيا وبرقك صادق ... أرجو فكيف إذا وبرقك كاذب

وهذا البيت:

وأعظم ما ألاقي أن دهري ... يعد محاسني لي من ذنوبي

---

(١) الهجين: اللئيم، والهجان: الكريم، والمراد: أن الخيبة مع السعي النبيل أشرف من الفوز مع السعي الخسيس، فليست القيمة بالحظوظ، وإنما القيمة بصدق الجهاد.
وهذا معنى نفيس لا يخطر على بال شاعر إلا إن كان في مثل هذا الشريف.

وهذا البيت:

وللحلم أوقات وللجهل مثله ... ولكن أوقات إلى الحلم أقرب

وهذين البيتين:

تجاذبني يد الأيام نفسي ... ويوشك أن يكون لها الغلاب
وتغدر بي الأقارب والأداني ... فلا عجب إذا غدر الصحاب

وهذين البيتين:

فمالي طول الدهر أمشي كأنني ... لفضلي في هذا الزمان غريب
إذا قلت قد علقت كفي بصاحب ... تعود عواد بيننا وخطوب

فما رأيكم فيما سمعتم يا أدباء بغداد!

ألا ترون أن الثروة الشعرية كانت خليقة بعناية الدارسين والناقدين؟ ألا ترون أن الشريف كان أهلا لأن يتعقبه أحد النقاد فيدرس ما في شعره في الحكم والأمثال ثم يبين ما فيها من المبتكر والمنقول؟ أما كان أهلا لأن يشغل به النقاد فيقولوا إنه ابتكر كيت أو سرق زيت؟

لقد رأيناهم يتعقبون المتنبي فيردون حكمه وأمثاله إلى الأدب المأثور عن قدماء اليونان فما بالهم سكتوا عن الرضي ذلك السكوت؟

أتريدون الحق أيها الأدباء؟ الحق أن النقاد شغلوا أنفسهم بالمتنبي طاعة لبعض الرؤساء، ولم يشغلوا أنفسهم به حبا في الوقوف على أصائل المعاني. إن حقد الصاحب بن عباد على المتنبي هو الذي وجه الشعراء إلى نقد شعره، وكان ذلك النقد على ما فيه من ظلام الهوى والغرض أساس الشهرة التي تمتع بها المتنبي في الحياة وبعد الممات، ولولا التحامل على المتنبي لما وجد أنصار يرفعون اسمه فوق الأسماء.

وقد حرم الشريف الرضي أسباب الشهرة من هذه الناحية، فقد حمله التجمل والتعفف على هجر أبواب الملوك والوزراء، فلم يكن يمدح حين يمدح إلا عن حب أو مدارة، ولم يره أحد يزاحم الشعراء والأدباء على أبواب السلاطين فكان من أثر ذلك أن قل حاسدوه والحاقدون عليه، فلم يشق في ثلبه قلم ولا لسان، ولم يكن الأدب في تلك العصور يعرف الحياة إلا بفضل المماراة والضجيج أفلا ترون معي أيها السادة أن الأدب كان حظه حظ التاريخ لا يرفع فيه علم إلا بفضل الدماء؟

لقد ولي مصر في العهد الإسلامي كثير من المتحكمين، وكان كافور أقربهم إلى الأذهان؛ لأنه أزال الغشاوة عن أماني المتنبي، وتولى الوزارة في بغداد كثير من الرجال، وكان أقربهم إلى الأذهان أقطاب البرامكة؛ لأن سلطانهم ختم بالفجائع.

فياليت شعري متى يجيء العهد الذهبي الذي تسمو فيه الآراء بفضل ما فيها من قوة الصدق، لا بفضل من يحرسها من الجنود.

إن هذه البلية لا تزال تسيطر على العقول والأذواق، ففي عصرنا الحاضر نجد لأهل الأدب وسائل وأساليب لا تعرف المنطق ولا العدل، وتلك الوسائل والأساليب ستصنع في الأدب الحديث أمثال ما صنعت الأساليب القديمة في الأدب القديم.

وقد شكا النقاد في فرنسا هذه البلية، إذ تبين لهم أن الكتاب والنقاد انقسموا إلى جماعات تتقارض التلطف والثناء، وهم يسمون ذلك بالكمارادري Camaraderie وتلك الكمارادري معروفة في مصر ولعلها أيضا معروفة في الشام والعراق.

وقد شكوت هذه البلية، واتفق لي أن أكون من ضحاياها في كثير من الأحيان، وما شكوته أنا شكاه سواي، فالنقاد اليوم يعرفون أصدقاءهم قبل

سائر الناس، والجرائد والمجلات قد تعامل الكتاب والشعراء والمؤلفين وفقا لصلاتهم بمختلف الأحزاب.

أما بعد: فقد بينت لكم بعض الأسباب التي قضت على الشريف الرضي بالخمول، فهل تحبون أن أحدثكم كيف عرفت ذلك الشاعر العظيم؟

لا تظنوا أني تلقيت الإعجاب به عن الأساتذة والأدباء، فقد كان أهل الأدب في عهد حداثتي لا يختلفون إلا حول أبي تمام والبحتري والمتنبي من بين القدماء، وشوقي وحافظ من بين المحدثين، ثم اتفق أن شرعت في سنة ١٩١٧ أؤلف كتاب "مدامع العشاق" فحملني ذلك على استقراء المأثور من الشعر الوجداني في مختلف العصور، وكانت فرصة ذهبية عرفت فيها الشريف الرضي شاعر القلب والوجدان.

ومنذ ذلك اليوم وأنا أحدث الناس عن القائد المعروف لا الجندي المجهول، حتى أصبح وله في مصر أشياع يقدمونه على سائر الشعراء؛ وأصبحتم تسمعون رنين شعره من حنجرة "أم كلثوم".

وها نحن أولاء نعود فندعو أهل بغداد إلى إحياء ذكراه؛ ها نحن أولاء نعود فنتحدث عنه في المدينة السحرية التي عرف فيها كيف تندى الأزهار، وكيف تقعقع الرعود، وكيف تصطخب القلوب.

ها نحن أولاء نتحدث عنه في خشوع وقنوت، كما يتحدث المؤمن وهو في حرم المحراب.

فيا أيها الشريف: أنا في وطنك وفي ضيافتك؛ فارفع الحجب عن أسرار قلبك وسرائر عبقريتك، فبي إلى فهم روحك ظمأ لا ترويه دجلة، ولا يرويه النيل. وسلام عليك بين المصطفين الأبرار من أقطاب الشعراء!..

الشاعـــر المثقف

أيها السادة:

حديث الليلة عن ثقافة الشريف الرضي وبصره بالبلاغة وإحساسه قوة الكلام البليغ.

ولا يمكن تصور هذا الجانب من حياة الشريف إلا بتصور ما كانت عليه الحياة العقلية في القرن الرابع، ذلك العهد الذي رأى كيف تتصاول العقول، وكيف تصطرع الأقلام، وكيف يكون الحول والطول مقرونين بسلاح المنطق وبراعة البيان.

ففي ذلك العصر عرفت اللغة العربية نهضة أدبية لا تزال تسيطر على الأقلام والعقول إلى اليوم، في ذلك العصر نبغ: أبو الحسن الجرجاني صاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه. وفي ذلك العصر نبغ: أبو بكر الباقلاني صاحب إعجاز القرآن. وفيه نبغ: أبو القاسم الآمدي صاحب الموازنة بين الطائيين: أبي تمام والبحتري. وفيه ظهر أبو علي الحاتمي الذي سن المذاهب للهجوم على المتنبي. وفيه تفجرت فصاحة أبي هلال العسكري صاحب الصناعتين.

وفي ذلك العصر ظهر إخوان الصفا الذين دانوا اللغة العربية برسائلهم العميقة التي وعت معارف العرب والفرس واليونان. وفيه نبغ: أبو حيان التوحيدي، وابن مسكويه. وفيه عرف النثر الفني أقطابا عظاما لا يزالون أعلام الفصاحة وفرسان البيان، وكيف تنسى لغة العرب آثار ابن العميد، وابن عباد والهمذاني والخوارزمي والتنوخي وابن وشمكير وابن شهيد.

ومن هذه الإشارات ترون القرن الرابع تميز بمزايا ثلاث: النقد الأدبي، والجدل العقلي، والنثر الفني؛ وهي مزايا كانت تفترق ما شاء لها الزمن الجائر؛

فيرى بعضها في الشام، وبعضها في مصر، وبعضها في الأندلس، ولكنها كانت تجتمع في بغداد؛ وكانت بغداد وطن الشريف كما تعلمون.

وصورة بغداد في القرن الرابع تتمثل في قول الصاحب ابن عباد في خطابه إلى ابن العميد: "بغداد في البلاد، كالأستاذ في العباد" وتتمثل أيضا في الجزع على فراقها، الجزع الموجع الذي أحسه أبو العلاء؛ وأبو العلاء كما تعرفون كان يرى الدنيا بأذنيه لا بعينيه، فلما قدم بغداد رأت أذناه ما لم تريا من قبل؛ وصارت المجالس والمساجد هي الزهر والماء في إحساس ذلك الأديب الفيلسوف.

ومن ثقافة القرن الرابع ومعارف بغداد تكونت عقلية أبي العلاء الذي دان الأدب برسالة الغفران، وبقصائده اللزوميات.

وقد شاءت الظروف أن يعيش الشريف الرضي في القرن الرابع، وبعقل القرن الرابع، وشاءت الظروف أيضا أن يكون من أسرة لها في العلم والأدب ماض جميل، بل وشاءت الظروف أن يكون له أخ من الأئمة في العلوم العقلية والنقلية، ثم قضت بأن يكون الشريف الرضي نقيب الأشراف في زمن لم يكن فيه للأشراف عرش ولا تاج، وإنما كان لهم مجد العلم والأدب والبيان.

وقد وفى الشريف الرضي لعصره وأسرته أصدق الوفاء، فأقبل على الحياة العلمية، والأدبية إقبال الرجال، وشارك في التأليف مشاركة الفحول، فألف كتاب: "حقائق التأويل في متشابه التنزيل"، وكتاب: "مجازات الآثار النبوية" وكتاب: "تلخيص البيان عن مجازات القرآن"، وكتاب: "الخصائص"، و"أخبار قضاة بغداد".

وما أزعم أني اطلعت على جميع هذه المؤلفات، فقد ضاع أكثرها مع الأسف، وإنما اطلعت على مجازات الآثار النبوية، وهو كتاب ممتع، يمثل ثقافة الشريف أصدق تمثيل، ويدل على بصره باللغة والأدب ومذاهب البيان.

ولم تكن ثقافة الشريف مقصورة على الجوانب الجافية التي وقف عندها بعض الأعلام في ذلك الزمان، وإنما رق الشريف وظرف، فمشى به ذوقه اللطيف إلى دراسة شعر ابن حجاج أظرف شعراء القرن الرابع وأبرعهم في وصف اللهو والمجون، وقد تخير الشريف طاقة من شعره سماها: (الحسن من شعر الحسين) ولعله بهذه التسمية كان صاحب الفضل على أبي العلاء الذي سمى كتابه عن المتنبي: (معجز أحمد)، وكتابه عن البحتري: (عبث الوليد) وكتابه عن أبي تمام: (ذكرى حبيب).

ولم تكن ثقافة الشريف موقوفة على ما وعت الكتب والمصنفات، وإنما امتد بصره فدرس الدنيا وخبر الناس، وساقه إلى ذلك أسباب خطيرة ترجع في جملتها إلى اثنتين:

الأولى: تطلعه إلى الخلافة وحرصه على الاتصال بأقطاب الزعماء في الحواضر الإسلامية.

والثانية: تشوفه إلى ما أجن الوجود من غرائب الصباحة، وعجائب الجمال، وسترون في الليالي المقبلات كيف كان الشريف يعيش موزع القلب والعقل بين الحب وبين المجد! وكيف كان فريسة للدسائس في عالم المجد، وعالم الوجدان.

فالشريف الرضي أيها السادة عاش شعره كله، كما يعبر الفرنسيون، وهو لم يصف أزمات الحياة كما يفعل اللاهون والعابثون، وإنما وصف حياة رآها بعينيه، وأحسها بقلبه، وذاق من شهدها وصابها ما يذوق أحرار الرجال.

ونحن بهذه الأحكام لا نتعصب لشاعر أحببناه، وإنما نطوف حول نفس روحانية لم يعرف نظيرها العلم، ولم يشهد مثيلها الخيال.

نطوف حول نفس مظلومة مهيضة كافحت في الحياة أصدق كفاح،

وناضلت في سبيل المجد أشرف نضال.

لقد كان الناس في عهد الشريف يتفقهون ليعيشوا، أما هو فكان يتفقه ليسود.

كان الشعراء في عهد الشريف ينظرون ليحظوا بأعطيات الخلفاء، أما هو فكان ينظم الشعر ليزلزل الرواسي في عروش الخلفاء.

كان الشعراء يتغزلون لاهين لاعبين، أما الشريف فكان له في كل أرض صبابة، وكان له في كل بقعة غرام ماحق مبيد.

وكان ذلك مزاجا بين طغيان العقل وعدوان القلب، كان مزاجا بين العقل المثقف والقلب الحساس.

وجملة القول أن الرضي لم يكن من طراز شعراء الجاهلية، الشعراء العوام الذين لم يعرفوا غير ما كان يعرف سكان البيداء، ولم يكن من طراز شعراء العصر الأموي الذين وقفوا عند المعارف الجاهلية بعد أن أنارتها بعض المعارف الدينية، ولم يكن من طراز الشعراء الذين شهدوا صباح العصر العباسي، أولئك الشعراء الذين وقفوا عند عربدة الكئوس، ولم يعرفوا الخلفاء إلا في طلب الرزق الحرام أو الحلال، وإنما كان شاعرا مثقفا يدرك تمام الإدراك كيف تصطرع العقول والمذاهب الأهواء، ويفهم أن الدنيا في عصره نهب مقسم بين الديلم وأحفاد بني العباس، ويتمنى لو أقام على شواطئ دجلة حاضرة تساوي الحاضرة التي أقامها الفاطميون على شواطئ النيل.

فالشريف الرضي كان يرى الدنيا بعين الرجل المثقف ـ المثقف الشريف لا المثقف الصعلوك ـ وكانت أحاسيسه في دنياه لا تقدر بالأوهام؛ وإنما كان ينصب لها دقيق الموازين، ويسعى في تحقيقها سعي الفحول.

كان الشريف في حرب شعواء بين القلب والعقل، وكان يطمح في أن

يجمع لنفسه جميع أقطار المجد، فيكون من أئمة الفقهاء، وأقطاب الشعراء، وأعيان الخلفاء.

وقد ضاعت أمانيه ضياع الزهر في الوادي الجديب، ولم يبق منها غير الإمامة في الشعر والبيان.

أيها السادة:

قد تقولون: وأين الشواهد على بصره بالمذاهب اللغوية والأدبية؟

إن قلتم ذلك فنحن نحدثكم عن فهمه لأصول الكلام البليغ، وحجتنا في ذلك ما وصف به شعره، وما تحدث به عن البلاغة وهو يتحدث عن اللغويين والشعراء.

وأول ما ننص عليه: إحساس الشريف بالصلة بين المعاني وبين الأوزان، يدل على ذلك ما جاء في ص ٩٤٥ من الديوان، فقد أرسل إليه أبو إسحاق الصابي قصيدة مدح نثبت منها هذا المطلع:

أبـا كـل شيء قيـل في وصـفه حـسن إلى ذاك ينحو من كنـاك أبـا الحـسن

قال جامع الديوان: "فأجابه عن هذه القصيدة وجعل الجواب على رويها دون وزنها؛ لأن ذلك الوزن المقيد لا يجيء في الكلام إلا مقلقلا، ولا النظم إلا مختلا".

فالشريف كان يشعر بالصلة بين الوزن وبين المعنى، وهذا الاتجاه كان معروفا عند أدباء القرن الرابع، فقد حدثنا الصاحب ابن عباد أنه لم يجد فيمن صحبهم من الأدباء من يفهم الشعر كما كان يفهمه أبو الفضل ابن العميد "فإنه كان يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات، ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير الوزن والقافية".

وحدثنا أن ابن العميد كان يقول: "إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف

يجب أن يوضع الشعر ويبتدأ النسج؛ لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذي قصده، والمعنى الذي اعتمده، وينظر في أي الأوزان يكون أحسن استمرارا، ومع أي القوافي يحصل أجمل اطراد"[1].

فما كان ابن العميد يراه من الوجهة النظرية كان الشريف يحققه من الوجهة العملية، وما كان الشريف شاعرا فحسب، وإنما كان كذلك من أقطاب الناقدين.

ويتصل بهذا حرصه على تحبير القصائد، وقد كان ذلك الحرص يرقعه أحيانا في المضحكات، فقد احتفل بنظم قصيدة يهنئ بها أخاه المرتضى بمولود، ولكن شاء الحظ أن تلد امرأة أخيه بنتا، فصرف القصيدة إلى غيره من الأصدقاء! وقد وقع له هذا الحادث المضحك مرتين"[2].

وقيمة هذا الشاهد ترجع إلى دلالته على احتفال الشريف بقرض القصائد، فقد كان يتخير المناسبات ويستعد لها أتم استعداد.

وهناك وجه آخر من وجوه البصر بالتاريخ الأدبي، فقد تفرد بميزة لم نجدها إلا قليلا عند غيره من الشعراء، وتلك عنايته بتأريخ قصائده، فهو الشاعر الوحيد الذي نجد جميع قصائده مؤرخة من بين سائر القدماء، ولهذا التأريخ نفع من وجهتين: فهو أولا شاهد على شعور الشريف بأن البلاغة من المواد الوصفية في حياة المجتمع، وأنها لذلك خليقة بالتأريخ، وهو ثانيا يسعف من يهمهم أن يعرفوا كيف تطورت عقلية الشاعر من حال إلى حال.

ولقد تظنون أن هذا العمل النافع قام به جامع الديوان، ولم يقم به الشريف ونجيب بأن ديوان الشريف رتب بعنايته وهو حي، وقد طلبت منه

---

(١) انظر تحقيق هذه القضية في كتاب النثر الفني ج٢ ص٥٢ و٥٦.
(٢) انظر الديوان ص ٢٥١ و٤٦٢

"تقية" بنت سيف الدولة نسخة وهي بمصر، وطلبه كذلك الصاحب ابن عباد، ولا يطلب الديوان إلى وهو عند صاحبه حاضر عتيد.

وقد كان الشريف ينظر إلى الشعر نظر الفنان، فنراه يقول في وصف قصائده الجياد:

منتصبات كالقنا لا ترى ... عيا من القول ولا أفنا
لا يفضل المعنى على لفظه ... شيئا ولا اللفظ على المعنى

فمثل الشريف في نظم شعره مثل الصيدلي البارع الذي يحسن تركيب الدواء، فهو شخص مسئول يركب الدواء بمقادير معينة محدودة يؤخذ بعضها بالقطارة وبعضها بالميزان، وهو يعلم أن الدواء لو نقص منه جزء أو زيد عليه جزء لأصبح ضارا أو غير مفيد(١).

وكان يشعر بأن أهم عناصر البلاغة قوة الذاتية، نعرف ذلك من كلامه في تجريح من يسرقون شعره وينتحلونه في بعض البلاد، فقد هددهم بالفضيحة وأعلنهم أن شعره سينم عليه وسيبوءون بالخيبة والإخفاق؛ وذلك إذ يقول:

ألا من عذيري من رجال تواعدوا ... لحربي من رامي عقوق ورامح
وغرهم مني اصطبار على الأذى ... وقد يكظم المرء الأذى غير صافح
فما الجارم الجاني عقوقي بسالم ... ولا الماطل اللاوي ديوني برابح
أغار على ذود من الشعر آمن ... تقادم عندي من نتاج القرائح(٢)
فياليتهم أدوه في الحي خالصا ... ولم يخلطوه بالرذايا الطلائح(٣)

---

(١) النثر الفني ج١ ص٢٢٩٦.
(٢) الذود من الثلاثة إلى العشرة في الإبل والخيل. وهو هنا مجاز عن القصائد.
(٣) الرذايا: جمع رذي وهو الذي أثقله المرض، والأنثى رذية، صارت إليه وخيله رذايا. والطلائح: جمع طليح وهو المهزول.

وإنك لو موهت كل هجينة[1] ... على ناظر ما عددت في الصرائح
أرى كل يوم والعجائب جمة ... على وبر الجربى وسوم الصحائح[2]
إذا طاردوها خالفت برقابها ... رجوعا إلى أوطانها والمسارح
وإن أوردوها غير مائي حايدت ... حياد عيوف ينكر الماء قامح[3]
إذا انجفلت[4] في غارة بت ناظرا ... أراقب منها روحة في الروائح
كأن بني غبراء إذ ينهبونها ... أحالوا على مال بذي الدوح سارح
يرجون منها والأماني ضلة ... رجاء نتاج الحمل من غير لاقح[5]
أباغث أضرتها السفاهة فاغتدت ... تخطف هذا القول خطف الجوارح[6]
هبوها إليكم من يدي منيحة ... لقد آن يا للقوم رد المنائح[7]
دعوا ورد ماء لستم من حلاله[8] ... وحلوا الروابي قبل سيل الأباطح[9]
ولا تستهبوا العاصفات وأصلكم ... نجيل رمت فيه الليالي بقادح[10]

---

(١) الهجينة: غير الكريمة، والهجين من أبوه خير من أمه، والصرائح جمع صريح وهو ضد الهجين.
(٢) الوبر: صوف الإبل والأرانب ونحوها. والجربى: جمع جربان والوسوم: جمع وسم وهو العلامة التي يميز بها الحيوان من ضروب الصور.
(٣) المحايدة: المجانبة. والقامح: الذي يرفع رأسه عند الخوف ويمتنع من الشرب.
(٤) انجفلت: نفرت.
(٥) اللاقح: الناقة قبلت اللقاح.
(٦) الأباغث والبغاث: لئام الطير، وتطلق مجازا على أخلاق الناس. والجوارح ذوات الصيد من السباع والطير.
(٧) المنيحة: من قولهم منحة الناقة إذا جعل له وبرها ولبنها وولدها.
(٨) أي لستم أهلا للحلول به.
(٩) الروابي: جمع رابية وهي ما ارتفع من الأرض. والأباطح: جمع أبطح وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى. وهو ينهاهم عن التعرض للخطر بانتحال أشعاره.
(١٠) النجيل: ضرب من الحمض وهو معروف في مصر وتصلح به أرض الملاعب. والقادح: أكال يقع في النبت والشجر والأسنان.

فما أنتم من مالئ ذلك الحبا ... ولا فيكم أكفاء تلك المناكح
ولم تحسنوا رعي السوامخ قبلها ... فكيف تعاطيتم ركوب الجوامح[1]
ولا تطلبوها سمعة في معرة ... تحدث عنكم كل غاد ورائح
خمول الفتى خير من الذكر بالخنا ... وجر ذيول المنديات الفواضح[2]

فهذا الشاعر يصور قصائده المسروقة حين تضاف إلى قصائد غيره بصور الصحاح من الإبل والخيل حين تضاف إلى المراض، ويتمثلها تلوي رقابها نزاعا إلى وطنها الأصيل، وتأبى ورود الماء الغريب، ثم يرمى سارقي شعره بأنهم ليسوا أكفاء الزواج من تلك القصائد، وأنهم لم يحسنوا رعي البقل فكيف يخاطرون بركوب الجياد الجوامح!

ووصف قصائده المسروقة في مكان آخر فقال:

تصغي لها الأسماع والقلوب ... مثل السهام كلها مصيب
لطيمة نم عليها الطيب[3] ... تودعها الأردان والجيوب[4]
يتعب ذو البراعة الأديب ... ويغنم الهلباجة المعيب[5]
في كل يوم هجمة تلوب[6] ... هاج عليها الكلأ الطريب[7]
يطلبن أرضي والهوى طلوب ... لا أمم مني ولا قريب

---

(١) السوامخ. البقول، والجوامح: جمع جامح وهو الفرس الذي يركب رأسه فلا يراض.
(٢) المنديات: جمع مندية وهي الفعلة يندى لها الجبين.
(٣) الأردان: جمع ردن بالضم وهو أصل الكم.
(٤) اللطيمة: المسك وكل طيب يحمل على الصدغ.
(٥) الهلباجة: الأحمق الجامع لكل عيب.
(٦) هاج الكلأ: يبس.
(٧) الهجمة: من الإبل أولها أربعون؛ أو هي ما بين السبعين إلى المائة. وتلوب: تعطش، وإبل لوب ولوائب: عطاش.

عنـــد الأعـــادي وســـمها غريـــب يرصـــدهن الحـــارب المريـــب[1]

فأنتم ترون أن الشريف يؤمن بأن سرقة شعره عناء في عناء وهي نظرة لا تقع إلى من رجل مثقف العقل، وهي دليل على قوة الذاتية التي تعد من أهم العناصر في مقومات الآداب والفنون، فالشاعر الوسط، أو الكاتب الوسط، أو الموسيقار الوسط، تضاف آثاره إلى آثار غيره فلا يحس أحد أنها نقلت من أرض إلى أرض.

ومن الأدباء والفنانين من تصبح آثارهم كالدنانير التي يتميز بها جيل عن جيل، ولا يمكن تزييفها إلا بجهد عنيف؛ وأنتم تجدون شواهد ذلك عند كثير من أدباء اليوم.

فشوقي ينم شعره عليه، والبارودي ينم شعره عليه، وكذلك يتم الأسلوب عن أمثال: إبراهيم المازني، وطه حسين، ولو نشروا رسائلهم بدون إمضاء.

والشريف الرضي كان أعجوبة الأعاجيب في هذا الباب، فلا هو من طراز أبي نواس، ولا مسلم بن الوليد، ولا أبي تمام، ولا البحتري، ولا المتنبي وإنما هو الشريف صاحب الحجازيات.

وإحساس الشريف بخطر البلاغة قاده إلى الإشادة بقوة القلم، وما له من السيطرة على الوجود. والحديث عن قوة القلم معروف، فقد أقسم الله به في كتابه الكريم، واهتم بوصفه كثير من الشعراء والكتاب، كما ترون في الفقرات التي أثبتها الثعالبي في سحر البلاغة، ونقلها الحصري في زهر الآداب، ولكن حديث الشريف عن القلم له دلالة على اتجاهاته الذوقية والنفسية، فهو يتحدث عنه حديث المتيم المشتاق، ويكاد يتغزل فيه وهو يجول فوق

---

(١) الحارب: الناهب.

القراطيس. وأي سحر فات الشريف وهو يصف قلم الصاحب ابن عباد:

لـك القلـم المـاضي الـذي قرنتـه ... بجري العوالي كـان أجرى وأجـود[1]
إذا انـسل مـن عقـد البنـان حسبته ... يحـوك عـلى القرطـاس بـردا معمـدا[2]
يغـازل منـه الخـط عينـا كحيلـة ... إذا عـاد يومـا نـاظر الـرمح أرمـدا
وإن مـج نـصل مـن دم الـضرب أحمـرا[3] ... أراق دمـا مـن مقتـل الخطـب أسـودا
إذا اسـترعفته همـة منـك غـادرت[4] ... قوادمـه تجـري وعيـدا وموعـدا

أو حين يقول:

لـك القلـم الجـوال إذ لا مثقـف ... يجـول ولا عـضب تهـاب مواقعـه[5]
سـواء إذا عـشيته الـنقس رهبـة ... وذو لهـذم غـشي مـن الـدم رادعـه[6]
يلجلـج مـن فـوق الطـروس لـسانه ... ولـيس يـؤدي مـا تقـول مـسامعه
وينطـق بـالأسرار حتـى تظنـه ... حواها وصـفر مـن ضـمير أضـالعه[7]
إذ اسـود خطـب دونـه وهـو أبـيض ... يـسود وابيـضت عليـه مطالعـه

أو حين يقول:

لـه قلـم إن جـرى غربـه ... أمنـا القنـا وخـشينا الـيراعا[8]

والشريف حين يمنح القلم هذه الأوصاف إنما يفعل ذلك وهو يتمثل ما

---

(١) العوالي: رءوس الرماح، مفردها عالية.
(٢) المعمد: الموشي.
(٣) الصرب: بالكسر هو الصبغ الأحمر.
(٤) استرعفته: أخرجت منه الرعاف وهو الدم. والعبارة مجازية.
(٥) المثقف: الرمح. والعضب: السيف.
(٦) النقس: المداد. واللهذم: السنان القاطع. والرادع: الملطخ بالدم.
(٧) صفر: خال.
(٨) الغرب: الحد. والقنا: الرمح. واليراع: القصب.

صنعت الأقلام في بناء الممالك والشعوب، ويتصور جناياتها على التيجان والعروش.

وهو أيضا يشعر بمعنى الوصف ومعنى البيان؛ فليست الأوصاف عنده تهاويل وتزاويق، وإنما هي استقراء واستقصاء، وليس البيان في فهمه ضربا من المحاجاة أو التنميق، وإنما هو كشف وجلاء، نعرف هذا من قوله في خطاب خاله أبي الحسين:

يشيعني بوصفك كل نطق ... ويعرفني بمدحك من رآني
وليس الوصف إلا بالتناهي ... وليس القول إلا بالبيان

وهو بهذا يثور على التقاليد الأدبية التي شاعت في القرن الرابع، وكانت تعتمد على البهرج والبريق.

وكان مع فهمه لقيمة البيان ذلك الفهم يدرك تمام الإدراك أن البيان يوجب على طالبه أن يكد خاطره في تصيد كرائم المعاني وتخير الألفاظ الصحاح التي لا يصلح بغيرها أداء، نفهم ذلك من قوله في عتاب الخليفة الطائع لله:

فالآن منك اليأس ينقع غلتي[1] ... واليأس يقطع غلة الظمآن
فاذهب كما ذهب الغمام رجوته ... فطوى البروق وضن بالتهتان
أو بعد أن أدمى مديحك خاطري ... بصقال لفظ أو طلاب معاني

وفي هذا المعنى نفسه يقول في مدح أبيه:

قدها فغرتها من الكلم الجنى ... وحجولها من صنعة ومعاني[2]
هي نطفة رقرقتها من خاطري ... بيضاء تنقع غلة الظمآن

---

(١) الغلة بالضم: الظمأ الشديد.

(٢) الغرة: البياض في جبين الفرس، والحجول جمع حجل بالكسر وهو البياض في قوائم الفرس.

وكذلك يقول في آخر موطن:

ومحوكة كالدرع أحكم سردها ... صنع فأفصح في الزمان الأعجم[1]

وفي هذا المعنى يقول في العتاب:

جاءتكم أسلا مشرعة ... متوقعا فيكم تقصفها[2]

قد بات فيها قائل صنع ... يحمي لها ذمها ويرهفها

أعزز علي بأن يكون لكم ... بالأمس ثقفها مثقفها

ويقول في وصف نظام قصائده وهو يمدح أخد وزراء بهاء الدولة:

وعندي لك الغر التي لا نظامها ... يهي أبدا ولا يبوخ شهابها[3]

وعندي للأعداء فيك أوابد[4] ... لعاب الأفاعي القاتلات لعابها

وفي قوة نظام القصائد يقول أيضا وهو يمدح أباه:

تصون مناقبك الشاردا ... ت أن تتخطى إليها العيوب

إذا نثرتها شفاه الروا ... ة راقك منها النظام العجيب

وفي سلاسة النظام يقول:

براني الدهر سهما ثم ولى ... فجردني من الريش اللؤام

وها أنذا أبثك كل بيت ... رقيق النسج رقراق النظام

وفي رنين شعره يقول:

منحتك من منطقي تحفة ... رأيت بها فرصة تستلب

---

(١) محوكة: صفة من الحوك وهو النسج، والسرد: نسج الدرع، والصنع بالتحريك الماهر في الصناعة، والمؤنث صناع.

(٢) الأسل بالتحريك: الرماح، والمشرعة: المسددة: والتقصف: التكسر.

(٣) يبوخ: يبرد.

(٤) الأوابد: القوافي الشوارد.

تـــصفقها بالنـــشيد الـــرواة كـــما صـــفق المـــاء بنـــت العنـــب

ويصف جلجلة شعره فيقول:

أنـا القائـل المرمـرق مـن كـل نـاظر إذا صلـصلت للـسامعين غرائبـي

ويصف قدرته على إيذاء الأعداء بالشعر فيقول:

فـــلا ترهبـــوني بالرمـــاح ســـفاهة فعيـــدان أوطـــاني قنـــا وصـــعاد[1]

ولا توعـــدوني بالـــصوارم ضـــلة فبينـــي وبـــين المـــشرفي ولاد[2]

سأمـضغ بـالأقوال أعـراض قـومكم وللقـول أنيـاب لـدي حـداد[3]

تـــرى للقـــوافي والـــسماء جليـــة علـــيكم بـــروق جمـــة ورعـــاد

ويصف نفسه بالسيطرة على الألفاظ فيقول:

ألا مـــن كنـــت شـــاعره فـــإن المجـــد شـــاعره

وإن اللفـــــظ مطـــــروح عـــلى فكـــري جـــواهره

فما رأيكم فيما سمعتم، يا أدباء بغداد؟

أترون كيف يتحدث عن صقال الألفاظ وطلاب المعاني، وكيف يصف نفسه مرات بأنه صنع، ويصف قصائده بأنها كمشرعات الأسل، ومحكمات الدروع؟

أرأيتم كيف يبدئ ويعيد في وصف ما تمتاز به قصائده من إحكام النظام، وكيف تجلجل جلجلة الرعود والبروق؟

---

(١) القنا: جمع قناة وهي الرمح، والصعاد: جمع صعدة وهي القناة التي تنبت مستوية فلا تحتاج إلى مثقف.

(٢) المشرفي: السيف، نسبة إلى مشارف الشام.

(٣) حداد: جمع حديد، من الحدة وهي القوة.

إن هذا الشاعر يوقفنا أمام حقيقتين: الأولى: إن البلاغة بريئة من البهرج والتكلف، والثانية: إن البلاغة لا تكون دائما من عفو الطبع، وإنما يصل إليها الرجال بالجهاد والجلاد في تخير الألفاظ وتصيد المعاني، وهذا ولا ريب مطمح الشاعر المثقف الذي يعرف أنه مهدد بالشهرة التي غنمها المتنبي والشهرة التي سيغنمها أبو العلاء.

وعقل القرن الرابع هو الذي أورد شاعرنا هذه الموارد، فقد كان يرى العلم والفلسفة يحيطان به من كل جانب، وكان يرى الناس لا يقنعون بالمواهب الفطرية التي كانت تغني في عصر امرئ القيس أو عمر ابن أبي ربيعة أو مسلم ابن الوليد، وكان يرى الأدباء يتغنون بفنون أبي تمام، والبحتري، وابن الرومي، وكان يتطلع إلى أن تكون له منزلة في صدور الأدباء المتفلسفين أمثال التوحيدي والصاحب ابن عباد.

وسترون في المحاضرة المقبلة أن الشريف الرضي لم يكن يعيش وحده، وإنما كان يعيش في زمن أكثر علمائه شعراء، فهو يقارعهم مقارعة الشاعر المثقف، ويلقاهم بعزائم الفحول.

ننتقل إلى فن آخر يظهر فيه حرصه على الكلام البليغ، فنرى كيف كان يدرك أن محاسن الرجال لا تتم بغير العقل والبيان.

كتب إليه الصابي يشكو زمنة عرضت له، فقال الشريف يجيبه من قصيد طويل:

لئن نال قبضا من بنانك حادث ... لقد عاضنا منك انبساط جنان[1]

وإن بز من ذاك الجناح مطاره ... فرب مقال منك ذي طيران[2]

---

(١) الجنان بالفتح: القلب.

(٢) بز: سلب.

وإن أقعدتك النائبات فطالما ... سرى موقرا من مجدك الملوان[1]
وإن هدمت منك الخطوب بمرها ... فثم لسان للمناقب باني[2]
مآثر تبقى ما رأى الشمس ناظر ... وما سمعت من سامع أذنان
وموسومة مقطوعة العقل لم تزل ... شوارد قد بالغن في الجولان[3]
وما زل منك الرأي والعزم والحجا ... فنأسى إذا ما زلت القدمان[4]

وهو في هذه الأبيات يرى أن مرض الصابي غير ضائر ما دام له قلب ولسان: ونصه على بلاغة الصابي وهو يعزيه في علته يشرح لكم كيف كان يقدر نعمة الكلام البليغ.

ولما مات الصابي رثاه الشريف أكثر من مرة، وكان كلما رثاه نص على قلمه وبلاغته، كأن يقول:

ثكلتك أرض لم تلد لك ثانيا ... أنى ومثلك معوز الميلاد[5]
من البلاغة والفصاحة إن همى ... ذاك الغمام وعب ذاك الوادي[6]
من للملوك يحز في أعدائها ... بظبا من القول البليغ حداد[7]
من للممالك لا يزال يلمها ... بسداد أمر ضائع وسداد[8]

---

(١) موقر: مثقل، من قولهم نخلة موقرة إذا كانت كثيرة الثمار. والملوان الليل والنهار، ولا مفرد له، ومن أجل ذلك جاز عود الضمير عليه بالتذكير.
(٢) المناقب: المحامد، والمفرد منقبة.
(٣) العقل: جمع عقال.
(٤) تأسى: من الأسى وهو الحزن.
(٥) معوز الميلاد: قليل الأمثال.
(٦) همى الغمام: انهمر، وعب الوادي: سال.
(٧) الظبا جمع ظبة بالضم هي حد السيف أو السنان.
(٨) السداد بالكسر: صحة التدبير، وبالفتح صواب الرأي.

مـــن للجحافـــل يـــستزل رماحهـــا ... ويـــرد رعلتهـــا بغـــير جـــلاد[1]
مـــن للمـــوارق يـــسترد قلوبهـــا ... بـــزلازل الإبـــراق والإرعـــاد
وصـــحائف فيهـــا الأراقـــم كمـــن ... مرهوبـــة الإصـــدار والإيـــراد[2]
تـــدمى طوائعهـــا إذا استعرضـــتها ... مـــن شـــدة التحـــذير والإيعـــاد[3]
حمـــر عـــلى نظـــر العـــدو كـــأنما ... بـــدم يخـــط بهـــن لا بمـــداد
يقـــدمن إقـــدام الجيـــوش وباطـــل ... أن ينهـــزمن هـــزائم الأجنـــاد
فقـــر بهـــا تمـــسي الملـــوك فقـــيرة ... أبـــدا إلى مبـــدى لهـــا ومعـــاد
وتكـــون ســـوطا للحـــرون إذا ونـــى ... وعنـــان عنـــق الجـــامح المـــتهادي[4]
ترقـــى وتلـــدغ في القلـــوب وإن يـــشأ ... حـــط النجـــوم بهـــا مـــن الأبعـــاد[5]

فماذا ترون في هذه الصورة الشعرية، صورة القلم البليغ الذي يحز في قلوب الأعداء وكأنه السيف المسلول، القلم البيلغ الذي يستزل الرماح ويرد الجنود، ويسترد موارق القلوب بالتهريب والتخويف، القلم الذي يصير الصحائف وكأنها مملوءة بكوامن الأراقم والصلال، القلم الذي يخيل الصحائف للعدو وهي حمر قانية كأنه كتبت بالدم لا بالمداد، القلم الذي يسد مسد السوط في رياضة الحرون، ومسد العنان في عنق الجواد الجموح، القلم الذي يلدغ القلوب إن شاء، ويرقيها إن شاء، ويحط النجوم من الأبعاد حين يريد.

---

(١) الجحافل: جمع جحفل وهو الجيش الكثير: والرعلة. القطعة من الخيل والجلاد: القتال.

(٢) الأراقم: جمع أرقم وهو أخبث الحيات، والكمن: جمع كامن وهو المستتر. والمرهوبة: المخوفة.

(٣) تدمي: يسيل منها الدم. والإيعاد: الإنذار.

(٤) الحرون: الذي يقف بعد أن يستدر الجري، والجامح: الذي يخرج على طاعة الفارس.

(٥) ترقي: من الرقية بالضم وهي علاج المريض بالتعاويذ.

إن هذا الوصف يعطينا فكرة واضحة عن فهم الشريف لقوة القلم البليغ، وهو ليس كالوصف الذين رأيناه منذ لحظات، وإنما هو وصف حي يأخذ ملامحه من الإحساس ويقظة الجنان.

وقد وصف البلاغة مرة ثانية وهو يرثي الصابي فقال:

إن تمض فالمجد المرجب خالد ... أو تفن فالكلم العظام بواقي[1]
مشحوذة تدمى بغير مضارب ... كالسيف أطلق في طلى الأعناق[2]
يقبلن كالجيش المغير يؤمه ... كمش الإزار مشمر عن ساق[3]
قرطات آذان الملوك خليفة ... بمواضع التيجان والأطواق[4]
عقدوا بها المجد الشرود وأثلوا ... درجا إلى شرف العلا ومراقي
أو ترتها أيام باعك صلب ... وكددتها بالنزع والإغراق[5]
حتى إذا مرحت قواك شددتها ... باسم على عقب الليالي باقي[6]
كنجائب قعدت بها أرماقها ... محسورة فمشين بالأعراق[7]

وهو في هذه الأبيات يضع أمام أعيننا صورة ثانية تغاير الصورة الأولى بعض المغايرة وتماثلها في المدلول، ولكنه يأتي بمعنى جديد حين يصور ما كان عليه القلم في الحالين: حال الشباب وحال المشيب، فهو في الحال الأول يشد

---

(١) المرجب: المصون، على التشبيه بالنخلة المرجبة وهي التي يوضع حولها الشوك لئلا يصل إليها آكل.
(٢) الطلى: أصول الأعناق، والمفرد طلية بضم فسكون أو طلاة.
(٣) يؤمه: يقوده، وكمش وكميش: مشمر.
(٤) القرطات: جمع تصحيح للقرطة بكسر ففتح، والقرطة جمع تكسير للقرط وهو الحلية، تعلق في شحمة الأذن.
(٥) أوترها: جعل لها وترا وهو شرعة القوس. والصلب: الشديد. والكد: النزع بشدة، والإغراق من قولهم إغراق النازع في القوس إذا استوفى مدها.
(٦) مرحت قواه: ضعفت.
(٧) الأرماق: جمع رمق وهو بقية الحياة، والمحسورة: التي نال منها الأعيان.

كلامه بوثاق القوة، وهو في الحال الثاني يسند كلامه بقوة الروح.

وقد وصف بلاغة الصابي وهو يرثيه مرة ثالثة فقال:

هو الخاضب الأقلام نال بها علا ... تقاصر عنها الخاضبون العواليا
معيد ضراب باللسان لو انه ... بيوم وغى فل الجراز اليمانيا[1]

وهذا يدلكم على أن البلاغة كانت تملأ أقطار ذهنه فيراها أكرم ما يبكي به الرجال.

ومدح الشريف ابن جني ورثاه، وقد رأيناه في الحالين ينص على بلاغته، فيقول في المدح:

فدي لأبي الفتح الأفاضل إنه ... يبر عليهم إن أرم وقالا[2]
إذا جرت الآداب جاء إمامها ... قريعا وجاء الطالبون إفالا[3]
فتى مستعاد القول حسنا ولم يكن ... يقول محالا أو يحيل مقالا[4]
ليقري أسماع الرجال فصاحة ... ويورد أفهام العقول زلالا[5]
ويجري لنا عذبا نميرا وبعضهم ... إذا قال أجرى للمسامع آلا[6]

ويقول في الرثاء:

فمن لأوابي القول يبلوع راكها ... ويحذفها حذف النبال الموارق[7]

---

(١) الوغي: الجلبة في الحرب؛ وفل: كسر، والجراز: السيف القاطع.
(٢) يبر عليهم: يغلبهم. أرم: سكت.
(٣) القريع: الفحل. والأفال: جمع أفيل، على وزن أمير، وهو الفصيل.
(٤) المحال: من الكلام ما عدل به عن وجهه، وأحال المقال أتي به كذلك.
(٥) يقري: من القرى بكسر القاف وهو إكرام الضيف.
(٦) النمير: الصافي. والآل: السراب.
(٧) الأوابي: الممتنعات، والمفرد آبية، وهي في الأصل الناقة تعاف الماء. والعراك: هنا ازدحام الإبل في الورد. والحذف: الرمي.

إذا صاح في أعقابها أطردت له ... ثواني بالأعناق طرد الوسائق[1]
وسومها ملس المتون كأنها ... نزائع من آل الوجيه ولاحق[2]
تغلغل في أعقابهن وسومه ... بأبقى بقاء من وسوم الأيانق[3]
ففي الناس منها ذائق غير آكل ... وقد كان منها آكلا غير ذائق
ومن للمعاني في الأكمة ألقيت ... إلى باقر غيب المعاني وفائق[4]
يطوح في أثنائها بضميره ... مرير القوى ولاج تلك المضايق[5]
تسنم أعلا طودها غير عائر ... وجاوز أقصى دحضها غير زالق[6]

فهو في الأبيات الأولى يصفه بحلاوة القول، وهو في الأبيات الأخيرة يصفه بسياسة القول. ولا يلتفت إلى سياسة القول إلا الشعراء المثقفون الذين راضتهم الأيام على وزن مقامات البيان.

ولا بأس من أن نستطرد قليلا فنقول: إن اهتمام الشريف بمدح ابن جني ورثائه موصول الأواصر بحياته الأدبية، فقد كان ابن جني شرح قصيدته الرائعة في رثاء إبراهيم بن ناصر الدولة الحمداني، وهي التي يقول في مطلعها:

---

(١) الوسائق: جمع وسيقة وهي من الإبل كالرفقة من الناس، فإذا سوقت طردت معا
(٢) سومها: أرسلها. والملس: جمع أملس وهو الصحيح المتن أي الظهر. وفي المثل. "هان على الأملس ما لاق الدبر" يضرب في سوء اهتمام الرجل بشأن صاحبه. والنزائع جمع نزيع وهو الغريب. والوجيه: ولاحق فرسان تنسب إليها الخيل العتاق.
(٣) الوسوم: العلامات. وهي ما يوسم به الحيوان من ضروب الصور. والأيانق: جمع الجمع للناقة التي تجمع على أينق ونياق وأنواق.
(٤) الأكمة: جمع كمامة بالكسر وهي وعاء الطلع وغطاء النور. والباقر: هو الذي يكشف مكنونات المعاني، وبه سمي الباقر محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم لتبحره في العلم، والفائق كذلك.
(٥) القوى: جمع قوة وهي طاقة الحبل، والمرير: المحكم الفتل؛ والعبارة مجازية.
(٦) تسنم الطود: علاه. والطود: الجبل. والدحض: المكان الزلق وجمعه دحاض ومنه المدحضة وهي المزلة.

ألقـي الـسلاح ربيعـة بـن نـزار أودى الـردى بقريعـك المغـوار[1]
وتجـردي عـن كـل أجـرد سـابح ميـل الرقـاب نـواكس الأبـصار[2]

وسنعود إلى هذه القصيدة بعد حين؛ ولكن المهم أن نسجل أن الشريف كان يعادي ويصادق في سبيل حياته الشعرية، فهو قد مدح ابن جني ورثاه؛ لأنه شرح إحدى قصائده في الرثاء، وكذلك فعل مع الصاحب ابن عباد، فقد بلغه أن شيئا من شعره وقع إليه فأعجب به وأنفذ إلى بغداد لاستنساخ سائر شعره، فلما بلغه ذلك أخذ منه الطرب كل مأخذ، ومدح الصاحب بقصيدة بارعة منها الأبيات التي سلفت في وصف القلم، ولكنه أخفاها عنه ولم يرسلها إليه خوفا من أن يتهم بالسعي في طلب المال، ثم مدحه بقصيدة ثانية لا يعنينا منها في هذا المقام إلا اهتمامه بوصف بلاغة الصاحب إذ يقول:

كـم حجـة لـك في النوافـل نوهـت بـدعاء ديـن العـدل والتوحيـد[3]
ومجـادل أدمـي جـدالك قلبـه وأعـضه بجوانـب الـصيخود[4]
وشـفيت ممـترض الهـوى مـن معـشر سـدوا مـن الآراء غـير سـديد
قـارعتهم بـالقول حتـى أذعنـوا وأطلـت نـوم الـصارم المغمـود
جمـر بمـسهكة الريـاح نـسفته كـان الـضلال يمـده بوقـود[5]

فهذه الأبيات تمثل فهمه لخطر الجدل والقلم أصدق تمثيل، وترينا كيف كان يدرك أن القلم واللسان يغنيان أحيانا عن سهل السيوف في كبح الخصوم

---

(١) القريع : الفحل.
(٢) الأجرد: الحصان القصير الشعر، والميل جمع أميل، وهو من يميل على السرج، وهو هنا المنكسر الذي يميل عنقه من الضعف.
(٣) النوافل: هنا معناها الشدائد، ومفردها نوفل، والعدل هو مذهب الاعتزال. وفي أخبار الصاحب ابن عباد أنه كان يذهب مذهب العدل.
(٤) الصيخود: الصخرة الشديدة.
(٥) المسهكة: ثمر الرياح.

وتأييد الآراء.

ولما مات الصاحب رثاه الشريف بقصيدة قوية جاء فيه قوله في وصف ما تصنعه الأقلام:

واهـا عـلى الأقـلام بعـدك إنهـا ... لم تـرض غـير بنـان كفـك آلا[1]
أفقـدن منـك شـجاع كـل بلاغـة ... إن قـال جـلى في المقـال وجـالا
مـن لـو يـشا طعـن العـدا برءوسـها ... وأثـار مـن جرياهـا قـسطالا[2]
وإذا تجايـشت الـصدور بموقـف ... حـبس الكـلام وقيـد الأقـوالا[3]
بـصوائب كالـشهب تتبـع مثلهـا ... ورعـال خيـل يتـبعن رعـالا[4]

فهو يجعل الحجج الصوائب في قوة الخيل المغيرات؛ وهي أخيلة بدوية كان يحس صورها كل الإحساس.

وفي الشواهد التي سلفت ما يريكم كيف كان الشريف يهتم بوصف اللسن، وكيف كانت تروعه قوة الجدل، وقد وصل في ذلك إلى أبعد الغايات وهو يقول في رثاء عبد العزيز بن يوسف:

أبكيـك يـا عبـد العزيـز لخطـة ... تعمـى مطالعهـا وخطـب مضلع[5]
ومقـاوم مـا زلـت تعجـز ليلهـا ... بلـسان قـوال وقلـب سـميذع[6]
إني أرى في المجـد بعـدك ثلمـة ... تبقـى وخرقـا مالـه مـن مرقـع[7]

---

(١) الآل: أصله أهل أبدلت الهاء همزة فصارت أأل بفتح فسكون ثم أبدلت الهمزة الثانية ألفا، ويقال في تصغيره أويل وأهيل.
(٢) الجريال: ما خلص من لون أحمر أو غيره؛ والقسطال والقسطل: الغبار.
(٣) تجايشت الصدور: غلت وهاجت.
(٤) الرعال جمع رعلة بالفتح وهي القطعة من الخيل.
(٥) خضب: مضلع مهلك.
(٦) المقاوم: جمع مقام وهو المجلس، والسميذع: السيد الكريم والشجاع.
(٧) الثلمة: فرجة المكسور والمهدوم.

من يشرق الخصم الألد بريقه ... عيا ويقدع منه ما لم يقدع[1]
أم من يبلغ بالبلاغة غاية ... تلوي بحسرى طالبين وظلع[2]
أم من يرد من المغيرة غربها ... والخيل تنهض كالقطا بالدرع[3]
بنوافد للقول يبلغ وقعها ... ما ليس يبلغ بالرماح الشرع[4]
شهب تشعشع في النوائب ضوؤها ... كالشمس تنغض رأسها للمطلع[5]
حتى يقول الغابطون وقد رأوا ... فعلاته: زاحم بجد أو دع
ويود من حمل الثنا لو أصبحت ... تلك الأداة على الكمي الأروع[6]
إن لا تكن في الجمع أمضى طعنة ... فلأنت أمضى خطبة في المجمع[7]
إن الفصاحة ذللت لك عنقها ... فأخذت منها بالعنان الأطوع
أمست ظهور المجد عندك ترتقي ... منها إلى قمع السنام الأمنع[8]
كيد كمارقة النصال ودونه ... بشر كبارقة النصول اللمع[9]

---

(١) القدع: الكبح.
(٢) الحسرى: جمع حسير وهو الذي نال منه الإعياء، والظلع جمع ظالع وهو الذي يغمز في مشية من الضعف.
(٣) الغرب: الحدة، والدرع: جمع دراع وهو لابس الدرع.
(٤) الشرع: المرسلة.
(٥) نغض: تحرك واضطرب، وأنغض: أمال وحرك.
(٦) الكمي: الشجاع أو لابس السلاح، والأروع: من يعجبك بحسنه. وجهارة منظره أو بشجاعته، ومثله الرائع.
(٧) الجمع: في ميدان القتال، والمجمع: في حومة الجدال.
(٨) القمع: جمع قمعة بالتحريك وهي رأس السنام، والأمنع: الذي لا ينال.
(٩) النصال، والنصول: جمع نصل وهو حديدة السهم والرمح والسيف ما لم يكن له مقبض.

نهـــاز أذنبـــة الكـــلام إذا هفـــا قلب الجريء وعـي قـول المـصقع[1]
قـــد قلـــت للمتعرضـــين لـــسطوه خلـوا وجـار الأرقـم المتطلـع[2]

وهذا فن جديد عند الشريف، فأكثر من وصفهم بالبلاغة كانوا من رجال السيف، أما عبد العزيز بن يوسف فلم يكن له من أدوات القتال غير القلم واللسان، وقد وصف كلماته بأنها تفعل ما لا تفعل مشروعات الرماح، وأنها ترد الخيل المغيرة وعليها أقطاب الدارعين، وحدد مقامه بين مقامات الأبطال بهذا البيت:

إن لا تكـــن في الجمـــع أمـــضى طعنـــة فلأنـــت أمـــضى خطبـــة في المجمـــع

وقد وصفه بالكيد، وذلك وصف طريف؛ لأنه يفصح عن خصلة نادرة لا يجيدها إلا الأقلون، والكيد سلاح عرفه الساسة من قديم الزمان، وأنا لا أعرف من أصوله شيئا، ولكني سمعت أنه يبني ويهدم ويبرم وينقض. والشريف يعني ما يقول وهو ينعت مبكيه بالكيد في موقف لا تذكر فيه غير كرائم الخلال وقد قلت في كتاب النثر الفني: إن ما بين أيدينا من أخبار عبد العزيز بن يوسف ورسائله لا يعطينا صورة صحيحة من نفسه وأخلاقه، فهل أستطيع اليوم أن أعتمد على حكم الشريف فأقول إن ذلك الكاتب كان من كبار الكائدين؟

المهم أن نسجل أن الشريف كان يفهم جيدا خطر القول، وكان يعرف أنه يطلب لكثير من الغايات، ويدرك أن البلاغة لها مواطن خفية يدركها أقطاب الليل. ونعوذ بالله من كيد الكائدين، ودسائس الخاتلين.

---

(١) الأذنبة: جمع ذنوب بفتح فضم، وهو الدلو. والنهاز: الذي يضرب بالدلو في الماء لتملأ، والمقصع: على وزن منبر البليغ أو العالي الصوت أو من لا يرتج عليه ولا يتتعتع، ولعله جاء من الصقعاء وهي الشمس لما يمتاز به من الوضوح والجلاء.

(٢) الوجار: بالكسر والفتح الجحر، والأرقم: الحية، وهو أخبث الحيات، والمتطلع وصف كاشف للأرقم؛ لأنه يتطلع إلى إيذاء الناس ويبدأ بالعدوان.

ومع هذا لم يكن الشريف يرى الدنيا في جميع أحوالها حومة قتال، فقد كانت عنده مواطن يرى فيها البلاغة تطلب لإيناس الأفئدة والقلوب، أليس هو الذي يقول في رثاء أبي منصور الشيرازي:

كم مجلس صبحته ألسنا ... تفض فيه لطائم الأدب[1]
من أثر يونق الفتى حسن ... أو خبر يبسط المنى عجب[2]
أوغرض أصبحت خواطرنا ... تساقط الدر منه في الكتب
كالبارد العذب ورقته صبا الفجر ... أو الظلم زين بالشنب[3]

وكيف لا يعشق البلاغة ويراها من موارد الأنس من قرنها بجمال العزم والحلم فيقول في مدح أبي سعيد بن خلف:

خطاب مثل ماء المزن تبري ... مواقعه العليل من القلوب[4]
وعزم إن مضيت به جريا ... هوى مطر القنا بدم صبيب[5]
وحلم إن عطفت به معيدا ... أطار قوادم اليوم العصيب[6]
وألفاظ كما لعبت شمال ... ملاعبها على الروض الخصيب[7]

---

(١) صبحته: سقته الصبوح وهو ما حلب من اللبن وما أصبح عند السامرين من شراب، واللطائم جمع لطيمة وهي المسلك.
(٢) يونق. يعجب ويطرب.
(٣) الظلم بالفتح الثلج وهو هنا ماء الأسنان، وأظلم الثغر تلألأ، والشنب بالتحريك ماء ورقة وبرد وعذوبة في الأسنان.
(٤) تبري: تشفي، فهي من البرء.
(٥) صبيب: متدفق.
(٦) القوادم: هنا جمع قاذم وهو الرأس.
(٧) الشمال: بالفتح ويكسر الريح التي مهبها بين مطلع الشمس. وبنات نعش أسماء كواكب: والمعروف أن ريح الشمال ميمونة الهبوب وفيها لطف ورفق.

أيها السادة:

تلكم ثقافة الشريف الرضي، وذلكم إحساسه بخطر البلاغة وقوة الكلام البليغ.

وإنما أطلنا في سرد الشواهد وضرب الأمثال لنريكم أن الشريف لم يكن في حياته الشعرية من اللاهين، وإنما كان يقتحم البلاغة اقتحام الفحول، ويؤمن بأن الفصاحة من أشرف ما يزدان به الرجال، ويرى آثار الأقلام أبقى على الزمن من آثار الرماح والسيوف.

فإن قلتم: وكيف صح للشريف أن يفتن بنفسه وبشعره ذلك الفتون؟

قلنا: إن لذلك موجبات سنعود إليها في المحاضرة المقبلة بالتفصيل.

مقام الشريف الرضي
بين شعراء القرن الرابع

أيها السادة:

حديث الليلة عن شاعرية الشريف الرضي كما يصورها في قصائده القصار والطوال، وقد تعقبنا حديثه عن شعره فرأيناه زهي به واختال أكثر من ستين مرة، فساقنا ذلك إلى البحث عن السر فيما أدى به إلى الإسراف في الزهو والاختيال.

قد تقولون: وهل تفرد الشريف الرضي بالحديث عن شعره حتى تبحث عن السر في ذلك؟ ألم تعرف هذه السجية فيمن سبقه من الشعراء كأبي تمام والبحتري وابن الرومي والمتنبي؟

وأجيب بأن هذه الخصلة لم يتفرد بها الشريف، ولكنه أفرط وأسرف، فلم يكن بد من الكشف عن سر ما وقع فيه من الإفراط والإسراف.

ولكي تعرفوا كيف أفرط وأسرف، أسوق إليكم شواهد تبين غلبة الزهو على ذلك الشاعر: ثم أتبعها بالبحث عن أسرار ذلك الاختيال.

ولا أرى موجبا للإشارة إلى جميع المواطن التي زهي فيها بشعره، فقد حدثتكم أنها تزيد على الستين، وإنما أطوف ببعض الأشعار التي تكشف عن تلك الخصلة بوضوح وجلاء.

وأول ما أشير إليه هو إحساسه بأن الشعر دون قدره، وأن نفسه أعلى من أنفس الشعراء وأرفع، وهو يحدثنا أنه يتخذ الشعر وسيلة إلى غرضه فيقول:

وما قولي الأشعار إلا ذريعة إلى أمل قد آن قود جنيبه[1]

---

(١) الجنيب والمجنوب: الفرس تقوده إلى جنب فرسك في السباق، فإذا فتر المركب تحولت إلى المجنوب. والذريعة: الوسيلة.

وإني إذا مـــا بلـــغ الله غايـــة ضمنت له هجر القريض وحوبه[1]

ويرى سيماه غير سيما الشعراء فيقول:

ومـــا الـــشعر فخـــري ولكـــنما أطـــول بـــه همـــة الفـــاخر
أنزهـــه عـــن لقـــاء الرجـــال وأجعلـــه تحفـــة الزائـــر
فـــما يتهـــدى إليـــه الملـــو ك إلا مـــن المثـــل الـــسائر
وإني وإن كنـــت مـــن أهلـــه لتنكـــرني حرفـــة الـــشاعر

ويرى القول دون الفعل فيقول:

مالـــك تـــرضى أن يقـــال شـــاعر بعـــدا لهـــا مـــن عـــدد الفـــضائل[2]
كفـــاك مـــا أروق مـــن أغـــصانه وطـــال مـــن أعلامـــه الأطـــاول
فكـــم تكـــون نـــاظما وقـــائلا وأنـــت غـــب القـــول غـــير فاعـــل[3]

وهذه الشواهد الثلاثة ترينا كيف كان يرى الشعر دون قدره كيف كان يرى منزلته أرفع من منازل الشعراء.

ولكن هل يهرب من شاعريته؟ إن هذا محال!

فلم يبق إلا أن يرى نفسه أشعر الأمم فيقول:

كفـــاك بـــأن عرضـــك مـــن طـــروق العـــار في ذمـــي
وذلـــك عـــصمة منـــي بجبـــل غـــير منجـــذم[4]

---

(١) الحوب: بالفتح ويضم: الإثم، وهو هنا مضموم الحاء، وهو مجرور بالعطف على الفريض.
(٢) العدد: جمع عدة بضم العين وهو ما تتوسل به إلى غرضك.
(٣) الغب: بالكسر عاقبة الشيء.
(٤) منجذم: منقطع.

وحسبك أن يفل شبا ... ة هجوك أشعر الأمم[1]

أو يرى شعره فوق شعر البحتري ومسلم بن الوليد فيقول:

شعر أثير به العجاج بسالة[2] ... كالطعن يدمي والقنا تتحطم

وفصاحة لولا الحياء لهجنت ... أعلام ما قال الوليد ومسلم

أو يتواضع فيرى نفسه زميل الفرزدق أو جرير فيقول:

وقصيدة عذراء مثـ ... ـل تألق الروض النضير[3]

فرحت بمالك رقها ... فرح الخميلة بالغدير[4]

وكأنه في رصفها[5] ... جار الفرزدق أو جرير

وكأنه من حسنها ... بين الخورنق والسدير[6]

أو يرى قوافيه كقوافي البحتري وأبي نواس فيقول:

وشرب قد نحرت لهم عقارا ... كحاشية الرداء الأرجواني[7]

---

(١) الشباة: إبرة العقرب وحد كل شيء، وفل شباة: هجوه كسرها.

(٢) البسالة: الشجاعة.

(٣) التألق: البريق واللمعان.

(٤) الخميلة: الموضع يكثر فيه الشجر الملتف، والغدير: الماء يغادره السيل، والجمع غدران.

(٥) الرصف: في الأصل ضم الحجارة بعضها إلى بعض، وهو هنا نظم الكلام.

(٦) الخورنق: قصر للنعمان الأكبر، معرب خورنكاه: أي موضع الأكل والسدير: نهر بناحية الحيرة. وقد وصفت تلك الأماكن في كتاب "ليلى المريضة في العريضة في العراق".

(٧) الشرب: بفتح الشين هم القوم يجتمعون على الشراب، والعقار بضم العين هي الخمر سميت بذلك لمعاقرتها أي لملازمتها الدن أو لأنها تعقر شاربها عن المشي، والأرجواني بضم الهمزة والجيم الأحمر القاني:

كأن الشمس مال بها غروب ... فأهوت في حيازيم الدنان[1]
فصل بدم العقار دم الأعادي ... وأصوات العوالي بالأغاني[2]
فيوم أنت غرته جواد ... يبذ بشأوه طلق القران[3]
جعلت هديتي فيه نظاما ... صقيلا مثل قادمة السنان
بلفظ فاسق اللحظات تنمى ... محاسنه إلى معنى حصان[4]
وصلت جواهر الألفاظ فيه ... بأعراض المقاصد والمعاني
فجاءت غصة الأطراف بكرا ... تخير جيدها نظم الجمان
كأن أبا عبادة شق فاها ... وقبل ثغرها الحسن بن هاني

أو يرى نفسه ضريبا لزهير فيقول:

أنا زهير فمن لي في زمانك ذا ... ببعض ما افترقت عنه يدا هرم

أو يرى شعره فوق شعر زهير فيقول:

بز زهيرا شعري وهأنذا ... لم أرض في المجد أنه هرم

أو يرى كلامه فوق كلام الرجال فيقول:

جاءتك محصدة القوى حبارة ... تستعبد الأرواح في الأجسام[5]
من لي بإنشاديكها في موقف ... أعتده شرفا مدى أيامي

---

(١) الحيازيم: جمع حيزوم وهو الصدر أو وسطه، والدنان: جمع دن بفتح الدال، وهو الراقود العظيم توضع فيه الخمر.
(٢) العوالي: الرماح.
(٣) يبذ: يفوق، والشأو: السبق، والقران: وبكسر القاف هو هنا النيل بفتح النون.
(٤) الحصان: بفتح الحاء: العفيف.
(٥) محصدة القوى: محكمة الفتل، وهي عبارة مجازية، والحبارة: صفة مدح مأخوذة من الحبير وهو البرد الموشي.

لا أدعـــي فيـــه الغلـــو وإنـــما يـوفى عـلى قلـل الرجـال كلامـي[1]

أو يقول:

وإن قـوافي الـشعر مـا لم أكـن لهـا مسفـسفة فيهـا عتيـق ومقـرف[2]
أنـا الفـارس الوثـاب في صـهواتها[3] وكـل مجيـد جـاء بعـدي مـردف[4]

أو يرى لسانه أمضى من السيف فيقول:

وأنـا المـضارب عـن عـلاك بمقـول ماضي الغرار ولا الجـراز المقـصل[5]
يـدمي الجـوارح وهـو سـاكن غمـده ولقلـما يمـضي بغمـد منـصل[6]

ويرى نفسه فوق الشعراء إذ كان يبتغي الكرامة ويبتغون المال فيقول:

مـــدحت أمـــير المـــؤمنين وإنـــه لأشرف مـأمول وأعـلا مـؤمم[7]
فأوســعني قبــل العطــاء كرامــة ولا مرحبـــا بالمـــال إن لم أكـــرم

ويرى شعره يرفع أقدار الرجال فيقول:

أبـا قاسـم جـاءت إليـك قلائـد تقلـد أعنـاق الرجـال المناقبـا
قلائـد مـن نظمـي تـود لحـسنها قلوب الأعـادي أن تكـون ترائبـا[8]

---

(١) القلل: جمع قلة بضم القاف وهي أعلى الرأس والسنام والجبل.
(٢) العتيق: الشريف، والمقرف: ما يداني الهجنة أي أمه عربية لا أبوه؛ لأن الإقراف من قبل الفحل، والهجنة من قبل الأم، والعبارة أيضا مجازية.
(٣) المردف: كالرديف، والمرتدف: هو من يركب خلف الراكب.
(٤) الصهوات: جمع صهوة وهي مقعد الفارس من الفرس.
(٥) المقول: بكسر الميم هو اللسان، والغرار: بكسر الغين حد الرمح والسهم والسيف، والجراز: بضم الجيم السيف القاطع، والمقصل: على وزن منبر صفة للسيف، من القصل وهو القطع.
(٦) المنصل: بضم الميم والصاد: السيف.
(٧) مؤمم: على وزن المفعول: مقصود.
(٨) الترائب: عظام الصدر وهي هنا موضع القلادة.

إذا هـدها راوي القـريض حـسبته ... يقـوم بهـا في نـدوة الحـي خاطبـا[1]
فلـو كـن غـدرانا لكـن مـشاربا ... ولـو كـن أحـداثا لكـن تجاربـا[2]

أو يقول:

فحـسبك فخـرا بهـذا المـديح ... وإن غاض في المدح مـاء افتخـاري
يـزورك بـين قلـوب العـداة ... فيقطعهـا في اتـصال المـزار
غـدت كـف مجـدك مـن مـدحتي ... تجـول معاصـمها في سـوار

ويشبه أشعاره بالعقائل[3] فيقول:

وكنـت زمانـا أذود الملـوك[4] ... عـن السلك رقرقـت فيـه النظامـا
أريـد الكرامـة لا المكرمـات ... ونيـل العـلا لا العطايـا الجـساما
فحـوزوا العقائـل عـن خـاطري ... إلى م أماطـل عنهـا إلى مـا

ويرى شعره أعز من أن يمدح به غير الخلفاء، فيقول في خطاب الطائع لله:

أنـت أفـسدتني عـلى كـل مـأمو ... ل وأعـديتني عـلى كـل خطـب
فـإذا مـا أراد قربـى مليـك ... قلـت قـربي مـن الخليفـة حـسبي[5]
عـز شـعري إلا عليـك ومـا زا ... ل عزيـزا يـأبى عـلى كـل خطـب

---

(١) هد في هذا البيت فعل من الهد وهو الصوت والترنم.
(٢) الغدران: تكون في الأغلب مشوبة بالقذى فهي لا تكون مشارب إلا إن غلب عليها الصفاء، والأحدث: شارة الشقاء في الأغلب، ولا يغلب عليها القبول إلا إن صارت من التجاريب.
(٣) العقائل: جمع عقيلة وهي السيدة الكريمة المخدرة.
(٤) أذود: أمنع.
(٥) يشير بهذا إلى زهده في مدح الملوك من بني بويه وكان صدف عنهم بعد أن حبس عضد الدولة أباه. ولكنه سيمدح بهاء الدولة ويطيل في الثناء عليه.

أو يمن به على أحد الوزراء[1] فيقول:

خطبت شعري إلى قلب يضن به ... إلا عليك فباشر خير مخطوب

وقد يرى شعره بشيرا بالنعيم، ونذيرا بالعذاب، فيراه غيثا ينفع الأولياء، وصواعق تحرق الأعداء، كأن يقول في خطاب أبيه:

وهذا مقالي فيك غيث وربما ... رميت العدا من وقعه بالصواعق

وكأن يقول في التهديد:

حذاركم بني الضحاك إني ... إلى الأمر الذي تومون أومي
فلا تتعرضوا للذراع عاد ... مدل عند خيسته شتيم[2]
فإن تلك مدحة سبقت فإني ... بضد نظامها عين الزعيم
وقافية تخضخض ما ترامت ... بها الأيام في عرض اللئيم
تردد ما لها ممن يعيها ... سوى الإطراق منها والوجوم
لها في الرأس سورات يطاطي ... لها الإنسان كالرجل الأميم[3]
ليعلم من أنا ضل أن شعري ... يطالع بالشفاء وبالنعيم

وللشريف أفانين من التهديد؛ وهو يتوعد توعد الباطشين، ويرى شعره يعرق العظام وينكل بالأحساب. وانظروا كيف يقول.

فدونكها قاصفا عاصفا ... من الشر أو عارضا مرزما
قوارص تنثر نظم الدروع ... وتستنزل البطل المعلما[4]
فمن كان يسقيك أري الجنى ... فإني سألعقك العلقما[5]

---

(١) هو أبو نصر سابور أرد شير وقد قدم بغداد مع شرف الدولة سنة ٣٧٦.
(٢) الخيسة: بالكسر والخيس: موضع الأسد. والشتيم: الأسد العابس.
(٣) الأميم والمأموم: هو الذي أصابت الضربة أم رأسه.
(٤) المعلم: بصيغة المفعول هو الذي يحمل علامة الحرب.
(٥) الأري: العسل.

ومـــن كـــان يلقـــاك مستـــسلما فـــإني ألاقيـــك مـــستلئما[١]

والشريف في وعيده يكشف عن صدر صهره الغيظ، وقلب أضرمته الضغائن والحقود. وما كان يمكن لمثل هذا الرجل أن يلقى جميع الناس بقلب رفيق، وهل يعرف الرفق من يقول:

أحرجتنـــــي فهـــــا كهـــــا بنـــــت عنـــــاق والـــــرقم[٢]
والليـــــث لا يخـــــرج إلا محرجـــــا مـــــن الأجـــــم[٣]
كلذعـــــة الميـــــسم في شـــــواظ نـــــار وضرم
والحيـــــة الرقطـــــاء تـــــر دي أبـــــدا بغـــــير ســـــم
حقـــــا عـــــلى أعراضـــــكم تعطهـــــا عـــــط الأدم[٤]
فاستنـــــشقوها نفحـــــة تجـــــدع مـــــارن الأشـــــم[٥]
تقـــــرض مـــــن جنـــــوبكم طـــــم اللـــــمام بـــــالجلم[٦]
كـــــأنما تـــــضرب في الـــــ عـــــرض الأعـــــز بالقـــــدم[٧]
مـــــذكورة مـــــا بقيـــــت مـــــن غـــــير عقـــــد لـــــرتم[٨]
تـــــرى عـــــلى عـــــاري العظـــــا م وســـــمها وهـــــي رمـــــم

(١) المستلئم: لابس اللائمة وهي الدرع المحكمة.
(٢) العناق على وزن سحاب: الداهية، وكذلك الرقم بالتحريك.
(٣) أصل هذا المعنى لأبي تمام إذ يقول:

أخرتمـــوه بكـــره عـــن ســـجيته والنـــار قـــد تنتـــضي مـــن نـــاضر الـــسلم
وطـــأتموه عـــلى جمـــر العقـــوق ولـــو لم يخـــرج الليـــث لم يخـــرج مـــن الأجـــم

(٤) تعطها. تشقها، والمعطوط: المغلوب قولا وفعلا، والأدم: الجلد.
(٥) المارن: الأنف، أو طرفه، أو ما لان منه.
(٦) طم الشعر: جزه أو عقصه، واللمام: جمع لمة وهي الشعر المجاوز شحمة الأذن، والجلم: المقص.
(٧) القدم: جمع قدوم.
(٨) الرتم: خيط يعقد في الأصبع للتذكير.

فلـــو نزعـــت الجلـــد كـــا ... ن رقمهـــا كـــما رقـــم
كـــم جـــردت شـــفارها ... لحـــم فتـــى بـــلا وضـــم
خابطـــــة لا تتقـــــي ... صـــدم أخ ولا ابـــن عـــم

أيها السادة:

قد أشرت كما ترون إلى نحو عشرين موضعا زهي فيه الشريف بشعره واختال، وقد حدثتكم أن تلك المواضع نيفت على الستين، والآن أحب أن نفهم معا كيف صح ذلك الزهو وذلك الاختيال.

كان يكفي أن نسجل هذه الظاهرة النفسية، وأن نقول: إنه سلك طريقا سار فيه كثير من الشعراء، ولكني رأيت بعد التأمل والدرس أن هذه الظاهرة النفسية تجر وراءها أشياء، وأكاد أجزم بأنها تدل دلالة قاطعة على أن الرجل كان يحس أنه يحيا في عصره حياة المغبون، وأنه كان على أهل زمانه من الحاقدين.

ولكن كيف يصح هذا الافتراض؟ هاكم البينات:

كان الشريف يعيش في عصر احتله الأموات واحتله الأحياء.

أما الأموات الذين احتلوا عصره فهم: البحتري وأبو تمام والمتنبي، وقد شاء النقاد أن يمكنوا أولئك الأموات من ذلك الاحتلال، وأظهر شاهد على ذلك ما صنع أبو العلاء المعري الذي عاش دهره كله وهو يحقد على الشريف الرضي أبشع الحقد، فقد ألف ثلاثة كتب في شاعرية أبي تمام والبحتري والمتنبي، وأراد أن يسجل أن دنيا الشعر وقف على هؤلاء الثلاثة فقال: البحتري هو الشاعر، وأبو تمام والمتنبي حكيمان. وكان الغرض من هذا الحكم أن يكون هؤلاء الثلاثة محور الجدل والخلاف.

ويضاف إلى هذا أن الشريف الرضي أعلن خصومته لشاعرية المتنبي.

وإعلان هذه الخصومة عاد على ذكرى المتنبي بأجزل النفع، فقد كان للشريف كثير من الأعداء، وأولئك الأعداء أصابوا فرصة لم تكن تخطر ببال، فقد مضوا يبدئون ويعيدون في الكلام عن عبقرية المتنبي، وأذاعوا في الناس أنه شاعر لن يجود بمثله الزمان، وكانت هذه الأحكام ظاهرها حب الأدب وباطنها إغاظة الشريف.

وقد أراد خصوم المتنبي أن يقوموا بحركة عكسية؛ ولكنهم لم يفلحوا، فقد أرسل الصاحب ابن عباد يستنسخ ديوان الشريف ليفهم الناس أن الشريف هو شاعر الجيل، وأن العصبية للمتنبي لا تمنع من التسليم بأن عالم الشعر لا يزال فيه مجال للأعلام والأقطاب[1].

قد تقولون: وكيف جاز للشريف أن يحقد على رجل مات قبل أن يجيء هو إلى الدنيا بأعوام؟

وأجيب بأن موت المتنبي في القرن الرابع لم يكن مثل موت شوقي في القرن الرابع عشر، فقد سكت النقاد عن شوقي بعد إذ مات؛ لأن شوقي كان ملك الجماهير في زمانه ملكا قويا، وكان تفرد بأفانين من الشعر عجز عنها معاصروه، فلما مات سلموا له بالإمارة الشعرية، وعادوا إلى شئونهم ساكتين.

ولم يكن الحال كذلك بعد موت المتنبي، فقد كان على جهارة صوته وجلجلة شعره يحدث الناس بما يألفون، وكانت له بدوات لفظية ومعنوية تؤلب الناس عليه، وتهيج النحويين واللغويين، فلما مات بقيت الفرصة للجدل والشغب والضجيج، وانقسم الناس حول شعره إلى فريقين: عدو

---

(١) وهناك سبب سياسي لعطف الصاحب على شعر الشريف: فقد كان الشريف يكره عضد الدولة؛ لأنه سجن أباه، وكان الصاحب يكره عضد الدولة؛ لأنه كان يسعى لقتله في الخفاء. فالاشتراك في بغض عضد الدولة كان من أهم أسباب المودة بين الشريف الرضي والصاحب ابن عباد.

وصديق، وكذلك ظل يثير الهيجاء وهو هامد بين الصفائح والتراب، ولو تسمع الناس صوت رفاته البالي لرأوه يقول:

أنـام مـلء جفـوني عـن شـواردها ويـسهر الخلـق جراهـا ويختـصم

ومن المؤكد أن الشريف شهد الخصومة حول شعر المتنبي وهو طفل، ومن المؤكد أيضا أن عظمة المتنبي احتلت أقطار نهاه، ولعلها كانت السبب في أن ينظم الشريف أجود الشعر وهو ابن عشر سنين، فليس من المستبعد أن يكون في أساتذة الشريف من لقنه الحقد على المتنبي، ثم ظل هذا الحقد عقيدة أدبية يساورها وتساوره طول الحياة.

وأقف عند الغرض الأصيل فأقول: إن الشريف كان يعجب لانصراف الناس عن شعره وإقبالهم على شعر المتنبي، وقد انقلب هذا العجب إلى حقد؛ لأنه كان يرى نفسه أشعر من المتنبي، وكان يفهم جيدا أن الناس لو خلصت ضمائرهم من أوضار العصبيات الدينية والسياسية والأدبية لفضلوه على المتنبي؛ ولكنهم لن يخلصوا ولن يسعفوا الشريف بما يريد.

ولم يكن المتنبي هو الشاعر الوحيد الذي يحتل أذهان أهل بغداد من الأموات.

فقد كانت هناك أطياف ترد إلى أهل بغداد من شاعر ولد في بلد بعيد وعاش في القرن الرابع: وهو أبو القاسم بن هاني الذي ولد في إشبيلية، وسمت به همته إلى أن يكون أمير الشعراء في مصر، ثم احتضره الموت وهو في الطريق، فلم يشهد بساتين الجزيرة ولا مساجد الفسطاط.

وكان أطياف ابن هاني تغيظ الشريف الرضي أشد الغيظ؛ لأن الناس لم يكونوا يجدون عبارة تفيه حقه من الثناء إلا أن يقولوا: هو متنبي المغرب. ولا نعرف بالضبط كيف عرف العراقيون شعر ابن هاني لعهد الشريف؛ ولكن من المؤكد أن ابن هاني كانت له سمات تلفت العراقيين إليه، فقد كان شاعر

الفاطميين أعداء العباسيين، الفاطميين الذين أنشئوا القاهرة لينافسوا بغداد، وليخلقوا الخصومة بين دجلة والنيل.

أيها السادة:

حدثناكم حديثا موجزا عن شاعرين كانا يحتلان أذهان الناس في بغداد من بين الأموات، وهما: المتنبي وابن هاني، وبينا كيف كان الشريف يغتاظ لصيرورة ما أبدعا من الآيات، فما بالنا لا نخبط شجرة الشعر في القرن الرابع لنرى كيف كان الشريف يتعب ويضجر ويلتاع ليرفع رايته في ذلك البحر المحيط؟

لقد كان العراق في القرن الرابع مسرحا لعرائس الشعر الجميل؛ وكان المرء لا يلتفت إلا رأي نفائس وغرائب تبهر الأذواق والقلوب والعقول.

ففي القرن الرابع ولد السلامي، ولد بالكرخ لست خلون من رجب سنة ٣٣٥، وقد بهر الناس بشعره في مطلع صباه، فقد كان أول ما سار من شعره قوله وقد ركب سفينة في دجلة، وكان ركبها أول مرة[1].

وميـــدان تجـــول بـــه خيـــول ... تقـــود الـــدارعين ولا تقـــاد
ركبـــت بـــه إلى اللـــذات طرفـــا[2] ... لـــه جـــسم ولـــيس لـــه فـــؤاد
جـــرى فظننـــت أن الأرض وجـــه ... ودجلـــة نـــاظر وهـــو الـــسواد

وقد مضى السلامي يبدع ويجيد حتى فتن أهل بغداد، وحتى استطاع أن يقول:

وفيهن سكرى اللحظ سكرى من ... تعاتب حلو اللفظ حلو الشمائل
أدارت علينا من سلاف حديثها ... كؤوسا وغنتنا بصوت الخلاخل

(١) عبارة اليتيمة (وكان رآها أول مرة) وهذا يكاد يكون غير معقول.
(٢) الطرف بالكسر: الحصان.

واستطاع أن يجيد وصف الزنابير التي تضجر أهل بغداد فيقول:

ولابس لون واحد وهو طائر ... ملونة أبراده وهو واقع
أغر محشى الطيلسان مدبج ... وسود المنايا في حشاه ودائع
إذا حك أعلا رأسه فكأنما ... بسالفتيه من يديه جوامع
يخاف إذا ولى ويؤمن مقبلا ... ويخفى على الأفران ما هو صانع
بدا فارسي الزي يقعد خصره ... عليه قباء زينته الوشائع[1]
فمعجره الوردي أحمر ناصع ... ومئزره التبري أصفر فاقع
يرجع ألحان الغريض ومعبد ... ويسقي كؤوسا ماؤها السم ناقع

والسلامي هذا كان شغل أهل العراق في القرن الرابع فمنحوه لقب أمير الشعراء، فانظروا كيف كان يصح للشريف الرضي أن يسكت عن ضياع شعره، وهو أشعر من أمثال السلامي بلا جدال.

وفي ذلك العصر نبغ في العراق ابن نباتة السعدي الذي وصف الثعالبي قصائده بأنها أحسن من مطالع الأنوار وعهد الشباب. وأرق من نسيم الأسحار وشكوى الأحباب، ابن نباته الذي يقول:

وكم لليل عندي من نجوم ... جمعت النثر منها في نظام
عتابا أو نسيبا أو مديحا ... لخل أو حبيب أو همام
تفيد بها العقول نهى وصحوا ... وقد فعلت بها فعل المدام
لها في حلبة الآداب ركض ... إلى حب القلوب بلا احتشام

ابن نباته الذي يقول:

عجبت له يخفي سراه ووجهه ... به تشرق الدنيا وبالشمس بعده
ولا بد لي من جهلة في وصاله ... فمن لي بخل أودع الحلم عنده

---

(١) الوشائع: جمع وشيعة وهي الطريقة في البرد، من الوشع وهو زهر البقول.

وفي ذلك العهد نبغ بالموصل شاعر فحل هو السري الرفاء[1] السري الذي يقول وقد شرب في زورق:

ومعتـــدل يـــسعى إلي بكأســـه ... وقد كان ضوء الصبح بالليل يفتك
وقـد حجـب الغـيم الـسماء كـأنما ... يـزر عليهـا منـه ثـوب ممـسك
ظللنـا نبـث الوجـد والكـأس دائـر ... ونهتـك أسرار الهـوى فنهتـك[2]
ومجلـسنا في المـاء يهـوي ويرتقـي ... وإبريقنا في الكأس يبكي ويضحك

وأكاد أجزم بأن السري الرفاء نال من نفس الشريف كل منال، فقد شغل النقاد بشعر الرفاء شغلهم بشعر المتنبي، فأفنوا الليالي في إخراج سرقاته الشعرية ومزقوه كل ممزق، وكان الشريف يتمنى أن يظفر شعره من النقاد ببعض ما ظفر به شعر الرفاء.

وفي عصر الشريف نبغ في العراق شاعران ماجنان هما ابن سكرة وابن حجاج، وكان لهذين الشاعرين في زمانهما مكان مرموق، فكان يقال في بغداد (إن زمانا جاد بابن سكرة وابن حجاج لسخي جدا)[3] وكانت أشعار هذين الماجنين تباع في الأسواق بأثمان غالية، وكان الناس يتشوفون إلى أشعارهما تشوف الصائمين إلى طلعة شوال، وما ظنكم بديوان شعر يباع بخمسين دينارا في أزمان قضت عليها الفتن والثورات بضيق العيش واختلال الأحوال!

وقد طغى هذان الشاعران في زمانهما أبشع الطغيان، بفضل ما خلبا به الناس من أشعار الهزل والمجون؛ وبفضل ما رزقا من قوة الافتتان معَ خفة الروح، أما ابن سكرة فكان يبدع في وصف مجالس اللهو والأنس كأن يقول:

---

(١) عاش هذا الشاعر إلى سنة ٣٦٦ فكان عمر الرضي وقت وفاته نحو ثمان سنين.
(٢) الكأس قد يذكر، ومن شواهد تذكيره هذا البيت.
(٣) انظر اليتيمة.

ويـــوم لا يقـــاس إليـــه يـــوم ... يلـــوح ضـــياؤه مـــن غـــير نـــار
أقمنـــا فيـــه للـــذات ســـوقا[1] ... نبيـــع العقـــل فيهـــا بالعقـــار

وقد اتفق له أن يعشق قينة سوداء اسمها "خمرة" فقال فيها أكثر من عشرة آلاف بيت، وكانت هذه الحكاية مدار السمر في أندية بغداد، وأثرت في الشريف الرضي نفسه فأنشأ القصائد الطوال في التشبيب بالسود الملاح[2].

وأما ابن حجاج فقد تفرد بفن من السخف لم يسبقه إليه سابق[3] وكان السخف في ذلك الزمن شيئا يطلبه أحرار الرجال ليتلهوا عما يحيط بهم من المعاطب والظلمات. وقد بلغ الشعر بابن حجاج كل مبلغ فحصل الأموال، وعقد الأملاك، وصار مقضي الحاجة، مقبول الشفاعة، محذور الجانب، متقى اللسان[4].

ولم يكن السخف كل بضاعة ابن حجاج؛ فقد كان يجيد في سائر ضروب الشعر إجادة الفحول، واضطر الشريف إلى العكوف على دراسة شعره فأخرج منه مختارات سماها (الحسن من شعر الحسين).

ولما مات رثاه الشريف بقصيدة جيدة ابتدأها بهذين البيتين:

نعـــوه عـــلى ضـــن قلبـــي بـــه ... فللـــه مـــاذا نعـــى الناعيـــان
رضـــيع ولاء لـــه شـــعبة ... مـــن القلـــب فـــوق رضـــيع اللبـــان

وختمها بهذين البيتين:

فـــزل كزيـــال الـــشباب الرطيـــ ... ـــب خانـــك يـــوم لقـــاء الغـــواني

---

(١) في اليتيمة (شوقا) بالشين وهو تحريف.
(٢) سنرى شواهد ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب.
(٣) تجارب الأمم ج٣ ص٤٠٣.
(٤) ص٤٠٤.

ليبك الزمان طويلا عليك فقد كنت خفة روح الزمان

وأستطيع أن أقول: إن الشريف كان يعطف على ابن حجاج لبعض الوفاق في المذاهب الدينية أو السياسية؛ فقد كان يعرض ببعض خصوم أهل البيت، كأن يقول في خطاب أبي إسحاق الصابي:

فداك الله بي وبكل حي من الدنيا دني أو شريف
يحل لك التغافل عن أناس تولوا ظلم خادمك الضعيف
ولست بكافر فيحل مالي ولا الحجاج جدي من ثقيف
فمر بدراهمي ضربا وإلا جعلت سبال قوفا في الكثيف[1]

ولم تمنعه مراعاة الخلافة العباسية في بغداد من مدح الخلفاء الفاطميين بالقاهرة والظفر بما في مصر من طيبات الهدايا والدنانير[2].

ولكن من الظلم أن نقضي بأن ذلك التوافق المذهبي كان كل الأسباب في عطف الشريف على ابن حجاج، فقد كانت لهذا الرجل وثبات شعرية قليلة الأمثال، فهو الذي يقول:

ومدلل أما القضيب فقده شكلا وأما ردفه فكثيب
يمشي وقد فعل الصبا بقوامه فعل الصبا بالغصن وهو رطيب
متلون يبدي ويخفي شخصه كالبدر يطلع مرة ويغيب
أرمي مقاتله فتخطئ أسهمي غرضي ويرمي مقتلي فيصيب
نفسي فداؤك إن نفسي لم تزل يحلو فداؤك عندها ويطيب
مالي ومالك لا أراك تزورني إلا ودونك حاسد ورقيب

تلكم حال ابن سكرة وابن حجاج؛ فهل يمكن القول بأن الشريف كان

---

(١) قوفا: هو أبو الحسن محمد بن الهماني.
(٢) تجارب الأمم ج٣ ص٤٠٤.

ينظر إلى نجاح هذين الشاعرين بعين الارتياح؟

وكيف وهو يراهما ينتهبان الجو الأدبي أفظع انتهاب، ويبلغان بالهزل ما ما لا يبلغ معشاره أصحاب الجد الصراح؟

ولا تنسوا أني أسوق هذا الكلام لأبين السر في حرص الشريف على الزهو بشعره، والاختيال بعبقريته، فقد كان مضطرا إلى تذكير أهل العراق بما له في الشعر من مقام جليل.

وفي القرن الرابع نبغ أبو الحسن الجرجاني الذي ذكر الناس بعهد البحتري، وقد فصلت الكلام عن شعره ونثره في الجزء الثاني من كتاب "النثر الفني" فلا أعود إليه الآن؛ وإنما يهمني أن أنص على أنه كان من أشهر من أنصفوا المتنبي؛ وكان الشريف يبغض المتنبي، كما تعلمون[1].

ومن نوابغ القرن الرابع أبو الفتح كشاجم؛ وكان شعره في ذلك العهد ريحانة أهل الأدب في العراق، وكان مورد رزق للنساخ والوراقين، وطوفت أشعاره بالمشرق والمغرب حتى وصلت إلى القيروان، وتخير أطايبها مؤلف "زهر الآداب" فانظروا كيف يضيق صدر الشريف الرضي وهو يرى هذه الشهرة لشعر كشاجم على حين يظل شعره الفخم بلا رواة ولا شراح ولا نقاد، وهو في نفسه أشعر الناس.

ومن أعلام ذلك العصر: أبو حامد الأنطاكي، وهو شاعر نشأ بالشام ثم رحل إلى مصر فعاش فيها عيش الترف إلى أن مات سنة ٣٩٩ وقد كانت لهذا الشاعر في زمانه شهرة عظيمة؛ لأنه أراد أن يكون في مصر والشام كابن سكرة وابن حجاج في العراق.

---

(١) سنرى فيما بعد رأيا للأستاذ طه الراوي ينفي الخصومة التي قيل إنها ثارت بين المعري والشريف المرتضى بسبب المتنبي.

ويظهر أنه صادف في مصر جماعة من أهل الهزل والمجون فأوغل في السخف كل الإيغال، وسمى نفسه أبا الرقعمق، وأعلن أنه حليف الرقاعة والحماقة، حتى صح له أن يقول:

أستغفر الله من عقل نطقت به ... مالي وللعقل؟ ليس العقل من

ولكن هذا الشاعر لم يخل من عبقرية نبيلة، فقد سجل في شعره ليل تنيس وهي مدينة مصرية كان لها خط مرموق، وكان بها في بعض العهود خمسمائة صاحب محبرة يكتبون الحديث، وكانت كذلك من أماكن الصيد صيد الطير لا صيد الظباء، فكان بها من أنواع الطيور مائة ونيف وثلاثون صنفا ذكرها بأسمائها صاحب معجم البلدان. وسجل الأنطاكي كذلك ملاعب الجزيرة، جزيرة الفسطاط، لا الجزيرة التي يصلنا بملاعبها في هذه الأيام جسر إسماعيل، وانظروا كيف يقول وقد طال شوقه إلى ملاعب الفسطاط:

ليلي بتنيس ليل الخائف العاني ... تفق الليالي وليلي ليس بالفاني
أقول إذ لج ليلي في تطاوله ... يا ليل أنت وطول الدهر سيان
لم يكف أني في تنيس مطرح ... مخيم بين أشجان وأحزان
حتى بليت بفقدان المنام فما ... للنوم إذ بعدوا عهد بأجفاني
ما صاعد البرق من تلقاء أرضهم ... إلا تذكرت أيامي بنعمان
ولا حننت إلى نجران من طرب ... إلا تكنفني شوق لنجران
لا تكذبن فما مصر وإن بعدت ... إلا مواطن أطرابي وأشاني[1]
ليالي النيل لا أنساك ما هتفت ... ورق الحمام على دوح وأغصان
أصبو إلى هفوات فيك لي سلفت ... قطعهن وعين الدهر ترعاني
مع سادة نجب غر غطارفة ... في ذروة المجد من ذهل بن شيبان
وذي دلال إذا ما شئت أنشدني ... وإن أدرت غناء منه غناني

(١) مصر في هذا البيت هي الفسطاط، وجمهور المصريين يسمون عاصمتهم مصر، حتى القاهرة تسمى عندهم اليوم مصر.

سقيته وسقاني فضل رقيته ... وجاد لي طرفه عفوا ومناني
ما زال يأخذها صفراء صافية ... حتى توسد يسراه وخلاني
الله يعلم ما بي من صبابته ... وما علي جناه طرفه الجاني
كم بالجزيرة من يوم نعمت به ... على تضاحك نايات وعيدان
سقيا لليلتنا بالدير بين ربا ... باتت تجود عليها سحب نيسان
والظل منحدر والروض مبتسم ... عن أصفر فاقع أو أحمر قاني
والنرجس الغض منهل مدامعه ... كأن أجفانه أجفان وسنان

ولا يمكن الشك في أن الشريف الرضي سمع بأخبار هذا الشاعر وما كان لشعره من الذيوع في الأقطار الشامية والديار المصرية.

وفي القرن الرابع نبغ ابن دراج الأندلسي، وقد فصلت أخباره ووازنت بينه وبين أبي نواس في كتاب "الموازنة بين الشعراء" وإنما يهمني أن أنص على أن في أشعاره ما يدل على أنه رحل إلى المشرق فعرف العراق وخراسان، إذ يقول:

فإن غربت أرض المغارب موئلي ... وأنكرني فيها خليط وخلان
فكم رحبت أرض العراق بمقدامي ... وأجزلت البشرى علي خراسان
وإن بلادا أخرجتني لعاطل ... وإن زمانا خان عهدي لخوان
سلام على الإخوان تسليم آيس ... وسقيا لدهر كان لي في إخوان
فلا مؤنس إلا شهيق وزفرة ... ولا مسعد إلا دموع وأجفان
وما كان ذاك البين بين أحبة ... ولكن قلوب فارتهن أبدان
فيا عجبا للصبر منا كأننا ... لهم غير من كنا وهم غير من كانوا
مضي عيشهم بعدي وعيشي بعدهم ... كأني قد خنت الوفاء وقد خانوا

ولا تندهشوا أيها السادة حين أحدثكم عن غيرة الشريف الرضي من سلطان الشعراء في المشرق والمغرب، فقد كانت الدواوين الشعرية تصل إلى

بغداد في حيوات أصحابها، وكانت بغداد تشعر بخطر المنافسة، منافسة القاهرة وقرطبة، فكانت تستورد كل ما تجود به القرائح، وإن تباعدت البلاد.

وكان العراقيون ومن والاهم من أهل المشرق يضنون بالكتب ضن الأشراف بالأعراض؛ فقد غلب أديب على نسخة الجمهرة لابن دريد، غلبه الفقر، وهو أبو الحسن علي بن أحمد الفالي، فباعها للشريف المرتضى بستين دينارا، فلما تصفحها الشريف وجد فيها بخط البائع هذه الأبيات.

أنست بها عشرين حولا وبعتها ... فقد طال وجدي بعدها وحنيني
وما كان ظني أنني سأبيعها ... ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن لضعف وافتقار وصبية ... صغار عليهم تستهل شئوني
فقلت ولم أملك سوابق عبرة ... مقالة مكوي الفؤاد حزين
وقد تخرج الحاجات يا أم مالك ... كرائم من رب بهن ضنين

ويقال إن المرتضى رد النسخة إلى صاحبها بعد قراءة هذه الأبيات وترك الدنانير.

أيها السادة:

رأيتم كيف كان الشعر يرفع أهله في القرن الرابع، وكيف كان الشريف يضجر من خموله بين الشعراء مع أنه كان في نفسه وفي الواقع سيد الشعراء.

فلننظر الآن نظرة ثانية نرى بها كيف عظمت منزلة الشعر في القرن الرابع، حتى استطاع الرضي على شرف منبته أن يرى الشعر من أظهر مزاياه.

كان الشعر في ذلك العصر مما يتحلى به الأمراء والرؤساء، فكان من أقطابه أمير مصر تميم بن المعز، وكان من أعلامه السادة الحمدانيون من أمثال سيف الدولة وأبي فراس.

وكيف لا يعز الشعر في زمن يكون من شعرائه وزراء عظام كأبي الفضل

ابن العميد والصاحب ابن عباد؟ كيف لا يعز الشعر في زمن يكون من شعرائه قاض كأبي الحسن الجرجاني وكاتب مثل عبد العزيز بن يوسف؟

ومن عجائب ذلك العصر أن رجاله كانوا في الأغلب يجمعون بين الصناعتين:

الشعر والإنشاء، فكانت البلاد تموج موجا بمواكب الخيال والبيان.

وكان الشريف الرضي ينظر إلى تلك المواكب بعين القلق والحيرة؛ لأن الظروف السياسية كانت ضيقت عليه الخناق، وأقصت عنه أسباب السلطة الأدبية، وهي سلطة هائلة كان لها الأمير يومئذ في مصاير الرجال.

وسترون في المحاضرة المقبلة تفصيل هذا الجانب من حياة الشريف، ولكن المهم في هذه اللحظة أن تثقوا بأن الظروف هي التي أحرجته وقضت عليه وهو رجل مهذب بأن يخرج على قواعد الذوق فيزهي بشعره ويختال. المهم عندي أن تعذروا الشريف حين ترونه يقول:

سيسكتني يأسي وفي الصدر حاجة ... كما أنطقتني والرجال المطامع
بضائع قول عند غيري ربحها ... وعندي خسرانها والوضائع
غرائب لو هدت على الطود ذي الصفا ... أصاخ إليها يذبل والقعاقع
تضاع كما ضاعت خلاة بقفرة ... زفتها النعامى والرياح الزعازع[1]
كأن لساني نسعة حضرمية ... طواها ولم يبلغ لها السوم بائع[2]
لقد كان لي عن باحة الذل مذهب ... ومظطرب عن جانب الضيم واسع
وما مد ما بيني وبين مذاهبي ... حجاز ولا سدت علي المطالع[3]

---

(١) الخلاة: واحدة الخلا وهو الرطب من النبات، والنعامى: بالضم ريح الجنوب، وزفته طردته.
(٢) النسعة: قطعة من النسع وهو سير من الجلد تشد به الرحال.
(٣) الحجاز: هو الحاجز.

سيدرى من المغبون منا ومنكم ... إذا افترقت عما نقول المجامع
وهل تدعي حفظ المكارم عصبة ... لئام ومثلي بينها اليوم ضائع
نعم لستم الأيدي الطوال فعاونوا ... على قدركم قد تستعان الأصابع
إذا لم يكن وصلي إليكم ذريعة ... فياليت شعري ما تكون الذرائع
أرى بارقا لم يروني وهو حاضر ... فكيف أرجي ريه وهو شاسع
سأذهب عنكم غير باك عليكم ... ومالي عذر أن تفيض المدامع
وأعتد فجا أنتم من حلاله ... ثنية خوف ما له اليوم طالع[1]
وما موقفي والركب يرجى على الصدى ... موارد قد نشت بهن الوقائع[2]
أفارقكم لا النفس ولهى عليكم ... ولا اللب مخلوس ولا القلب جازع
ولا عاطفا جيدي إليكم بلفتة ... من الشوق ما سار النجوم الطوالع
ولا ذاكرا ما كان بيني وبينكم ... مراجعة، إن المحسب المراجع
نبذتكم نبذة المخفف ثقله ... وإني لحبل منه الغدر قاطع[3]

أيها السادة:

ذلكم مقام الشريف الرضي بين شعراء القرن الرابع، وتلكم شكواه من جماهير الناس في بغداد؛ فليته يعود اليوم ليرى كيف تعطفون عليه بعد مئات السنين، وكيف تتوجعون لما كان يتوجع، وكيف تشفقون عليه إشفاق الأكرمين من الأوفياء.

---

(١) الحلال: بالكسر هم النازلون بالمكان. والثنية: العقبة في الجبل.
(٢) النش: نضوب الماء، والوقائع: مساقط الماء.
(٣) في طبعة بيروت :(منة الغدر) وقد أتعب المصحح نفسه فشكل كلمة (منة) بفتح الميم وتشديد النون وضم التاء، والصواب (منه) وهو الفعل ماض من المن وهو القطع. وفي القرآن (لهم أجر غير ممنون) أي غير مقطوع.

أعوام البؤس في حياة الشريف

أيها السادة:

أحدثكم هذه الليلة عن أعظم حادثة أثَّرت في حياة الشريف، وأضرمت النار في صدره، وبصَّرته بحقائق الدنيا وخلائق الناس.

وهذه الحادثة تفسر لكم إلحاح الشريف في مدح أبيه، والتشوق إليه، بطريقة لم تُعرَف عن أحد من الشعراء.

هذه الحادثة هي اعتقال أبيه وحبسه في قلعة فارس من سنة ٣٦٩ إلى سنة ٣٧٦.

وقبل أن نفصِّل أسباب هذه الحادثة نذكر أن الرضيّ وُلد في أيام كانت تفيض بالنكبات، وتعجُّ بالدماء، فقد حدث وهو صبيٌّ في المهد أن ثارت الفتن بين الدَّيْلم والأتراك ثورة عادت على بغداد بأعظم الفجائع، وأبيحت مدينة الكرخ فدام فيها الحريق أكثر من أسبوع، وأُحرق الرجال والنساء في الدُّور والحمامات، وتقدم أبو أحمد الموسوي والد الرضي لمخاطبة العباس بن الحسين وزير بختيار ومحاسبته على ما وقع في الكرخ، فغضب الوزير وصرفه عن النقابة، وكانت يومئذ أعظم منصب يتولاه الأشراف.

وما كاد الشريف يدرك كيف يبتسم لأبويه وهو في المهد، حتى وقع حادث انكشفت به الخلافة الإسلامية أبشع انكشاف: فقد وردت الأخبار إلى بغداد بأن الروم غزوا نصيبين فملكوها وأحرقوها وقتلوا الرجال وسبَوُا الذَّراري، ثم ورد ناسٌ من ديار ربيعة وديار بكر مدينةَ بغداد واستنفروا المسلمين في المساجد والأسواق، وخوَّفوا البغداديين عواقب ما يتطلع إليه الروم من غزو العراق.

وقامت مظاهرة هائلة توجهت إلى قصر الخليفة المطيع لله، وحاول

المتظاهرون الهجوم عليه، وقلعوا طائفة من نوافذ القصر، فأُغلقت دونهم الأبواب بعد أن كادوا يَصِلون إلى الخليفة، ولكنهم لم ينصرفوا حتى أسمعوه أفحش السِّباب.

وفي تلك اللحظة الحرجة تقدم بختيار يطالب الخليفة بما عنده من المدَّخَرات ليستعين بها على غزو الروم، فأجاب الخليفة: إن الغزو يلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وإليَّ تدبير الأموال والرجال؛ وأما الآن وليس لي منها إلا القوت القاصر عن كفايتي، والدنيا في أيديكم وأيدي أصحاب الأطراف، فما يلزمني غَزوٌ ولا حجٌ ولا شيء مما تنظر الأئمة فيه، وإنما لكم مني هذا الاسم الذي يُخطَب به على منابركم؛ تسكِّنون به رعاياكم، فإن أحببتم أن أعتزل اعتزلتُ عن هذا المقدار أيضًا وتركت لكم الأمر كله.

ولكن هذا الجواب على ما فيه من فضيحة الخليفة لم يُرْضِ بختيار، فما زال يُوعد ويهدِّد حتى اضطر الخليفة المطيع لله إلى بيع ثيابه، وبعض أنقاض داره ليجمع أربعمائة ألف درهم يَسْلم بها من غضب بختيار الذي أخذ من الخليفة ومن الناس ما أخذ، ولم يخطُ خطوة واحدة في قتال الروم!

وقد تجلَّت هذه البلايا عن قوتين تخاصمان بني بُويه: قوة الخلافة إن بقيت لها قوة، وقوة أبي أحمد الموسوي الذي عزله وزير بختيار عن نقابة الأشراف.

وبعد سنتين من ذلك التاريخ سنة ٣٦٣ شبت الثورة بين الترك والدَّيْلم مرة ثانية، فسُفِكت الدماء، وأُحرقت مدينة الكرخ حريقًا ثانيًا بعد الحريق الأول، وعانت بغداد أهوالًا أسود من قطع الليل[1]...

ولستم في حاجة إلى من ينبهكم إلى خطر هذه البلايا وآثارها السود في

---

(١) اعترض بعضهم على أن تجري كلمة (أسود) مجرى أفعل التفضيل، ونحن لا نلتفت إلى هذا الاعتراض، لأن كثيرًا من الشعراء تحللوا من بعض قيود أفعل التفضيل طلبًا للتخفيف.

تشتيت الأواصر وتمزيق الصلات فما كانت الفتن تأخذ وقودها كله من الترك والديلم، وإنما كانت تَمُدُّ ضريمها فتنتهب ما تشاء من سواد الناس في أرجاء العراق، وكانوا فريقين: فريقًا يشايع الديلم وفريقًا يناصر الأتراك.

وفي سنة ٣٣٦ قامت الحرب بين بختيار وعضد الدولة، وكانت لهذه الحرب نتائج دميمة في تمزيق البصرة، فقد انضمت مضر إلى عضد الدولة، وانضمت ربيعة إلى بختيار، ولم يكن يهمُّ ربيعة أن ينتصر بختيار، وإنما فعلت ذلك طوعًا للأحقاد الموروثة بينها وبين مضر، وكذلك استفحلت الثورة فأحرقت المحال، وانتُهبت البضائع، وانتهكت الحُرمات.

وفي تلك الأزمنة العصيبة نرى اسم أحمد الموسوي بين الأسماء، ولكن في أي صف؟ في صف بختيار لا صف عضد الدولة، بختيار الذي عزله عن نقابة الأشراف منذ سنين، وما نقول: إن أبا أحمد الموسوي امتشق الحسام في سبيل بختيار، وإنما قبل أن يكون رسول بختيار إلى عضد الدولة في مطلب لم يكن يراه عضد الدولة لائقًا بالملوك، فقد كان صورة دميمة من صور الشهوات.

ثم دارت الدائرة على بختيار وانتهى أمره بالقتل، وخلع الخليفة المطيع وتولى ابنه الطائع، ونال عضد الدولة من الهيبة والقوة ما فرض على الخليفة الجديد أن يمنحه خصائص لم يظفر بمثلها أحد من قبل.

وكاد الظن أن يستوحش عضد الدولة من أبي أحمد الموسوي لسابقة اتصاله بعدوِّه الغادر بختيار، ولكن رأيناه يعتمد عليه في بعض شئونه حين جدَّت الحرب بينه وبين المسيطرين على الأقطار الشامية، فنفهم أن عضد الدولة يرى في أبي أحمد قوة أدبية يُحسب لها حساب، وتُغفر لصاحبها بعض الذنوب.

ثم تقع المفاجأة بعد ذلك بعام واحد، إذ نرى عضد الدولة يقبض على

أبي أحمد الموسوي وعلى أخيه أبي عبد الله ، ثم يقضي بأن يعيشا معتقلين في قلعة فارس، ولم يكتفِ بالقبض على أبي أحمد والد الشريف الرضي، بل صادر أملاكه ليعرِّض أبناءه للعَوَز والاحتياج.

فما الذي جدَّ من الأمور حتى نَقضَ عضد الدولة يده من أبي أحمد وقضى على أملاكه بالمصادرة، وعلى شخصه وشخص أخيه بالقبض والاعتقال؟

هناك أسباب كثيرة لم تُفَصِّلها كتب التاريخ، وإنما فهمناها من ملامح الحروف ونحن نستخبر ما سطر المؤرخون عن ذلك العهد، ويكفي أن نشير إلى كلمة عضد الدولة وهو يقول لمن سأله العفو عن أبي الصابي: أما العفو عنه فقد شفَّعناك له عن ذنب لم نعفُ عما دونه لأهلينا -يعني الدَّيْلم- ولا لأولاد نبينا ﷺ -يعني أبا الحسن محمد بن عمر وأبا أحمد الموسوي وأخاه- ولكنا وهبنا إساءته لخدمته.

ومن هذه الكلمة نفهم أن عضد الدولة كان نقم على أبي أحمد الموسوي أشياء دعته إلى المبادرة باعتقاله، ومصادرة أملاكه ليكون عبرةً لغيره من الرؤساء.

وهنا تبدأ أعوام البؤس في حياة الشريف الرضي، ذلك الطفل الذكي النبيل الذي يواجه مكاره الحياة وهو ابن عشر سنين.

وما ظنكم بطفل يتوقَّد غيرةً وحماسة، ويُقبل على الدرس إقبال الرجال فيصل النهار بالليل في درس العلوم العقلية والنقلية، ويأوي إلى بيت عامر بالكرم والجود تعجُّ أرجاؤه بأصوات الخدم والحاشية، ويرى أباه في الصباح والمساء وهو عماد المكروبين، وغياث الملهوفين، ويرى أساتذته يبالغون في إكرامه لأنه ابن النقيب، ما ظنكم بطفل هذه أحواله يمسي بعافية ثم يصبح فيرى البيت اللب، ذاهل العقل، أن أباه جُرِّد من الحول والطَّوْل وأُلقي به في غياهب الاعتقال.

دعوا جانبًا ما حدثتكم به في المحاضرة الماضية من أن شهرة المتنبي هي التي أطعمت هذا الفتى في الشعر وأنطقته به وسنُّه فوق العشر بقليل، فأصدق الرأي أيها السادة، أن هذه النكبة هي التي خلقت ذلك الشاعر في يوم واحد رجلًا ينظر إلى الدنيا بعين الكهول وهو في سن الأطفال.

إن من العسير أن تتصوروا النبوغ الشعري في طفل عرير؛ لأنكم تعيشون في أزمان لا تعرف الشقاء، أزمان يكون فيها من النبوغ أن يحفظ الطفل قصيدة وهو ابن عشر سنين، ولكن يسهل عليكم تخيُّل ذلك حين تتذكرون كيف كان حال الشريف الرضي حين نُقل أبوه منفيًّا إلى فارس، حين تتصورون كيف أمسي ذلك الطفل فقيرًا ذليلًا بعد الغنى والعزة، حتى صح لبعض أساتذته أن يهبه دارًا يسكنها.

وما أظلم الأيام التي تُحوج طفلًا مثل الشريف إلى قبول هذه الهدية بعد تمنُّع وإباء! تصوروا حال الشريف وهو يحاور أستاذه فيقول: بِرّ أبي فكيف أقبل برك؟! فيجيب الأستاذ وهو يتوسل إليه: إن حقي عليك أعظم من حق أبيك! إي والله ! إن حق الأستاذ أعظم من حق الوالد، ولكن القسوة هي في تلك الحال، حال الطفل الذي تروضه الأيام على أن يلقى أساتذته وهو غنيُّ الرأس، فقير الجيب!

كانت هذه الحادثة مشئومة على الشريف الرضي وإن أحسنتْ في إيقاظ ما غفا من مشاعر ذلك الطفل النبيل.

كانت مشئومة؛ لأنها سدت عليه منافذ القول في هجاء عضد الدولة وحرمته اللذة الطبيعية، لذة التشفي بالهجاء والسِّباب؛ لأن عضد الدولة أخرسه وأخرس جميع أهل العراق، وسكت الطالبيون أنفسُهم فلم يرتفع لهم صوت في وجه ذلك المستبد الذي أودع نقيبهم غيابات السجن والاعتقال!

فإن سألتم: وكيف صح ذلك؟ فإنا نجيبكم بأن عضد الدولة شغل

الناس جميعًا بشواغل شريفة كان لها أحسن الوقع في أنفس الأعداء قبل الأصدقاء، فقد أمر بعمارة ما هدمته الثورات من مرافق بغداد، فأُعيدت المنازل والمساجد والأسواق، وأُدِرَّت الأرزاق على القُوَّام والأئمة والمؤذِّنين والقُرَّاء.

وأقيمت الجرايات لمن يأوي إلى المساجد من الغرباء والضعفاء، وأُلزم أرباب العقارات التي احترقت في أيام الفتنة بإعادتها إلى أحسن أحوالها من العمارة والزينة؛ فمن قَصُرَتْ يده عن ذلك اقترض من بيت المال ليرتجع منه عند الميسرة، ومن لم يوثق منه بذلك أو كان غائبًا أُقيم عنه وكيل وأطلق له ما يحتاج إليه، فأصبحت بغداد بعد مدة يسيرة وهي أحسن مما كانت عليه من قبل.

ثم مضى عضد الدولة في تجميل شواطئ دجلة مما يساير بغداد فقضى بأن تقوم عليها عمارات المنازل ونضيرات البساتين.

وتلفَّت فرأى بغداد كانت ترويها أنهار كثيرة ثم قضت عليها الثورات - أنهار تنقل ماء دجلة إلى سكان بغداد، تشبه القنوات التي كانت تنقل ماء النيل إلى سكان الفسطاط - تلفَّت عضد الدولة فرأى أهل بغداد يشربون مياه الآبار وهي ثقيلة، أو يتكلفون حمل الماء من دجلة في مسافات طويلة، فأمر بحفر الأنهار القديمة، وأقام عليها القناطر ليجتاز عليها النساء والأطفال والضعفاء.

ونظر فرأى جسر بغداد قد ضعف بحيث لا يجتاز عليه إلا المُخاطِر بنفسه، لا سيما الراكب لشدة ضيقه وضعفه وتزاحم الناس عليه، فاختار له السفن الكبار المتقنة وعرَّضه حتى صار كالشوارع الفسيحة، وحصَّنه بالدرابزينات، ووكَّل به الحفَظَة والحراس.

وامتدت نظراته الإصلاحية فشغل نفسه بالفلاحين وأقام لهم قناطر

الأنهار وساعدهم على استنبات الأرض وإقامة البساتين؛ فشعر العراقيون بأنهم خُلقوا من جديد.

ولم يكفه كل ذلك بل مضى فأنشأ المستشفيات لمداواة المرضى من الفقراء، وَرَفَعَ الجباية عن قوافل الحجيج، وأمَّن الطريق إلى الحج وأقام فيه المناهل وأفاض الينابيع، وحمل الكسوة إلى الكعبة، وأطلق الصلات لأهل الشرف والمقيمين بالمدينة وغيرهم من ذوي الفاقة.

وهدته السياسة الرشيدة إلى إصلاح المشْهَدَيْنِ بالغرى والحائر وإصلاح مقابر قريش، فاشتركت الناس في الزيارات والمصلِّيات، وكادوا ينسون ما توارثوه من العداوات.

وهدته السياسة أيضًا إلى بسط الرسوم للفقراء، والفقهاء، والمفسرين، والمتكلمين، والمحدِّثين، والنسَّابين، والشعراء، والنحويين، والعروضيين، والأطباء، والمنجمين، والمهندسين.

تلكم أيها السادة خلاصة ما صنع عضد الدولة في مدينة بغداد وأرجاء العراق.

فماذا يصنع الشريف لو فكر في هجاء رجل مثل هذا الداهية؟!

ماذا يصنع وقد تطوع أهل بغداد أنفسهم لخلق الأساطير والأقاصيص في الإشادة بأعمال هذا المصلح العظيم؟!

ماذا يصنع والألسنة كلها تلهج بالثناء على عضد الدولة وتراه أشرف من شهدت بغداد بعد عصور المصلحين من الخلفاء؟!

ماذا يصنع في هجاء ملك حمى البلاد من كل مفسد، وحفظ الطرق من

كل عائث، وهابه الحواضر والبوادي[1]؟!

لقد نسي الناس أبا أحمد الموسوي ونسُوا أخاه، فليظلَّا في غياهب الاعتقال؛ وليشرب الشريف الرضي كئوس الصاب والعلقم إن شاء!

ولكن عضد الدولة سيموت كسائر الأحياء، وقد مات في الثامن من شوال سنة٣٧٢، فماذا يصنع الشريف الرضي وقد وصل إليه هذا النبأ السعيد؟!

كان في ذلك العهد شابًّا مراهقًا يجاوز الثلاث عشرة بقليل، ولكنه كان يفهم أن موت عضد الدولة لن يكون باب الفرج لأبيه؛ لأنه كان يرى الظروف السياسية لا تزال حالكة السواد، وكان يدرك أن أبناء عضد الدولة سيجرون على سنة أبيهم في معاملة من كان يعادي أو يصادق من الرجال.

فلم يبقَ إلا أن يخاطب أباه بهذه الأبيات:

أبلغا عني الحسين ألُوكًا[2] أن ذا الطَّوْد بعد عهدك ساخا[3]
والشِّهاب الذي اصطليت لظاهُ عكست ضوءهُ الخطوب فباخا[4]
والفَنِيق الذي تدرَّع طول الأر ض خوى به الردى فأناخا[5]
إن ترد مورد القذى وهو راضٍ فبما يكرع الزلال النقاخا[6]

---

(١) عبارة ابن مسكويه في تجارب الأمم ج٣ ص ٣٧.
(٢) الألوك: الرسالة، ومثلها المألكة.
(٣) الطَّوْد: الجبل: وساخ: انخسف.
(٤) باخ: برد.
(٥) الفنيق: الفحل المكرم لا يؤذي لكرامته على أهله ولا يركب، وخوى: سقط به.
(٦) يكرع: يعب، والنقاخ على وزن غراب: الماء البارد العذب الصافي.

والعُقـاب الـشَّغواء أهبطهـا النَّيـ ـق وقـد أرعـت النجـوم سـماخا[1]
أعجلتهـا المنـون عنـا ولكـن خلَّفـت في ديارنـا أفراخـا
وعـلى ذلـك الزمـانُ بهـم عـا دَ غلامًـا مـن بعـد مـا كـان شـاخا

هذا كل ما استطاع الشريف أن يقوله يوم مات عضد الدولة، فهو يراه فَنيقًا هلك، وشهابًا هوى، وجبلًا ساخ؛ ولكنه يتخوف العواقب؛ لأن تلك العُقاب تركت أفراخًا من الجوارح عاد بها الزمان غلامًا بعد أن كان اكتهل وشاب!

والواقع أن الشريف الرضي عجز عن إعلان الشماتة بالقصائد الطوال؛ لأن موت عضد الدولة أحاطت به قوتان: قوة الرأي العام، وقوة ابنه صمصام الدولة.

أما قوة الرأي العام: فتمثِّلها الكلمات التي قالها أقطاب البيان في ذلك الحين، وقد سجلها التوحيدي فقال: لما صحت وفاة عضد الدولة كنا عند أبي سليمان السجستاني، وكان القومسي حاضرًا والنوشجاني وأبو القاسم غلام زحل وابن المقداد والعروضي والأندلسي والصيمري فتذاكروا الكلمات العشر المشهورة التي قالها الحكماء العشرة عند وفاة الإسكندر.

فقال الأندلسي: لو تفوَّه مجلسكم هذا بمثل هذه الكلمات لكان يُؤثَر عنكم.

فقال أبو سليمان: ما أحسن ما بعثتَ عليه! أما أنا فأقول: لقد وَزَن هذا الشخص الدنيا بغير مثقالها، وأعطاها فوق قيمتها، وحسبُك أنه طلب الربح

---

(١) العقاب بالضم: طائر من الجوارح. والشغواء: المختلفة نبت الأسنان بالطول والقصر والدخول والخروج، وهي تطلق على العقاب، والنيق بالكسر: أرفع موضع في الجبل. والسماخ: الارتفاع.

فيها فخسر روحه.

وقال الصيمري: من استيقظ للدنيا فهذا نومه، ومن حلم بها فهذا انتباهه.

وقال النوشجاني: ما رأيت غافلًا في غفلته ولا عاقلًا في عقله مثله، لقد كان ينقُض جانبًا وهو يظن أنه مُبْرِم، ويَغْرَم وهو يظن أنه غانم.

وقال العروضي: أما إنه لو كان مُعْتَبِرًا في حياته، لما صار عبرةً في مماته.

وقال الأندلسي: الصاعد في درجاتها إلى سفال، والنازل من درجاتها إلى معال.

وقال القومسي: من جدَّ للدنيا هزلت به، ومن هزل راغبًا عنها جدَّت له؛ انظر إلى هذا كيف انتهى أمره؟، وإلى أي حضيض وقع شأنه؟، وإني لأظن أن الرجل الزاهد الذي مات بالشونيزية أخفُّ ظهرًا وأعزُّ ظهيرًا من هذا الذي ترك الدنيا شاغرة، ورحل عنها بلا زاد ولا راحلة.

وقال غلام زحل: ما ترك هذا الشخص استظهارًا بحسن نظره وقوته، ولكن غلبه ما منه كان، وبمعونته بان.

وقال ابن المقداد: إن ماءً أطفأ هذه النار لعظيم، وإن ريحًا زعزعتْ هذا الركن لَعَصُوف[1].

---

(١) الكلمات هنا لم تبلغ العشر، وهي كاملة في ابن الأثير ج ٩ ص ٨ ومنها: كيف غفلت عن كيد هذا الأمر حتى نفذ فيك، وهلا اتخذت دونه جُنَّة تقيك؟ إن في ذلك لعبرة للمعتبرين، وإنك لآية للمستبصرين.
ويقول ابن الأثير: إن عضد الدولة كان له شعر حسن، وإنه قال حين أرسل إليه أبو تغلب بن حمدان يعتذر من مساعدته بختيار ويطلب الأمان:

وهذه الكلمات -وإن كان ظاهرها الشماتة- تمثل قوة الرأي العام أصدق تمثيل، فهم كانوا يرون عضد الدولة شبيهًا بالإسكندر الذي دوَّخ ممالك الأرض، ووطئت حوافر خيله أمنع البقاع في أرباض الشرق.

ومع أن عضد الدولة لم يملك العراق غير خمس سنين ونصف، فقد استطاع أن يملك قلوب العراقيين، وأن يشغلهم بالعلم والحضارة، وأن يُنسيهم ما صنعتْ عواصف السنين بالأنفس والأموال.

أما القوة الثانية التي صدمت الشريف الرضي وحرمته لذة التشفي بموت عضد الدولة فهي قوة صمصام الدولة، وكان هذا الملك الجديد على جانب من صحة الرأي في بداية أمره، فقد أخفى على الناس موت أبيه عضد الدولة إلى أن تستقيم له الأمور، فلما تم له من ذلك ما أراد أعلن موت أبيه وأعلن في الوقت نفسه إلغاء الضرائب التي كان فرضها أبوه، وهي ضرائب كان يضجُّ منها الناس في السرِّ، ويتهيبون التضجر منها في العلانية.

وكذلك رأى الشريف الرضي أن الدنيا بالنسبة إليه انتقلت من قُبح إلى قُبح، وأن سجن أبيه سيطول، فأخفى ضغائن قلبه، وأقبل على شئونه العاديَّة وهو كاسف البال حزين.

ولكن وقع بعد ذلك ما لم يكن في الحسبان، فقد كان لعضد الدولة ابنٌ آخر هو شرف الدولة، وكان لهذا الابن رجلٌ من الخواصِّ يقيم في بغداد، فلما وصلت إليه الأخبار السرية بأن عضد الدولة مات، وأن صمصام الدولة يُخفي موته بادر ذلك الرجل وكتب إلى شرف الدولة بموت أبيه.

أأفاق حين وطئت ضيق خناقه ... يبغي الأمان وكان يبغي صارما

فلأركبن عزيمة عضدية ... تاجية تدع الأنوف رواغما

وكان شرف الدولة يقيم بكرمان، فكتم أمره وسار إلى فارس، ثم أعلن موت أبيه، وجلس للعزاء، وأخذ البيعة على أوليائه، وأطلق لهم ما جرت به العادة من العطاء.

وعلى هذه الصورة ظهرت في دنيا السياسة لذلك العهد قوتان: قوة شرف الدولة في فارس وقوة صمصام الدولة في العراق.

أما صمصام الدولة فقد اصطنع مذاهب أبيه فكان في الأغلب يعادي من عادى ويصادق من صادق، وأما شرف الدولة فقد نظر إلى أعمال أبيه بعين المتبصر الرشيد، وكان في بواكير ما صنع: الإفراج عن أبي أحمد الموسوي وأخيه أبي عبد الله وجماعة من الأشراف (بعد أن طال بهم الاعتقال، وضعفت في خلاصهم الآمال، وكما تَطرُق النوائب من حيث لا يُحتَسب، فقد يأتي الفرج من حيث لا يُرْتَقَب [1]).

وهنا تحدثكم خواطركم بأن الشريف الرضي اندفع يهدر بالشعر فرحًا بنجاة أبيه من غياهب الاعتقال، ثم تأخذ منكم الدهشة كل مأخذ حين تعلمون بأنه طوى فرحه في صدره وسكت عن هذه القضية زمنًا غير قليل.

فما سبب ذلك السكوت البليغ ؟!

سبب ذلك، أيها السادة، أن صمصام الدولة كان ينقم من أخيه شرف الدولة كل شيء، فكان يرى الإفراج عن أبي أحمد الموسوي ضربًا من العقوق لعضد الدولة الذي اعتقله وصادر أملاكه؛ وكان عضد الدولة أساس الميراث للأخوين المسيطرين في فارس والعراق، ولا بدَّ أن يكون الشريف الرضي قد خشي أن يكون عطف شرف الدولة على أبيه سببًا من أسباب الوحشة بين أسرته وبين صمصام الدولة القابض على العراق؛ وكذلك كتم سروره بنجاة

---

(١) عبارة ابن مسكويه في تجارب الأمم ج ٣ ص ٨١ .

أبيه وأخفى عواطفه نحو شرف الدولة إلى أن يزول العبوس من وجه الزمان.

وفي خلال تلك السنين كانت الجفوةُ متصلةً بين شرف الدولة وصمصام الدولة، ثم بلغ الشر أشده في سنة ٣٧٦ فأغار شرف الدولة على أطايب ما يملك صمصام الدولة، وهاجت بينهما الحرب، فانتصر شرف الدولة، وقبض على أخيه ودخل بغداد دخول الفاتحين.

وباندحار صمصام الدولة صار من حق أبي أحمد الموسوي أن يعود إلى بغداد، ويرى ابنه المحبوب الذي نظم من القصائد في التوجع لأبيه ما لا ينظم مثله إلا أبرُّ الأبناء في أكرم الآباء.

أيها السادة:

أترونني أضجرتكم بهذه الصفحات الدامية من التاريخ؟

لقد أقذيتُ عيني تحت المصباح ليالي كثيرة لأراجع حوادث تلك السنين وأستخلص منها هذه الصفحات، وما أظنني ظلمت التاريخ حين وجهته على غير ما ينتظر المؤرخون، فقد دوَّنوا ما دوَّنوا وفهمتُ ما فهمت؛ ولكل باحث أسلوب.

ولا يعنيني إلا أن أصل بكم إلى تعرُّفِ نفسية الشريف التي صبغتها أعوام البؤس بالدم النجيع، لا يعنيني إلا أن تعرفوا كيف صح لذلك الرجل أن ينظم عشرات القصائد في مدح أبيه، وتلك خصلة لا نجدها بهذا الوضوح عند غيره من الشعراء.

إن الأدب، أيها السادة، لا يستطيع أن يستقل عن التاريخ؛ وكيف وهو من صور التاريخ؟

وقد استطعنا بهذه الجولة السريعة أن نعرف ألوان الأيام التي تفتَّحت فيها عبقرية الشريف الرضي، وفهمنا كيف كان يرى الدنيا بأعين الكهول وهو في

نضرة الشباب، فلنسجل مع ذلك أن الشريف أفاد من أعوام البؤس نعمة باقية فقد أحب أباه حبًّا لم يسمع بمثله الناس، وصار يتلهف عليه تلهفًا موجعًا، وينظم فيه أشعارًا لها رنين الأسجاع؛ أسجاع الحمائم الباكية في إثر الأليف المفقود.

وما كان اعتقال والد الشريف إلا نكبة حلَّت بذلك البيت، فقد ذهبت دنيا أولئك الناس مرةً واحدة، إذ سُجن سيد البيت، ثم صودرت الأملاك؛ وتتابعت الرزايا على صورة تُنبت الشجى في أقسى القلوب.

وزاد في تلك المأساة أنها صادفت فتًى رقيق الحس، مُرْهَف القلب، شاعر الروح، فصيَّرته وترًا حنَّانًا يجيد تصوير الأسى وترجيع الأنين.

وضاعف من نكد تلك البلية أن ذلك الفتى كان يرى الكفر أهون من المكسب الخسيس، فساقه التصون إلى الضنك؛ ولم يبقَ أمامه وأمام أخيه غير التصرف فيما كانت تملك أمهما الرءوم، وقد قسا الدهر وعَنُفَ فاضطرَّ تلك السيدة إلى بيع أملاكها وحُليِّها لتضمن لولديها العزيزين عيش الكفاف إلى أن يمنَّ الله على زوجها بالخلاص.

أيها السادة:

لم أُرد أن أُطيع القلم وأنا أكتب هذه المحاضرة فأغزو قلوبكم بالحزن على رجل صار في ذمة التاريخ، ويكفي أن تعرفوا أن صاحبنا لم يقل الشعر الجيد وهو ابن عشر سنين إلا لأن الزمن رماه في طفولته بما يمنح الأطفال عقول الكهول؛ وسترون في الليالي المقبلة أنه بدأ يشكو الشيب وهو في سن العشرين "وشيبُ الرأس من شيب الفؤاد".

والآن نواجه أشعار الشريف في مدح أبيه فنقول: إن الشريف مدح أباه بأكثر من أربعين قصيدة، وأشعاره في مدح أبيه تنقسم إلى ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: في التوجع لأبيه وهو سجين.

والطائفة الثانية: في تهنئة أبيه بالخلاص وردِّ أملاكه إليه.

والطائفة الثالثة: في تهنئته بالأعياد بعد أن لان الزمان.

ولكل طائفة من هذه الأشعار خصائص:

فالطائفة الأولى: تصور الحزن والجزع والتفجع.

والثانية: يغلب عليها الابتسام ولكنها تفيض بالسُّم الزُّعاف في الثورة على الناس.

والثالثة: تخلع على أبيه رداء الملوك، فهو يدخل عليه في كل عيد بقصيدة كما يصنع الشعراء في تحية الخلفاء والملوك.

وقبل أن ندخل في تحليل هذه القصائد نوجه أنظاركم إلى شرح الظاهرة الأدبية التي تجدونها في ديوان الشريف الرضي، فأنتم تذكرون أن جامع الديوان يسمي قصائده القديمة "قواذف" ويُذكر في أغلب الأحيان أن الشريف حذف من تلك "القواذف" أشياء.

وتعليل هذه الظاهرة لا يصعب على من يتذكر الظروف السياسية التي فصلناها في صدر هذه المحاضرة، فتلك "القواذف" كانت بالتأكيد تمسُّ بني بُويه، ثم هُذِّبت طلبًا للسلامة من شر أُولئك الملوك.

وينبغي أيضًا أن ننص على خصائص الأشعار التي نظمها الشريف بين ٣٦٩ و ٣٧٦ فهذه القصائد كان يغلب عليها التبرم والضجر والاكتئاب، وقد حوَّلته الحوادث إلى رجل وَدُود يعطف على مصائب الناس، ولا سيما المنكوبين بقسوة الملوك.

ومن شواهد ذلك قصيدته الهمزية إلى صديق حلَّتْ به نكبة، ولم يذكر جامع الديوان ما هي تلك النكبة، ولكننا نفهم أنها نكبة سياسية، إذ نراه يقول:

خُطوبٌ لا يقاومها البقاء ... وأحوال يَدِبُّ لها الضراء[1]
ودهرٌ لا يصحُّ به سقيمٌ ... وكيف يصح والأيام داء
وأملاكٌ يرون القتل غُنْمًا ... وفي الأموال لو قنعوا فداء[2]
همُ استولوْا على النجباء منا ... كما استولى على العود اللِّحاء[3]
مُقامٌ لا يجاذبهُ رحيلٌ ... وليل لا يجاوره ضياء
سيقطعك[4] المثقف ما تمنى[5] ... ويعطيك المهنَّد ما تشاء
بلونا ما تجيء به الليالي ... فلست صبحٌ يدوم ولا مَساء

وهي قصيدة كثيرة الفنون، نقف منها عند قوله في تعزية ذلك المنكوب:

وما حَبَسَتْكَ منقصةٌ ولكنْ ... كريمُ الزادِ يُحرِزه الوعاء
فلا تحزَن على الأيام فينا ... إذا غدرتْ وشيمتنا الوفاء
فإن السيف يحبسه نجادٌ ... ويطلقه على القيم المضاد

وهو بهذه الأبيات يمدح السجن، أو يتكلف مدح السجن؛ لأن أباه مسجون.

وفي تلك المدة تدلنا أشعار الشريف على أن ناسًا كانوا اجترءوا على شتمه وتجريحه، فكان يتجمَّل ويتحلم صونًا لنفسه عن التسلح بالسباب، كأن يقول:

---

(١) الضراء بالفتح: الاستخفاء.
(٢) الأملاك: الملوك.
(٣) اللحاء: القشر.
(٤) من الإقطاع: وهو الإعطاء. والمثقف: الرمح.
(٥) تمنى: تتمنى بحذف إحدى التاءين للتخفيف.

ما يطلب الدهرُ والأيام من رجلٍ ... يعوذُ بالحمد إشفاقًا على النعم
إذا اقتضته الأماني بعض موعِده ... غطَّى بِستر العطايا عَورة العُدُم (١)
من مَدَّ معصمه مستعمصًا بيدى ... عصمته بإخاءٍ غير منجذم
ومن أُشيِّعه يأمن من لوائمهِ ... ولو رَمَوْه بجرَّاح من الكلم
ولو هتكت حجاب الغيب لافتضحتْ ... أجفان كل مُريب اللحظ متهَم
كفى الذي سبنى أني صبرتُ لهُ ... فاستنصرَ العذرَ واستحيا من الجُرُم
بُردى عفيفٌ إذا غيري لفَجْرتِه ... كانت مناسج بُردَيْه على التهم
إذا العدوُّ عصاني خاف حدَّ يدي ... وعرضُه آمنٌ من هاجرات فمي (٢)
جعلت سمعي على قول الخنا حَرَمًا ... فأيُّ فاحشةٍ تدنو إلى حرم

وما نحب أن نطيل في سرد الشواهد، فهي كثيرة في الديوان، ويكفي أن ندل على ملامحها بهذه التوجيهات، وإن كان الشريف أفصح عنها أبلغ إفصاح وهو يقول في مخاطبة الصاحب إسماعيل بن عباد:

فتًى سنُّهُ عن خمسَ عشرةَ حجةً ... تربى له فضلًا ومجدًا ومحتِدا
فتيُّ الصبا كهلُ الفضائل ... إلى العمر إلا احتلَّ في الفضل مَقعدا
تفرَّد لا يُفشي إلى غير نفسهِ ... حديثًا ولا يدعو من الناس مُنجدا
ولا طالبًا من دهره فوق قُوته ... كفاني من الغُدران ما نَقَع الصَّدى
سأحمَدُ عيشًا صان وجهي بمائهِ ... وإن كان ما أعطى قليلًا مُصَرَّدا
وقالوا لقاء الناس أُنسٌ وراحةٌ ... ولو كنت أرضَى الناس ما كنت مُفْرَدا

ونعود فنذكر أن أول قصيدة قالها الشريف في التوجع لأبيه هي الدالية:

---

(١) العُدم بضم العين وهو الفقر.
(٢) المعنى: أن العدو يخاف سيفه، ولكنه لا يخاف لسانه؛ لأنه لا يصون لسانه عن الاغتياب.

نُصافي المعالي والزمانُ معاندُ ونَنهض بالآمال والجدُّ قاعدُ

وقد نظمها وسنُّه فوق العشر بقليل، نظمها وهو في لفح العبارة القاسية التي فاه بها المطهر بن المطهر بن عبد الله وزير عضد الدولة حين اعتُقل والد الشريف فقد قال: إلى كمْ تُذِلّ علينا بالعظام النَّخرة !!

وكان المنتظر أن تكون هذه القصيدة ضعيفة؛ لأنها من نسج شاعر طفل ولكن قسوة الحوادث أمدت الطفل بعقل الكهول، وأضافته إلى فحول الشعراء.

تقع هذه القصيدة في ثمانية وسبعين بيتًا، فهو فيها طويل النفَس، وقد عرَّض فيها بالخليفة العباسي ولوَّح له بعظمة الفاطميين في مصر، وكان ذلك يومئذ من المحظورات، وانظروا كيف يقول:

وطاغٍ يُعير البغيَ غَرْب لسانه ولَيس له عن جانب الحق ذائد
شننت عليه الحق حتى رددته صمومًا وفي أنيابه القول راقدُ
يُدلُّ بغير الله عضدًا وناصرًا وناصرك الرحمن والمجد عاضدا
يُعيِّر ربَّ الخير بالي عظامهِ ألا نُزِّهتْ تلك العظام البوائد
ولكنْ رأى سبَّ النبيِّ غنيمةً وما حَوله إلا مَريبٌ وجاحد
ولو كان بين الفاطميين رفرتْ عليه العوالي والظبا والسواعد

وفي هذه القصيدة تحدَّث الشريف عن سجن أبيه وعمه حديث الحكماء.

وهناك قصائد بلا تاريخ، منها قصيدة:

رأيت المُنى نُهزة الشائر وسهمَ العُلا في يد القامر

وقصيدة :

أما ذُعِرت بنا بَقَر الخدورِ وغزلان المنازل والقصورِ

بـــــلاء القلـــــب نـــــاظرُهُ وأنجـــــى النـــــاس كـــــاسرُهُ

وقصيدة:

شـيمي لَحاظـكِ عنـا ظبيـة الخَمـر[1] ليس الصِّبا اليوم من شأني ولا وَطَري

وقصيدة:

لا ترقُـــــدنَّ عـــــلى الأذى واعـــزم كـــما عـــزم ابـــن موســـى

وقصيدة:

وَفَى بمواعيـــد الخلـــيط وأخلفُـــوا وكم وعـدوا القلـب المُعَنَّى ولم يَفُـوا

وقصيدة:

بينـــي وبـــين الـــصوارم الهِمَـــمُ لا ســـاعدٌ في الـــوغى ولا قَـــدَم

وقصيدة:

بمجـــال عزمـــي يُمـــلأ الملـــوانِ وتـــضل فيـــه بوائـــق الأزمـــانِ

وقصيدة:

مـــن لي برَعْبَلـــةٍ مـــن البُـــزلِ تَرمـــي إليـــك معاقـــد الرحـــل[2]

فهذه القصائد التسع بلا تاريخ؛ ولكن الذي يتذكر ما شرحناه آنفًا يستطيع أن يعرف تواريخها بلا عناء؛ فليجعلها تلاميذنا في دار المعلمين العالية مجالًا للدرس والتحقيق.

ثم ننظر فتراه نظم ثلاث قصائد سنة ٣٧٤؛ الأولى قصيدة:

---

(١) الخمر بالتحريك ما داراك من شجر وغيره.

(٢) الرعبلة: الناقة الرعناء، ولا تكون كذلك إلا لفرط النشاط، والبزل جمع بازل وهو الذي يلغ تسع سنين.

إذا احتبَـــى بالعُـــشب الـــوادي وانحـــلَّ فيـــه الواكـــف الغـــادي

والثانية قصيدة:

بغـــير شـــفيع نـــال عفـــوَ المقـــادِرِ أخـــو المجـــد لا مستنـــصرًا بالمعـــاذر

والثالثة نظمها بعد أن سنحت الفرصة بالاجتماع مع أبيه عند قدومه من بلاد تَدْمُر، كذلك يقول جامع الديوان: ولا نعرف ما هو قدوم الشريف من بلاد تدمر، ذلك القدوم الذي يسمح له بالاجتماع مع أبيه في بلاد فارس؟

ولكن لا بأس من الموافقة على أنه استطاع أن يرى أباه في ذلك العهد، فنحن في سنة ٣٧٤ وكان صمصام الدولة بدأ يشهد ضعف سلطانه في العراق.

وفي هذه القصيدة يظهر شيء من البشاشة، فنرى الشريف يتغزل فيقول:

ومـــاء تـــشيه الـــريحُ كـــلَّ عـــشيةٍ كـــما رَقَـــمَ الـــبُردَ الـــصَّبيغ يـــماني

مـــررتُ بغـــزلانٍ عـــلى جَنباتـــهِ فـــأطلقن دمعـــي واحتـــبلْنَ[1] جَنـــاني

وعـــاجلني لـــوم[2] الـــرفيقين في الهـــوى عـــشيةَ مـــالي بـــالفراق يـــدان

يقـــولان أحيانًـــا بقلبـــك نـــشوةٌ ومـــا علـــما أن الفـــراق ســـقاني

وكـــم غـــادَرَ البـــين المفـــرِّقُ مـــن فتًـــى يمـــسِّح قلبًـــا دائـــم الخفقـــان

ومـــا الحـــبُّ إلا فرقـــةٌ بعـــد ألفـــةٍ وإلا حِـــذارٌ بعـــد طـــول أمـــان

وفي القصيدة يعرِّض الشريف بمن خذلوه من الأقارب، ويذكر بعض ما لاقى من الخطوب، ثم يمضي إلى مدح أبيه فيقول:

---

(١) في الديوان: (اختبلن) بالخاء المعجمة وهو تحريف.

(٢) في الديوان: (يوم) والصواب ما أثبتناه.

وأبيض من عُليا مَعَدٍّ كأنما ... تلاقى على عرنينه القمران [1]
إذا رمت طعنًا[2] بالقريض حميتُه ... وإن رمت طعنًا بالرماح حماني
يجودُ إذا ضن الجبان بنفسه ... ويمضي إذا ما زلّت القدمان
بصيرٌ بتصريف الأعنة إن سرى ... ليوم نزال أو ليوم رهان
ترامى به الأيامُ وهو مصمَّمٌ ... كما يرتمي بالماتح الرجوان [3]
إذا ما احتبى يوم الخصام كأنما ... يحدثنا عن يَذبُل وأبان [4]
أبا أحمدٍ أنت الشجاع وإنما ... تجرُّ العوالي عرضةً لطعان
ولما غوى الغاوون فيك وفُرِّجتْ ... ضلوعٌ على الغِل القديم حواني
نجوتَ من الغمَّاء وهي قريبةٌ ... نجاءَ الثريا من يد الدَّبَرانِ
وغيرك غَضَّ الذُّل من نَجَواتِهِ ... وطَامن للأيام شخص مُهان
وحال الأذى بين المراد وبينهُ ... كما حِيل بين العَيْر والنَّزَوان
وكان كفحل البيت يطمح رأسُه ... فألقَى على حكم الردى بِجران [5]

وهذا تعريضٌ جارحٌ برجال كان يعرفهم الشريف، رجال اضطهدهم عضد الدولة فلم يَثبتوا على البأساء، وقهرتهم الحوادث على التنصل من مذاهبهم السياسية.

وقد حاولنا أن نتعرف إلى بعض كبار العلويين في ذلك العهد، ولكنا خشينا أن نظلم الأموات بلا سبب تسنده البراهين، وأول من فكرنا فيه أبو الحسن العلوي، وكان شخصية هائلة تمتلك جماهير الناس في الكرخ وبغداد أقوى امتلاك، وقد اعتُقِل مع أبي أحمد الموسوي وصودرت أملاكه فكان في

---

(١) العرنين بالكسر هو الأنف.
(٢) أحب أن أقرأ: "إذا رام طعنًا".
(٣) الرجوان: مثنى الرجا وهو ناحية البئر.
(٤) يذبل وأبان: جبلان.
(٥) الجران بالكسر: مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره.

خزائنه من الذهب مليون دينار، وهو أضخم مبلغ للثروة الفردية في ذلك الحين، وهذا الرجل سكت عنه الشريف الرضي حين توجَّع لأبيه وعمه، فهل يمكن الظن بأنه دخل في مكاتبات سرية مع عضد الدولة لينعم بالخلاص؟

ذلك ظنٌّ من الظنون لا يقوم عليه دليل، ويكفي أن نسجل أن ذلك الرجل كان له في تلك العهود مكان مرموق، وأن من المحتمل أن يكون الشريف قصده بذلك التعريض[1].

وفي سنة ٣٧٥ نظم الشريف ثلاث قصائد، الأولى قصيدة:

يـا دار مـا طربـتْ إليـك النـوقُ ... إلا وربعُـك شـائقٌ ومـشوقُ

وهي من روائع المدائح.

والثانية قصيدة:

وَقْـفٌ عـلى العَـبَرات هـذا النـاظرُ ... وكفـاه سُـقمًا أنـه بـك سـاهرُ

وهي من طلائع الفرح؛ لأنه نظمها وقد توجَّه أبوه من فارس في صحبة شرف الدولة، وهي قصيدة جرى فيها على مذاهب الشعراء فابتدأها بالتشبيب ثم تخلص إلى مدح أبيه فقال:

أغـضيت عـن وجـه الحبيـب تكرمًـا ... وأريتـه أن الجفـون كـواسرُ

هـب لي وحـسبي نظـرة أرنـو بهـا ... فمقرهـا وجـه الحـسين الزاهـرُ

فَلَـئِمَّ أبلـجُ إن أهـل جبينـهُ ... جمحـت إليـه خـواطرٌ ونـواظر

قَـرُبَ الغـمامُ فعـن قريـب ينثنـي ... فيـلٌ مربعـك العـريض المـاطر

---

(١) ظهر لنا أن الفرض صحيح، وستثبت الشاهد الذي يؤيده في ذيل الكتاب:

والثالثة قصيدة :

مـن الظلـم أن نتعـاطى الخُـمارا[1] وقـد سـلبتنا الهمـومُ العُقـارا

وقد نظمها حين وصل أبوه وعمه إلى شيراز، وفيها يقول في تعزيتهما عن ضياع الأملاك:

إذا سـالَمَ الـدهرُ نفـسيكما فـلا حـارَبَ الـدهر إلا اليسارا
أصـابتكما نكبـةٌ فانجلـتْ وعاودتمـا العـزَّ إلا الـديارا
ودهـرٌ يَـرُدُّ علينـا العَـلا ء أجـدِرْ بـه أن يَـرُدَّ الغُفـارا[2]
ألم تَريـا مـن رَمتْـه الخطـوب يمينًـا تُنازِعـه أو يَـسارا
لـئن جُلـتما في مَكَـرِّ الزمـان فبـوَّاكما مـن مَـداه العِثـارا
فـما يَقْـرَع الـدهر إلا الحلـيم ولا ينكـث الخـرق إلا الوقـارا
تَفـرَّق مـالُكما في العـدا وشخـصُكما واحـدٌ لا يـمارى

وهناك قصيدة غير مؤرَّخة نظمها الشاعر وأنفذها إلى أبيه قبل دخوله بغداد بأيام يسيرة على يد بعض أصحابه، فهو كان يعرف معنى التحية، تحية الراجع إلى وطنه وهو في الطريق، كما نرُسل برقيات التحية في هذه الأيام ليفرح بها القادمون وهم على مُتون البواخر، وهذه القصيدة ليست من الطوال، ولكنها على قِصرها تصوِّر شوقه إلى أبيه، شوق الطفل المضيَّع إلى الوالد العطوف، فهو يذكر كيف تركه أبوه وهو نَبتٌ ضعيف؛ ويشير إلى ما صنعت به الأيام فيقول في آخر القصيدة:

لمـا ذكرتـك عـاد قلبـي شـوقُهُ فبكـين عنـه مـدامعُ الأقـلام[3]

---

(١) الخمار بالضم: صداع الخمر.

(٢) الغفار بالضم: يراد به المال.

(٣) جمع الشريف بين نون النسوة وبين الفاعل، وهذا يقع أحيانًا في شعره ومنه أيضا قوله:

خلَّفتني زرعًا فطلت وإنما ... ذاك الغرار نمى إلى الصمصام[1]
أكدت على الأرض من أطرافها ... وتدرَّعت بمدارع الإظلام[2]
وعهدتها خضراء كيف لقيتها ... أبصرت فيها مسرحًا لِسَوامي
أشكو وأكتمُ بعض ما أنا واجدٌ ... فأعاف أن أشكو من الإعدام[3]

ثم يطلعُ البدر بعد طول الاحتجاب، ويرى الفتى أباه في بغداد سنة ٣٧٦، ولكن كيف رآه؟ رآه شاحب اللون، هزيل الجسم، قد نالته ظُلمات الاعتقال، فيتمثله في حالين: حال البؤس، وحال النعيم، وتزيده أخيلة الماضي المحزن تعلقًا بذلك الشيخ الجليل الذي يعود إلى وطنه عود الجراز المفلول.

ولا يعلم إلا الله كيف خَفَقَ قلب ذلك الفتى حين رأى أباه، فقد كان لا يزال طفلًا، وكانت المعاني السُّود والبيض تلذع قلبه لذعًا عنيفًا، والعواطفُ العاصفةُ لا يعرفها غير الأطفال.

ولكن قصيدته في استقبال أبيه تدلنا على بعض ما جاش في صدره من المعاني، ولننظر كيف يقول:

تعزَّيتَ مستأنسًا بالبعاد ... والليث في كل أرض غريب[4]
وأحرزت صبرك للنائبات ... وللداء يومًا يراد الطبيب
لحا الله يومًا أرانا الديا ... رَ يندبُ فيها البعيد القريب
وما كان موتًا ولكنه ... فراقٌ تُشَقُّ عليه الجيوب

فما تغني القوادم من جناح ... تحامل إن قعدن به الخوافي

(١) الغرار بكسر الغين: حد السيف.
(٢) أكدت الأرض: غلظت وصلبت.
(٣) الإعدام: الفقر.
(٤) الشطر الثاني يجري مجرى الأمثال.

لئن كنت لم تسترب بالزمان ... فقد كان من فعله ما يريب
رمَى بك والأمر ذاوي النبات ... فآل وغصنُ المعالي رطيب
ولما جذبت زمام الزمان ... أطاع ولكن عصاك الحبيب
ولما استطال عليك الزمام ... وذلل فيك المطيّ اللغوب
رجوت البعاد على أنه ... كفيل طلوع البدور الغروب
رحلت وفي كل جفن دمٌ ... عليك وفي كل قلب وجيب
ولا نُطقَ إلا ومن دونه ... عزاءٌ يَغُورُ ودمعٌ ريب
وأنت تعللنا بالإياب ... والصبرُ مرتحلٌ لا يئوب
وسَرَّ العدا فيك نقص العقول ... وأعلم أن لا يسر اللبيب
أما عَلِم الحاسد المستغِرُّ ... أن الزمان عليه رقيب
قدمِتَ قدوم رقاق السحاب ... تخطر والربعُ ربعٌ جديب
فما ضحك الدهر إلا إليـ ... ـك مذبان في حاجبيه القطوب

إلى أن يقول:

لَحَيَاك منىً عند اللقاء ... خَلقٌ عجيبٌ وخُلق أديب[1]
وخلفتني غرس مستثمر ... فطال وأورق ذاك القضيب
ذخرت لك الغرر السائرات ... يعبَّر عنها الفؤاد الكئيب
تصون مناقبك الشاردات ... أن تتخطى إليها العيوب
وإني لأرجوك في النائبات ... إذا جاءني الأمل المستثيب

وفي تلك السنة يظهر لونٌ جديد في شعر الشريف: هو مدح بني بويه، وكان من قبل لا يمدح غير الخلفاء، لقد كان ذلك الفتى يبغض بني بويه بغضًا شديدًا، ولكن ذلك البغض هدأ بعد أن رأى شرف الدولة الذي أنقذ

(١) الخلق الأول بفتح الخاء والثاني بضمها، يريد أن جسمه نما وعقله اكتمل وكان أبوه تركه طفلًا.

أباه من الاعتقال.

وكذلك نراه ينظم قصيدة جيدة في مدح ذلك الملك، ولكنه لا ينسى أن ينص على سبب المدح فيقول:

هـذا أبي والـذي أرجـو النجـاح بـه ... أدعـوه منـك طليـق الهـم والجَـذَلِ
لـولا مـا انفسحتْ في العيش همتـه ... ولا أقـرَّ عيـون الخيـل والخَـول
حططتـه مـن ذرَى صـمَّاءَ شـاهقةٍ ... مَـرَّ الزمـان عليهـا غـير محتفِـلِ
تلعـاء عاليـة الأرداف تحـسبها ... رشـاء عاديـة مستحـصد الطَّـوَل[1]
تلقـى ذوائبهـا في الجـوِّ ذاهبـة ... يلفُّهـا الـبرق بـالأطواد والقُلَـل[2]
وأنـت طوقتـه بـالمنِّ جامعـةً[3] ... قامـت عليـه مقـام الحَـلى والحُلـل
أوسـعته فـرأى الآمـال واسـعةً ... وكـلُّ سـاكن ضـيقٍ واسـع الأمـل
جـذبت مـن لَهَـوَات الموت مُهجتَـه ... وكان يطـرف في الـدنيا عـلى وَجـل[4]
ومـا كـان إلا حُـسامًا أغمدتـه يـدٌ ... ثم انتضته اليـد الأخـرى عـلى عجـل
فاقـذف بـه ثُغَـر الأهـوال منـصلتا ... واستنصر الليـث إن الخـيس للوَعَـل[5]
ولا تطـيعنَّ فيـه قـول حاسـده ... إن العليـل ليرمـي النـاس بالعلـل
أولى بتكرمـةٍ مـن كـان يحمـدها ... والحمـد يقطـع بـين الجـود والبخـل
كفـاك منظـرهُ إيـضاح مخـبره ... في حُمرة الخـد مـا يُغْنـي عـن الخجـل
تحمَّـل الـشرف العـالي وكـم شرفٍ ... غطَّـى عليـه رداء العـيِّ والخطـل

أيها السادة:

---

(١) تلعاء : عالية، والرشاء الحبل والمستحصد المتين.
(٢) القلل: جمع قلة بالضم وهي القمة.
(٣) الجامعة: الطوق.
(٤) اللهوات: جمع لهاة وهي اللحمة المشرفة على الحلق.
(٥) الثغر: جمع ثغرة بالضم وهي الفتحة، والمنصلت: السيف الصقيل. والخيس بالكسر: موضع الأسد ، والوعل تيس الجبل.

لقد زفَّت سنة ٣٧٦ أعظم بشرى إلى الشريف، إذ سمح له الدهر برؤية أبيه في بغداد، ولكن هناك بشرى ثانية، فما هي تلك البشرى؟ أهي ردُّ الاملاك التي صودرت بعد الاعتقال؟ هيهات، فلن تُرَدَّ الأملاك إلا بعد سنين، فما هي تلك البشرى إذن؟

هي موت المطهر بن عبد الله وزير عضد الدولة، وقد شمت الشريف في موت ذلك الوزير الذي اعتقل أباه وعبره الإذلال بالعظام النَّخرات، عظام أهل البيت.

وأُعيذكم أن تؤاخذوا الشريف على الشماتة في ميت، فللشريف عذره وهو أنه لا يزال فتى غض تبصِّرُه الأيام بمقامات الكلام، وموقفنا في هذه المحاضرات موقف المؤرخ للأفكار الأدبية، فلا بأس من الإشارة إلى هذا الحادث الذي كنا نتمنى أن لا تزلَّ فيه قدم الشريف.

ولكن من الذي يوجب احترام عظام ذلك الميت بعد أن أهان عظام أهل البيت؟ هي غلطة بغلطة، وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها، وليس الشريف من المعصومين وفي الحق أني أنكرت تلك الشماتة، ولو كنت رأيت الشريف الرضي لرجوته تمزيق هذه القصيدة! ومن يدري فلعلي لو كنت مكانه لوقعت في أقبح مما وقع فيه، وهل للشعراء عقول؟!

ابتدأ الشريف تلك القصيدة بمدح أبيه، فلما وصل إلى التعريض بذلك الميت قال:

وجبانٍ لويت عنه فأمسي ... وَجِلَ العين من قِراع الرقاد[1]
متسطيرًا كأن أهداب جفنيه ... على الناظرين شوك القتاد
لا أقال الإله من خانك العهد ... وجازاك بغضةً بالوداد
ظن بالعجز أن حبسك ذلٌّ ... والمواضي تُصان بالإغماد

(١) القِراع بالكسر: مصدر قارعه مقارعة إذا قاتله:

قصر الدهر من ذراه وقد كا ... ن بتلك الظُّبا طويل النجاد
وأذلَّ الزمان بعدك عِطفيه ... وقد كان من أعز العباد
كنت ليثًا وكان ذئبًا ولكن ... لا تلذُّ الأشكال بالأضداد
وتمادى بما جناه على الأيا ... م حتى جنى عليه التمادي
سمحت كفه به للمنايا ... بعد أن لم يكن من بالأحواد
ظن أن المدى يطول وفي الآ ... مال ما لا يعان بالأجداد[1]
هكذا تدرك النفوس من الأعداء ... بَرْد القلوب والأكباد
كل حبس يهون عند الليالي؟ ... بعد حبس الأرواح في الأجساد
وتداركتَ ما تمنيتَ والأحشا ... ء مزورة على الأحقاد
نلت بعضًا وسوف تدرك كلاًّ ... إنما السيل بعد قطر العهاد[2]

أيها السادة:

في هذه البيت الأخير ترون الشريف يصرِّح بأن أباه لم ينل بعودته من فارس كل شيء، وهذا حق، فقد ضاعت من أبي أحمد الموسوي أشياء، ضاعت منه الأعمال الرسمية وكانت من أعظم مظاهر التشريف، وهي: نقابة الطالبيين، وإمارة الحج، والنظر في المظالم، وضاعت منه الموارد الأساسية للرزق، وهي الأملاك التي صودرت وحُرم منها أطفاله منذ سنين.

أما الأعمال الرسمية فلم تعد إليه بعودته إلى بغداد، وإنما طاولتها الظروف فلم تعد إلا في سنة ٣٨٠، وكان لرجوع تلك المناصب إلى أبي أحمد الموسوي نشوة طرب رقصت لها أخيلة الشعر في خواطر الشريف الرضي فاندفع يقول:

أُنظر إلى الأيام كيف تعودُ ... وإلى المعالي الغرِّ كيف تزيدُ

---

(١) الأجداد: جمع جَد بالفتح وهو الحظ.
(٢) العهاد جمع عهد وهو أول مطر الوسمي.

وإلى الزمـــان نبـــا وعـــاود عطفـــه ... فارتـــاح ظمـــآن وأورق عـــود
نِعَـمٌ طلعـن عـلى العـدو بغيظِـهِ ... فتركنـــه حَمِـــر الجنـــان يميـــد (١)
قـد عـاود الأيـام مـاء شـبابها ... فـالعيش غـضٌّ والليـالي غيـد
إقبـالُ عـز كالأسـنَّةِ مُقبـلٌ ... يمـضي وَجـدٌّ في العـلاء جديـد
وعُـلًا لأبلـجَ مـن ذؤابـة هاشـم ... يثنـي عليـه السؤدد المعقـود
قـد فـات مطلوبًـا وأدرك طالبًـا ... ومقـارعوه عـلى الأمـور قُعـود
خـسأت عيـونهم وقـد طمحـت لـه ... عُـدَدٌ عـراض في العـلا وعديـد
مـا صـال إلا انجـاب غـيٌّ مُظلـمٌ ... واندقَّ مـن عمـد الـضلال عمـود
يأسـو ويجـرح فالجراحـة عزمـةٌ ... تُـصمي وآسـيها النـدى والجـود
سـطوٌ وصـفحٌ يَطرُقـان عـدوَّه ... أبـدًا ووعـدٌ صـادقٌ ووعيـد
عـن أيِّ بـاع في العـلاء رميـتمُ ... ليثًـا تقيـه مَقـادرٌ وجُـدود
طاشـت سـهامكُم وفـارق نزعـه ... سـهم إلى قلـب العـدوِّ سـديد
حسدوك لما فـات سعيُك سعيَهم ... صُـعُدًا فـما نقـع الغليـل حَسودُ
ورأوا بوائجهـا تلـوح وريحهـا ... تسري وعارضـها الغزيـر يجـود (٢)
عَجـل الزمـانُ بهـا إليـك وحُطِّمَـت ... بـين الـضلوع ضـغائنٌ وحقـود
قـد كنـت أخـشى أن يقـول مخـبِّرٌ ... كـادوا ومـا أُعطـوا المـراد فكيـدوا
أو أن يقـال أقـاربٌ نزعـت بهـم ... ظِـنـنٌ فكـلٌّ بـالعقوق بعيـد (٣)
سُـئلوا العُـواد (٤) فجـانبوه فعـاودوا ... وألان إذ ملـك الزمـامَ (٥) وقيـدوا

---

(١) حمر الجنان: مكوي القلب، من قولهم: حمر الرجل، إذا توقد غضبًا.
(٢) البوائج: جمع بائجة وهي الداهية.
(٣) الظُّنن: جمع ظِنة بالكسر وهي التهمة.
(٤) في الديوان: (الزمان).
(٥) العُواد: بالضم يراد به الصلح.

لــولا الأليــة منــك أن لا تنتــضي ... عَــضْبًا يقــوم مقامــه التفنيــد (١)
لــسنتت في الأقــوام غــير ملــوَّم ... مــا ســنَّ يــوم ابــن الــزبير يزيــد
اليــوم أصــحرتِ الــضغائنُ وانجلــت ... تلــك المــوارن والجبــاه الــسود (٢)
وتراجعــوا عُــصَبًا إليــك وخَلْفهــم ... عنــف الــسباق وللقلــوب وئيــد (٣)
فاصــفح فــسوف ينــال صــفحك منهمُ ... مــا لا ينــال العــضب وهــو حديــد (٤)

وهي قصيدة على جانب عظيم من السلاسة والقوة، وقد سكتنا عن رواية الأبيات الخاصة برجوع تلك المناصب، وأثبتنا الأبيات التي تعبر عن الثورة على الأقارب؛ لأن هذه الأبيات ستنفعنا فيما بعد، حين نبحث عن السبب في شراسته وهو يخاطب الأقرباء.

أما الأملاك التي صودرت فسيطول عليها التفجُّع، ولكن سَيُرَدُّ منها جزء في سنة ٣٨٦ وجزء في سنة ٣٩٦ ، ومعنى ذلك أن أبا أحمد الموسوي سيظل في انتظار أملاكه المسلوبة إلى أن تُضْعِفه الشيخوخة ويقضي الزمن على نور عينيه بالذهاب.

وإنما نعبِّر بهذه العبارة الحزينة لنعلِّل فرح الشريف برجوع تلك الأملاك؛ فقد كان يرى أباه شيخًا ضعيفًا لا يعرف السبيل إلى مسالك الرزق، ولا تُستَر شيخوخته إلا برجوع تلك الأملاك.

وهنا نشير إلى خطأ وقع فيه جامع الديوان، فقد ذكر أن الشريف هنأ أباه برد أملاكه إليه بأسرها في سنة ٣٨٦ ، والصواب أن تقرن هذه العبارة بالقصيدة التي نظمها سنة ٣٩٦ .

---

(١) الأليّة : اليمين، والعضب: السيف.
(٢) أصحرت: انكشفت، والموارن: جمع مارن وهو الأنف.
(٣) الوئيد: في الأصل هدير البعير، والمراد به هنا: الصوت العالي الشديد.
(٤) حديد : قاطع.

فعندنا إذن قصيدتان في التهنئة بردِّ تلك الأملاك: الأولى عينية، والثانية دالية.

أما العينية: فهي قصيدة جَزِلة تحدث فيها الشريف عن عزمه الوثَّاب، وبليته بالأعداء؛ ثم وجَّه الخطاب إلى أبيه فقال:

ليهنك ما تجدِّدُهُ الليالي ... وحَسبُك من فراقٍ واجتماع
وما ردَّ الزمانُ عليك حفظًا ... من الأملاك والمال المضاع
تمارى الناس قبلك وهي غصب ... أديوان الضِّياع أم الضَّياع[1]
وعادت في يديك مروَّضات ... وكانت قَفْعَ قَرقرة بقاع
ظفرتَ بما اشتهيتَ وأنت وانٍ ... ونال البعضَ غيرُك وهو ساع
يبشر والقلوب مفجَّعات ... كأنَّ بشيره في الخلق ناع
وما كلُّ المواهب بالأماني ... ولا كل الأحاظي بالقراع[2]
لكلٍّ في بلوغ العز طبعٌ ... وبعض الناس مختلف الطباع

وقد ساقه المقام إلى أن يسجل مكرُمة شرف الدولة فقال:

أجار أبو الفوارس منك سيفًا ... تحامته يمين أبي شجاع
فدى لك مَن ينازعك الرزايا ... ويُقرِضك الأذى صاعًا بصاع
يَعَضُّ أناملَ الأُسد الضواري ... عليك بغيظ أنياب الأفاعي
رعاك بلحظ طَرفٍ غير وانٍ ... وعاج عليك سمعًا غير واع
فكنت السيف أغمده جبانٌ ... فَسُلَّ وقد تصدَّى للمصاع[3]
الان[4] رِدِ العلاء بلا رقيب ... وشمِّر في الأمور ولا تراع

---

(١) الضَّياع: بفتح الضاد من ضاع يضيع فهو ضائع، والضِّياع: بكسر الضاد جمع ضيعة بالفتح وهي العقار والأرض المغلة.
(٢) القِراع: بالكسر القتال.
(٣) المصاع: بالكسر المضاربة.
(٤) الان: مخففة من الآن.

ولا يغـــررك قَعقعـــةُ الأعـــادي ... فـــذاك الـــصخر خَـــرَّ مـــن اليَفـــاع
الان[1] تراجعـــتْ تلـــك الرعايـــا ... وجُهِّـــزت الرعيـــة للمراعـــي
وعـــاد الـــسِّرب أمنـــع مـــن قلـــوبٍ ... تُقلـــب بـــين أضـــلاع الـــسباع

وأما الرائية: فهي قصيدة مرقصة:

نطـــق اللـــسانُ عـــن الـــضمير ... والبِـــشرُ عُنـــوان البـــشير
الآن أُعفيـــــت للقلـــــو ... ب عـــن التقلقـــل والنفـــور
وانجابـــت الظَّلْـــماء عـــن ... وَضَـــح الـــصباح المـــستنير
مـــا طـــال يـــومُ ملـــثَّم ... إلا اســـتراح إلى الـــسفور
خَـــبَرٌ تـــشبث بالمـــسا ... مِـــع عـــن فـــم الملـــك الخطـــير
وأذلَّ أعنـــاق العِـــدا ... ذُل المطيَّـــة للجريـــر[2]
يـــسمو بـــه قـــول الخطيـــ ... ـــب وتـــستطيل يـــد المـــشير
وَضـــمائر الأعـــداء تقـــ ... ـــذف بـــالحنين عـــلى الـــزفير
وســـوابق العـــبرات تركـــ ... ـــض في الـــسوالف والنحـــور

وهي طويلة وكلها على هذا النسق المرقِص.

أيها السادة:

إلى هنا أكتفي بترتيب الحوادث في مسايرة الشريف وهو يمدح أباه، ويكفي أن ننص على أن ما سنُغفله من تهنئة أبيه بالأعياد له دلالة سياسية، فهو كان يرى أباه خليقًا بأن يُهنَّأ بالأعياد كما يُهنأ الملوك والخلفاء، وأريد التهنئة الدورية التي تصاغ في كل موسم بلا تخلُّف، وهي بالتأكيد شارة الرياسة وعنوان السلطان، أترك هذا الجانب من قصائد الشريف في مدح أبيه وهي مبثوثة في الديوان يرجع إليها منكم من يشاء، ثم أشير إلى قصائد لها قيمة في

(١) الان: مخففة من الآن.
(٢) الجرير: الحبل تخطم به المطية.

بيان المنزلة الاجتماعية لأبي أحمد الموسوي.

ويشهد ديوان الشريف بأن الموسوي تلافى الفتنة بين السُّنة والشيعة في سنة ٣٨٠، فهو على ذلك كان من الزعماء المصلحين، ولم يكن من الزعماء المفسدين.

والخلاف بين السنة والشيعة قديم في العراق، وهو خلاف كان مشئومًا من جانب، وميمونًا من جانب، كان مشئومًا؛ لأنه قسم العراق إلى جيشين يقتتلان، وكان ميمونًا؛ لأنه علم العراقيين الجدل وجعلهم من أعرف الأمم الإسلامية بأصول المذاهب والآراء، وربما جاز لي أن أصرح بأن هذا الخلاف كان سببًا في حياة اللغة العربية؛ لأنه أمدَّ التصنيف والتأليف بفنون من القوة والحيوية، وعاد على الشعر والنثر بأجزل النفع، وللشر مزايا في بعض الأحيان، ولكن هذا الخلاف كان في حاجة إلى من يرعاه ويحوِّله إلى جدل مقبول يُشْحَذُ به الذهن والعقل.

وقد استطاع أبو أحمد الموسوي أن يقف مرة موقف المصلح فيحقن الدماء، ويغنم السلامة للإخوان المتخاصمين، وتظهر قيمة هذا الموقف النبيل إذا تذكرنا أن الخلاف بين السنة والشيعة كانت تُؤزُّه دسائس خارجية، وما نقول هذا رجمًا بالظن، وإنما عرفنا هذه الحقيقة بعد التعمق في دراسة الوضع السياسي للنصف الثاني من القرن الرابع، فموقف أبي أحمد الموسوي كان موقف السياسي المحنَّك الذي يبصر ما وراء الأكمة من المعاطب والحتوف.

وقد سجل ابنه ذلك الموقف الصالح فقال:

وخَطب على الزوراء ألقى جِرانَه ... مديد النواحي مدلهمّ الجوانب
وأضرمها حمراء ينزو شرارها ... إلى جنبات الجوِّ نَزْو الجنادب
سألْتَ عليه الحزم حتى جَلَوتَهُ ... كما انجاب غيمُ العارض المتراكب

وقد عَلِم الأعداء أنك تحتهُ ... غلبت وما كان القضاء بغالب
وأقشعتَ عن بغداد يومًا دَوِيُّهُ ... إلى الآن باقٍ في الصَّبا والجنائب[1]
ولولاك عُلِّي بالجماجم سُورها ... وخُنْدِقَ فيها بالدماء الذوائب

وأنتم تلاحظون أن هذه الأبيات تمثل عطف الشريف على بغداد، فهو يكره أن تكون مسايل دماء.

والواقع أن الشريف كان قليل الرعاية للعصبية المذهبية، والظاهر أنه كان حُرَّ العقل إلى حدٍّ بعيد؛ فقد كان يدرس جميع المذاهب الإسلامية ليمُدَّ عقله بالأنوار التي يُرسلها اختلاف الفقهاء، واهتمامُهُ بمذهب الشافعي معروف، مع أن مذهب الشافعي في ذلك العهد لم يكن له أنصار أقوياء في العراق، وإنما كان أنصاره من المصريين.

ويشهد الديوان أيضًا بأن أبا أحمد الموسوي سافر إلى فارس للإصلاح بين المِلَكَيْن: بهاء الدولة وصمصام الدولة، والإصلاح بين العَسْكَرَيْن: البغدادي والفارسي.

ومعنى ذلك أن هذا الرجل كان يُرجَى لتضميد الجروح، وليس ذلك بالفضل القليل، ولا يعرف قيمة هذا الفضل إلا من يراجع ما دوَّن التاريخ من فواجع ذلك الشقاق.

وفي هذا يقول الشريف من قصيدة نظمها في رمضان سنة ٣٨٧ .

سائِل عن الطَّوْدِ لمْ خَفَّتْ قواعدُه ... وكان إن مال مقدارٌ به رجحا[2]
قد جرَّبوه فما لانت شكيمتهُ ... وحَمَّلُوه فما أعيا ولا رَزَحا[3]

---

(١) الصَّبا: بفتح الصاد، والجنائب: جمع جنوب، والمراد: ريح الصبا وريح الجنوب.
(٢) الطود : الجبل، والقواعد: الأركان.
(٣) رزح: ضعف وسقط إعياءً أو هزالًا.

رَمَوْا بـه الغـرض الأقـصى فـشافهه ... مـرَّ القطـاميّ جـلي بعـد مـا لمحـا
مـن العـراق إلى أجبـال خُرَّمـةٍ[1] ... يـا بُعـدَهُ مَنْبَـذًا عنـا ومُطَّرَحـا
لـيس الملـوم الـذي شـدَّ اليـدين بـه ... بـل الملـومُ المـرزَّى مـن بـه سـمحا
هـو الحُـسام فمـن تعلَّـق يـداه بـه ... يضمم على الصفقة العظمى وقد ربحا
إن أغمـدوه فلـم تُغْمَـد فـضائلهُ ... ولا نـأى ذِكـره الـداني وقـد نزحـا

وفي سنة ٤٠٠ مات أبو أحمد الموسوي وسنُّه سبعٌ وتسعون سنة، فرثاه ابنه بقصيدة بلغت تسعة وثمانين بيتًا، وهي من الطوال الجياد، نذكر منها قوله في وصفه بقوة الشجاعة ورصانة البيان:

أنعـاك للخيـل المغُـيرة شُـزَّبًا[2] ... خـبط المغـار بهـن مـن لم يجـرم
كالـسِّرب أوجـس نَبـأةً مـن قـانص ... فمـضى يَلُـفُّ مـؤخرًا بمقـدَّم[3]
واليـوم مُقـذٍ للعيـون بنَقْعـه[4] ... لا يهتـدي فيـه البنـان إلى الفـم
وَمقـاوم عَـرَض الكـلامُ بُـرُودَه ... فـيهن بـين معـضَّد ومـسهَّم[5]
أغـضى لهـا المتـشدقون وسـلموا ... لهـدير شِقـشِقة الفَنيـق المُقـرم[6]
بـالرأي تَقبَلـهُ العقـول ضرورةً ... عنـد النوائـب لا بكيـفَ ولا لِمْ

أيها السادة:

حدثناكم فيما سلف عن الخصومة بين الرضي والمعري، وقد جاءت الفرصة لتصحيح ذلك، والفضل في هذا التصحيح للصديق الكريم سعادة

---

(١) خرمة: على وزن سكرة موضع في أرض فارس.
(٢) الشزب: جمع شازب وهو الضامر.
(٣) النبأة: الصوت الخفي، أو صوت الكلاب.
(٤) النقع: غبار الحرب وهو العثير أيضًا.
(٥) المقاوم: جمع مقام. والمعضد: ثوب له علم في موضع العضد. والمسهم: البرد المخطط.
(٦) الفنيق: الفحل يكرم على أهله فلا يركب ؛ والمقرم: وصف للفحل.

الأستاذ طه الراوي، أعزه الله ورعاه، فقد نبهنا إلى المرثية المأثورة التي بكى بها المعري أبا أحمد الموسوي، وهي تشهد بأن المعري كان على صفاء مع الرضي وأخيه المرتَضى إلى سنة ٤٠٠، وهو لم يقم في بغداد بعد ذلك غير قليل.

ويقول الأستاذ طه الراوي: إن من المستبعد جدًّا أن ينسي الشريف وأخوه هذه المرثية فيسيئان إلى المعري بسبب عطفه على المتنبي، وبذلك تتبدد الشبهة التي ذكرها مؤرخو الأدب واعتمد عليها سعادة الدكتور طه حسين في كتابه القيم "ذكرى أبي العلاء"[١].

ومطلع مرثية المعري:

أودى فليت الحادثات كفافِ[٣] ... مال المُسيف وعنبر المستاف[٢]

وفيها يقول في الثناء على الشريفين:

أبقيت فينا كوكبين سناهما ... في الصبح والظَّلْماء ليس بخافِ
متأنقين وفي المكارم أرتعا ... متألقين بسؤدد وعفاف
قَدَرَين في الإرداء بل مَطَرَين في ... الإجداء بل قَمَرين في الإسداف

---

(١) عرضنا هذا الرأي على الدكتور طه حسين فلم يسترح إليه، وقد أعاد في كتابه "مع أبي العلاء في سجنه" ما أثبته في كتابه "ذكرى أبي العلاء" مع أن رأي الأستاذ طه الراوي واضح كل الوضوح: فالحادثة إن كانت وقعت قبل موت الموسوي فمن البعيد أن يرثيه أبو العلاء وقد أهين في داره على يد ابنه الكبير، ووقوعها بعد موته غير معقول؛ لأن رثاء أبي العلاء للموسوي يفرض على الشريفين أن يراعيا كرامة أبي العلاء فلا يلقى الهوان وهو ضيف له عندهما عهد...
ويؤيد رأي الأستاذ طه الراوي أن تلك الحادثة لم يتحدث عنها مؤلف قبل ياقوت.

(٢) المسيف: من أساف الرجل إذا ذهب ماله، والمستاف من الاستياف وهو الشم.

(٣) كفافِ: اسم معدول مبني على الكسر، جعله الشاعر اسمًا لكف الأذى، أي: ليت الحادثات يكف بعضها بعضًا ويقوم خيرها بشرها (انظر شرح سقط الزند) من ٧٦ ج ٢.

رُزِقا العَلاء فأهل نجد كلما ... نطقا الفصاحة مثل أهل دياف[1]
ساوى الرضيُّ المرتضى وتقاسما ... خطط العلا بتناصُفٍ وتصاف

وفي ختامها يقول:

يامالِكَيْ سَرح القريض أتتكما ... مني حمولة مستتين عجاف[2]
لا تعرف الوَرَق اللَّجِين وإن تُسَل ... تُخبر عن القُلَّام والخذراف[3]
وأنا الذي أُهدي أقل بهارة ... حسنًا لأحسن روضة مئناف[4]
أوضعتُ في طرق التشرف ساميًا ... بكما ولم أسلك طريق العافي[5]

ويحسن أن نشير إلى أن شوقي عارض هذه القصيدة وهو يرثي إسماعيل صبري، عليهما رحمة الله، وقد بلغ شوقي غاية الحكمة إذ يقول:

ما أنت يا دنيا أرؤيا نائم ... أم ليلُ عُرس أم بساطُ سلافِ
نعماؤك الريحان إلا أنهُ ... مسَّتْ حواشيه نَقيعَ زُعافِ

والاستطراد على ما فيه من فوائد لا يسمح في هذا الموطن بأن نوازن بين حضرية شوقي وبدوية أبي العلاء، فلنقف عند هذا الحد من الشئون المتصلة بولد الشريف، وفيما سلف غناء أيُّ غناء.

---

(١) دياف: بكسر الدال موضع نبط لا فصاحة فيه.
(٢) المستون: الذين أصابتهم السنة، أي الجدب، والعجاف: المهازيل.
(٣) القلام والخذراف: ضربان من الحمض من نبات البادية، واللجين: الورق المدقوق، المخلوط بالنوى المرضوض وهو من علوفة أهل الأنصار، والمعنى أن القصيدة بدوية لا حضرية.
(٤) المئناف والأنف: بضمتين الروضة التي لم ترعَ من قبل.
(٥) أوضعت: أسرعت، والعافي: طالب المعروف.

صلات الشريف الرضي
بخلفاء بني العباس

أيها السادة ... إن محاضرة الليلة أشقتني كثيرًا، ولكنَّها سَتَفْصِل في أعظم معضلة سياسية تحدَّث بها من عَرَضوا لترجمة الشريف: وهي تساميه لتبوُّء عرش الخلافة الإسلامية، وأكاد أجزم بأن هذا المطمحَ لم يكن إلا خيال شعراء، ولم يجسِّمه إلا الأدباء الذين يسرهم أن يكون لهم زميل يتطلع إلى المعالي، ويتسامى إلى عرش الرشيد والمأمون؛ ولذلك نرى مؤرخي الأدب يشيرون إلى هذه المسألة فرحين متهللين كأنهم ظفروا بكنز مدفون(١).

والحق أن الظروف التي عاش فيها الشريف كانت سيئة جدًّا، ويكفي أني لا أستطيع اليوم بعد مئات السنين أن أذكر بالتفصيل ما كانت تضطرب به بغداد في ذلك العهد؛ لأن تلك السنين العجاف تركت عقابيل حمَل الناسُ أثقالها من جيل إلى جيل.

وأنتم تعرفون أن أشهر من شجعوا الشريف على طلب الخلافة هو أبو إسحاق الصابي، ومع ذلك كان الصابي يشكو الفقر وسوء الحال، فلا يملك الشريف أن يعينه بشيء؛ لأن الشريف كان أفْقَرَ من الصابي وإنما كان يتجمل ويستُر فقره عن الناس؛ والذي يعيش في مثل تلك الحال لا يفكر جديًّا في قلب النظام السياسي؛ بحيث يصبح هو السيد الذي يسيطر على الأقطار العربية والفارسية.

على أنه لا بأس من تصوير حال الخلافة في ذلك العهد؛ لنعرف متى بدأ الشريف يداعب تلك الأمنية؟ ومتى انصرف عنها انصراف اليائسين؟

عاش الشريف في عهود ثلاثة من الخلفاء هم: المطيع، والطائع، والقادر،

---

(١) قد عرضنا لهذه القضية في الجزء الثاني من هذا الكتاب حين تكلمنا عن صداقته للصابي؛ فارجع إليها هناك لتعرف كيف نشأت فكرة الخلافة في نفس الشريف.

وما يمكن أن نلتفت لأيّامه في عهد المطيع؛ لأنه كان طفلاً لا يُحسَب له حساب.

نتنقل إلى عهد الطائع الذي استمر من سنة ٣٦٣ إلى ٣٨١ وهو عهد كانت فيه الخلافة قوةً وهميَّة؛ لأن الدَّيْلم كانوا هم المسيطرين على العراق، وكان الخليفة صورةً يُجيزون بها الأحكام، إذ كانت الجماهير في أعماق قلوبها تحترم الخلفاء، وكان البُويهيون لا يرون بأسًا من استبقاء تلك الصورة، تجنبًا لعواصف الأهواء.

والتاريخ يشهد بأن الخلفاء في القرن الرابع كانوا قد اطمأنوا إلى الحرمان من السلطة التنفيذية، حتى إمارة الحج لم يكن الخليفة يُصدِر بها مرسومًا إلَّا نص فيه على اسم الملك الذي يحكم ويَسود، فقد كتب الصابي على لسان الخليفة المطيع مرسومًا بإمارة الحج جاءت فيه هذه الكلمات:

(ولما قلَّدك أمير المؤمنين النقابة على الطالبيين؛ فبان له فيها محمود سيرتك، وظهر من أفعالك ما يدل على سلامة سريرتك، رأى أمير المؤمنين أن حق العادة التي عوَّده الله فيها الصلاح، وأجرى له فيها طائر النجاح، أن يزيدك فضلاً وإحسانًا، ولا يألوك إنعامًا وامتنانًا؛ فأنهى معزّ الدولة أبو الحسين - أحسن الله حياطته- أَمْرَ رفاق الحجيج الشاخصة من العراقيين، وإيثار تقليد تسييرها إلى الحرمين، و الاعتماد عليك في حمايتها، وتوليك الحرب والأحداث فيها؛ فوافق رأيُ معز الدولة أبي الحسين -تولى الله كفايته- الصوابَ، ووقع عند أمير المؤمنين موقع القبول والإيجاب).

فالخليفة في هذا المرسوم الديني ينص على اسم الأمير البويهيّ؛ لأنه لم يكن يملك غير ذلك.

وهناك عبارةٌ أصرح من هذه العبارة، وهي منشور كتب على لسان الطائع، جاء فيه: (إن الإمامة لا تصح ولا تسلم إلا برعاية البويهيين).
وقد أخرجتُ من رسائل الصابي شواهد كثيرة تؤيد ما أقول، ولكن لا

موجب لسرد تلك الشواهد، فهذا أمرٌ مفروغٌ منه، ومسلَّمٌ به، والذي اطَّلع منكم على كتاب (تجارب الأمم) يرى أن القرن الرابع لم يكن إلَّا مسرحًا للعراك بين الفُرس والترك، ولم يكن الخلفاء يُذكرون إلَّا من باب الاستطراد، فكأنهم كانوا يعيشون على هامش الحياة.

ولنقل بصراحة: إن الشريف كان حريصًا على الظهور بمظهر الولاء للديلم والأتراك؛ لأنه كان يعرف أن الأمر إما أن يكون لأولئك أو هؤلاء، وقد سافر مرة إلى الكوفة فتحدث ناسٌ أنه عزم على التوجه إلى مصر، فلما رجع إلى بغداد نفى الشبهة بقصيدة مدَح فيها بني بويه وتودد إلى الأتراك، ولا يعلم إلَّا الله ما في تلك القصيدة من عناصر الصدق؛ ولكنها شاهدٌ على ما كان يجب أن يصطنعه الرجل من السياسة وهو يعيش في بغداد في النصف الثاني من القرن الرابع، واسمعوا كيف يقول:

أفي كـل يـوم للمطـامع جـاذبٌ ... يجشِّمني مـا يُعجـز الأسـد الـوَردا[1]

كـأني إذا جادلـتُ دون مطـالبي ... أُجـادل للأيـام ألـسنة لُـدَّا[2]

أحـل عُقـود النائبـات وأنثنـي ... وخَلفي يـدٌ للـدهر تُحكمهـا عَقـدا[3]

إذا ما نَفـذتُ الـسَّدَّ مـن كـل جانـب ... رأيـت أمـامي دون مـا أبتغـي سـدا

أأتـرك أملاكًـا رِزانًـا حُلـومُهم[4] ... حُلـولاً عـلى الـزَّوراء أيمانهـم تنْـدَى

كأنـك تلقـى مـنْهم آجميـة[5] ... مؤلَّلـة الأنيـاب أو قُلَـلاً صُـلدَّا[6]

---

(١) الورد: بفتح الواو من صفات الأسد، وهي صفة لونية، والورد من الخيل ما كان بين الكميت والأشقر.

(٢) لُد: بضم اللام جمع ألد، واللدد بالفتح هو العنف في الخصومة.

(٣) تحكمها: من الإحكام مصدر أحكم وهو شدة الربط.

(٤) الأملاك: الملوك، والرزان: جمع رزين.

(٥) الآجمية: الأسود نسبة إلى الآجام.

(٦) مؤللة: محددة، والقلل: جمع قلة بالضم وهي الصخرة العالية، والصُّلد، بالضم جمع صلداء وهي الصخرة الصلبة الملساء.

ولا يـأنف الجبـارُ أن يعتفـيهمُ[1] ... ولا الحُـرُّ يـأبى أن يكـون لهـم عبـدا
إذا مـا عَـدمنا الجـودَ مـنهم لعلـةٍ ... فـلا نعـدم العليـاءَ مـنهم ولا المجـدا
نُحاسِـنُ أقـمار الـدُّجَى بوجـوههم ... فنبهَرُهـا نـورًا ونغلِبُهـا سـعدا
تخـالُهم غِيـدًا إذا بـذلوا النـدى ... وتحسَبهم جِدًّا إذا ركبـوا الجـردا[2]

إلى أن يقول:

آآل بُوَيْـهٍ مـا نـرى النـاس غـيركم ... ولا نـشتكي للخَلـق لـولاكم فقـدا
نـرى مـنعَكم جـودًا ومَطْلَكـم جـدًا ... وإذلالَكـم عـزًّا وإمـرارَكم شَـهدا
وعـيش الليـالي عنـد غـيركُم ردى ... وبَـرْدَ الأمـاني عنـد غـيركُم وَقْـدا
إذا لم تكونـوا نـازلي الأرض لم نَجِـد ... بها الواديَ الممطور والكـلأ والجعـد[3]
وكنـتُ أرى أني متـى شـئت دونكـم ... وجـدت مجـازًا للمطالـب أو مَعْـدَى
فلم أر لي مـن مَطْلَـع عـن بلادكـم ... ولا من مَرَاح للأمـاني ولا مَغْـدى[4]
خُذوا بزمـامي قـد رجعـت إليكُم ... رجـوعَ نزيـل لا يـرى مـنكم بُـدًّا
أُريـد ذهابًـا عـنكمُ فـيردُني ... إليـكم تجاريـبُ الرجـال ولا حمـدا

ومن الواضح أن سيطرة الفاطميين على مصر لم تكن إيذاءً مباشرًا للمطيع أو الطائع، وإن كانت طعنةً موجّهة إلى من يسيطرون على فارس والعراق، ولهذا نرى لغة المشرق في ذلك العهد لا تسمي الخليفة الفاطمي (صاحب مصر) وإنما تسميه (صاحب المغرب) وهو تعبيرٌ كلّه إيحاء!

ونعود فنقول: إن الشريف أنس كل الأنس بالطائع، فكان يمدحه بصدق

---

(١) يعتفيهم: يطلب جودهم.
(٢) الجرد: جمع أجرد وهو الفرس القصير الشعر.
(٣) الكلأ الجعد: العشب الندي.
(٤) يشير هذا البيت إلى أن الشريف كان يرى آل بويه ملوك العراق والسياسة في ذلك الوقت إذ لم تكن تسمح بأن يراهم دخلاء.

وإخلاص، ومع أن الطائع كان خليفة يستضعفه البويهيون أشد الاستضعاف، فقد رأى فيه الشريفُ رجلًا عربيًّا هو البقية من مجد بني العباس.

وهنا أذكر أن الأستاذ عبد الحسين الحلي أراد أن يشكك في صدق عواطف الشريف وهو يمدح الطائع، وأنا أرى غير ذلك:

أرى أن الشريف كان يفهم جيدًا أنه يخاطبُ خليفة؛ بالرغم من فساد الأحوال، وأرى أن مطامع الشريف في ذلك العهد كانت تقف عند استرداد أملاك أبيه التي صادرها عضد الدولة منذ سنين، فمن الإسراف في حسن الظن بعزيمة الشريف أن يقال: إنه كان يطلب الخلافة في ذلك العهد.

فإن لم يكن بُدٌّ من تمجيد الشريف فيكفي النص على أن عواطفه نحو الطائع كانت خالصة من شوائب الرياء، بخلاف ما أراد الأستاذ عبد الحسين.

ومن الواجب أن ننص على أن مدائح الشريف للطائع لم تبدأ إلا بعد أن اطمأنَّ على خلاص أبيه من الاعتقال، وقرب رجوعه إلى بغداد، أي بعد سنة ٣٧٣، فأقدم قصيدة مدحه بها هي الحائية التي ذمَّ فيها أعداءه، ثم تخلَّص إلى المدح فقال:

تُعلَّلُ بالزُّلال من الغوادي ... ونُتْحَفُ بالنسيم من الرياح
وحاورنا الخليفةَ حيث تسمو ... عرانينُ الرجال إلى الطِّماح
نوجِّه بالثناء له مصونًا ... ونرتع منه في مال مباح
وسيَّالٍ[1] اليدين من العطايا ... مَهيب الجِد مأمونِ المِزاح

---

(١) الواو حرف جر شبيه بالزائد: واو رب، وسيال مبتدأ مجرور لفظًا مرفوع محلًّا، وخبر المبتدأ هو الجملة الشرطية في البيت الثاني، وهي في الظاهر صفة ولكنها في الواقع خبرية؛ لأن الشاعر أراد النص على أن ذلك الكريم لا يصده عن الكرم ملام.

إذا ابتدر الملام نَدَى يديهِ ... مضى طَلْقًا على سنن المراح[1]
أميرَ المؤمنين أزال سيري ... ذرى هذي المُعبَّدة الرزاح[2]
فكم خاض المطيُّ إليك بحرًا ... يموج على الأماعز والضواحي[3]
وكم لك من غرام بالمعالي ... وهم في الأماني وارتياح
وأيام تَشُنُّ بها المنايا ... عوابس يَطَّلعن من النواحي[4]
فلا نَقَلَ المهيمنُ عنك ظِلًّا ... من النعماءِ ليس بمستباح

وفي سنة ٣٧٦ مدح الطائع وشكره على تكرمة خصه بها وثياب ووَرِق، فقال، عدة أبيات:

وإذا أميرُ المؤمنين أضاف لي ... أملي نزلت على الجواد المفضل
بالطائع الميمون أُبجج مطلبي ... وعلوت حتى ما يُطاوَل معقِلي
قَرْمٌ إذا عرت الخطوبُ مِراحَهُ ... أدمى غواربها بناب أعْصَل[5]
متوغل خَلْف العدوِّ وعلمُهُ ... أن الجبان إذا سرى لم يُوغل
وإذا تنافلت الرجال غنيمةً ... قسم التراث لها بحد المنصل
ثَبْتٌ لَهَجْهجَة الخطوب كأنما ... جاءت تُقعقِع بالشَّنان ليذْبل[6]
رأيُ الرشيد وهمة المنصور في ... حُسن الأمين ونعمة المتوكل
آباؤك الغُرُّ الذين انتَمَوْا ... ذهبوا بكل تطاوُل وتطوُّل
دَرَجوا كما دَرَج القرون وعِلمُهم ... أن سوف يخبرُ آخرٌ عن أول

---

(١) المراح: بالكسر هو الاسم من مرح يمرح.
(٢) الرزاح: البعيدة الأطراف.
(٣) الأماعز: جمع أمعز، من المعز بالتحريك وهو الصلابة، فيقال: مكان أمعز وأرض معزاء.
(٤) تشن: تصب، ومنها شن الغارة.
(٥) الأعصل: الناب الأعوج، وفي الديوان (أعضل) بالضاد المعجمة وهو تعريف.
(٦) الهجهجة: الصياح ويذبل اسم جبل.

نَسَبٌ إليك تجاذبت أشياخه ... طِوَلًا من العباس غير مُوَصَّل[1]
هذه الخلافة في يديك زمامُها ... وسواك يخبط قَعْرَ ليل ألْيَل
أحرزتها دون الأنام وإنما ... خلع العَجاجة سابقٌ لم يذهل
طلعت بوجهك غُرة نبوية ... كالشمس تملأ ناظر المتأمل

وهي قصيد طويلة أسلَم فيها الشريف أمره للطائع فقال:

أرجوك للأمر الخطير وإنما ... يرجَى المعظم للعظيم المُعضل
وأروم من غُلَوَاءِ عزك غايةً ... قَعْسَاءَ تستلِبُ النواظر من عَل
كم رامها منك الجبان فراوغت ... شقّاء يلعب شقها بالمسحل[2]
تُدمي قلوبَ الحاسدين وتنثني ... فتردُّ عادية الخطوب النُّزَّلِ
ضاق الزمان فضاق فيه تقلبي ... كالماء يَجمع نفسه في الجدول
هذا الحسين إلى عَلائك ينتمي ... شرفًا وينسب مجده في المحفل

إلى آخر القصيدة، والحسين هنا هو أبوه، لا الحسين بن علي بن أبي طالب، وهذه القصيدة صريحةٌ في أن الشريف كان يؤمن بأن الطائع أسدى إلى أبيه فنونًا من المعروف.

وكانت سنة ٣٧٧ من أعوام الخصب بين الرضيّ والطائع؛ فقد مدحه خمس مرات، منها مرتان في شهر رمضان، الأولى بقدوم الصوم، وهي قصيدة نفض الشريف بها همومه، وشكا بها دهره، إذ يقول:

---

(١) الطول: على وزن عنب وهو الحبل، وقد مر في قصيدة سالفة بمعنى: طاقات الحبل.

(٢) المسحل على وزن منبر: المنحت أو المبرد.

بلَوتُ وجربتُ الأخلَّاءَ مُدَّةً ... فأكثر شيء في الصديق ملالُ[1]
وما راقني ممن أودُّ تملّقٌ ... ولا غرني ممن أُحب وصال
وما صَحبك الأدنَون إلَّا أباعدٌ ... إذا قلَّ مال أو نبتْ بك حال
ومن لي بخل أرتضيه وليت لي ... يمينًا يعاطيها الوفاءَ شِمال
تميل بيَ الدنيا إلى كل شهوةٍ ... وأين من النجم البعيد منال
وتسلبني أيدي النوائب ثروتي ... ولي في عفافي والتقنع مال
إذا عزني ماءٌ وفي القلب غُلةٌ ... رجعت وصبري للغليل بِلال[2]
أرى كل زاد ما خلا سدَّ جُوعةٍ ... تُرابًا وكلُّ الماء عنديَ آلُ
ومثلي لا يأس على ما يفوتُه ... إذا كان عُقبَى ما ينال زوال
كأنا خُلقنا عُرضةً لمنيةٍ ... فنحن إلى داعي المنون عِجال
نَخِفُّ على ظهر الثرى وبطونهُ ... علينا إذا حلَّ الممات ثقال
وما نُوَب الأيام إلا أسِنةٌ ... تَهاوَى إلى أعمارنا ونصال
وأنعمُ منا في الحياة بهائمٌ ... وأثبت منَّا في التراب جبال
أنا المرء لا عِرضي قريبٌ من العدا ... ولا فيَّ للباغي عليَّ مقال
وما العرض إلا خير عضوٍ من الفتى ... يصاب وأقوالُ العداة نِيال
وقور فإن لم يَرْعَ حقيَ جاهل ... سألت عن العوراءِ كيف تقال؟

وهو سيمدح الطائع بعد ذلك مدحًا طيبًا؛ ولكن ما رأيكم في هذه المقدمات؟ إنه يأنس بالطائع كل الأنس؛ فيفضي إليه بذات نفسه ويشكو أمامه قسوة الفقر وخشونة الزمان.

وهو حين يصل إلى مدحه لن يقول: أعطني مالًا، وإنما سيقول: أعطني منصبًا.

---

(١) أكثر أبيات هذه القصيدة يجري مجرى الأمثال.
(٢) الغُلة: بالضم الظمأ الشديد. والبِلال: بالكسر هو الري.

أزِلْ طمع الأعداءِ عنّي بفتكةٍ ... فلا سَلْمَ إلا أن يطول قتال
فإن نفوس الناكثين مباحةٌ ... وإن دماءَ الغادرين حلال
وشَمِّر فما للسيف غيرك ناصر ... ولا للعوالي إن قعدت مَصال[1]
ومن لي بيوم شاحب عَجاجه ... أَنال بأطراف القنا وأُنال[2]
أرِدني مرادًا يقعد الناس دونهُ ... ويغبطني عمٌّ عليه وخال
ولا تسمعنَّ من حاسد ما يقولهُ ... فأكثر أقوال العداة محال[3]

إلى آخر القصيدة، وفي الشهر نفسه هنّأه بالمهرجان؛ فمدحه ومدح أصوله من بني العباس:

يلقَى الخطوب ووجههُ طَلْقٌ ... ويخوضهن وقلبه جَذِلُ
تُخفي بشاشتُه حميَّاهُ ... كالسم موَّه طعمَهُ العسل
من معشر كانت سيوفهمُ ... حَلْيًا لمن ضربوا ومن عطلوا
بالفخر يكسُون الذي سلَبوا ... والذكر يحيُون الذي قتلوا[4]
أنت الجوادُ إذا غلا أملٌ ... والمستجار إذا طغى وَجَلُ

وفي هذه القصيدة يصرح بأنه ورث محبة الطائع عن أبيه إذ يقول:

إن المجرَّد في هواك فتىً ... لا اللومُ يردعه ولا العَذَلُ
مثل الحسين فبينَ أضلعهِ ... قلبٌ بغيرك ما له شُغُل

وبعد أيام هنّأه بعيد الفطر تهنئة شاعر يعرف أنه يخاطب خليفة، وهي قصيدة تجمع بين العذوبة والجزالة، وقد عرَّض فيها بخصوم الطائع أعنف تعريض، والذي يهمنا هو الشاهد الآتي:

أُعيذُ مجدك أن أَبْقى على طمع ... وأن تكون عطاياىَ المواعيدُ

---

(١) المصال: بفتح الميم و هو مصدر من صال يصول.
(٢) أنال وأُنال. الأول بالبناء للفاعل والثاني بالبناء للمفعول.
(٣) المحال: بالكسر هو الكذب والدهاء.
(٤) هذا البيت غاية في المدح.

وأن أعيش بعيدًا من لقائكمُ ... طمآن قلب وذاك الوردُ مورود
ما لي أُحب حبيبًا لا أُشاهدهُ ... ولا رجايَ إلى لقياه ممدود
وأُتعب القلب فيمن لا وصال له ... يا لَلرجل أقلَّ الخُرَّد الغيد![1]
أكثرت شعري ولم أظفر بحاجته ... فسقِّني قبل أن تفنى الأغاريد

وبعد شهر عزَّاه في عمر بن إسحاق بن المقتدر، وكان آخر ولد بقي من ظهر ذلك الخليفة، وهي قصيدة تكثر فيها الحكم والأمثال.

نؤمِّل أن نروَى من العيش والردى ... شَربٌ لأعمار الرجال أكول
وهيهات ما يغني العزيزَ تعَزُّزٌ ... فيبقى ولا يُنجي الذليل خمول
نقول مَقيلٌ في الكرى لجنوبنا ... وهل غير أَحشاء القبور مَقيل
دع الفكر في حب البقاء وطوله ... فَهمُّك لا العمر القصير يطول
ولا تَرجُ أن تُعطى من العيش كثرةً ... فكل مُقام في الزمان قليل
ومن نظر الدنيا بعين حقيقةٍ ... دَرَى أن ظلًّا لم يَزل سيزول
تُشيَّعُ أظعانٌ إلى غير رَجعةٍ ... وتُبكى ديارٌ بعدهم وطلول
إذا لم يكن عقلُ الفتى عونَ صبرِه ... فليس إلى حسن العزاء سبيل
وإن جهلَ الأقدارَ والدهرَ عاقلٌ ... فأضيعُ شيء في الرجال عقول
ومن مات لم يَعلم وقد عانقَ الثرى ... بكاه خليلٌ أم سلاه خليل

وهذا البيت يشهد بأن الشريف الرضي كان يرتاب فيما يعرف الأمواتُ من أحوال الأحياء.

وفي العام نفسه عاتبه بقصيدة قوية طاب فيها التشبيب وطاب فيها العتاب وأي تشبيب أعنف من هذه الأنفاس الحِرار؟!

---

(١) الخرد: جمع خرود وخريدة، وهي البكر لم تمس أو الخفرة الطويلة السكوت الخافضة الصوت، والغيد: جمع غيداء وهي المتثنية ليِّنًا أو هي الطويلة العنق.

خليليَ هل تثنى من الوجد عبرةٌ ... وهل ترجع الأيام ما كان ماضيًا
إذا شئت أن تسلى الحبيب فخلّه ... وراءك أيامًا وجُرَّ الليالي
أعفُّ وفي قلبي من الوجد لوعةٌ ... وليس عفيفًا تاركُ الحب ساليا
إذا عطفتني للحبيب عواطفٌ ... أبيتُ وفات الذلّ من كان آبيا
وغيريَ يستشي الرياح صبابةً ... وينشي على طول الغرام القوافيا
وألقى من الأحباب ما لو لقيتهُ ... من الناس سلّطت الظُّبا والعواليا
فلا تحسبوا أني رضيت بذلةٍ ... ولكنَّ حبًّا غادر القلب راضيًا
رعى الله من ودعته يوم دابق[1] ... وولّيتُ أنهى الدمع ما كان جاريا
وأكتمُ أنفاسي إذا ذكرتهُ ... وما كل ما تخفيه يا قلب خافيا
فعندي زفيرٌ ما ترقى من الحشا ... وعندي دموع ما طلعنَ الأماقيا
مضى ما مضى ممن كرهتُ فراقَهُ ... وقد قلَّ عنديَ الدمعُ إن كنت باكيا
ولا خير في الدنيا إذا كنت حاضرًا ... وكان الذي يُغرَى به القلب نائيا

ولما وصل إلى عتاب الطائع مدحه أجزل المدح ثم قال:

إلى كم أُمَنِّي النفس يومًا وليلةً ... وتُعْلِمني الأيام أن لا تلاقيا!!
وكم أنا موقوف على كل زفرة ... عليل جوًى لو أن ناسًا دوائيا؟
أيسنَحُ لي روضًا وأُصبح عازبًا[2] ... ويَعرِض لي ماءً وأصبح صاديا

---

(١) دابق: قرية في حلب، وردت مرات في كلام الشعراء، من ذلك قول عيسى بن سعدان:

ناجوك من أقصى الحجاز وليتهم ... ناجوك ما بين الأحص ودابق
أمفارقي حلب وطيب نسيمها ... يهنيكم أن الرقاد مفارقي
والله ما خفق النسيم بأرضكم ... إلا طربت من النسيم الخافق
وإذا الجنوب تخطرت أنفاسها ... من سفح جوشن كنت أول ناشق

(٢) العازب: البعيد عن المرعى.

وما أنا -إلا أن أراك- بقانع ... وإن كنت جرارًا إليّ الأعاديا
تركت إليك الناس طرًّا وكلّهم ... يتوق إلى قربي ويهوى مقاميا
عليك سلام الله إنّي لفازعٌ ... إليك وإن لم أعطَ منك مراديا

وأنتم ترون أنه يمنّ على الخليفة بمدحه منًّا صريحًا، ويقول: إنه يترك في سبيله أقوامًا كرام الأكف، وسنرى فيما بعدُ من هم أولئك الأقوام، ولكن لا بأس من التصريح بأن الرضيّ كان يحب أن يستأثر بمودة الطائع فلا يرى في حضرته أحدًا من خصومه الألداء، ومن شواهد ذلك أنه عرف أن بعض خصومه ظفر بمودة الطائع، فأرسل إليه يعاتبه عتاب الأنداد فيقول:

ونُمي إليّ من العجائب أنه ... لعبتْ بعقلك حيلة الخوّانِ
وتملكتك خديعةٌ من قولةٍ ... غرّارةِ الأقسام والأيمان
حقًّا سمِعت ورُبَّ عينيْ ناظرٍ ... يَقِظٍ تقوم مقامها الأذنان
أين الذي أضمرته من بغضهِ ... وعقدته بالسر والإعلان؟
أم أين ذاك الرأي في إبعادِه ... حَنَقًا وأين حمية الغضبان؟
سبحان خالق كل لون معجبٍ ... ما فيكُم من كثرة الألوان!!
يومٌ لذا، وعدٌّ لذاك، وهذه ... شيمٌ مقطّعة قوى الأقران
فالآن منك اليأس ينقع غلتي ... واليأس يَنقع غُلة الظمآن
فاذهب كم ذهب الغمامُ رجوته ... فطوى البروق وضنَّ بالتّهتان
لي مثل مُلكك لو أطعت تقنُّعي ... وذوو العمائم من ذوي التيجان
ولعل حالي أن يصير إلى عُلا ... فالدوح مَنبتها من القضبان
فاحذر عواقب ما جنيتَ وغيرُه ... رمت الجناية عرض قلب الجاني
أعطيتك الرأي الصريح وغبره ... تنساب رغوته بغير بيان
وعرضتُ نصحي والقبولُ إجازةٌ ... فإذا أبيتَ لويتُ عنك عناني

وأنتم ترون أن هذه جرأةٌ لو صدرت في عهد خليفة مثلا الرشيد لأطاح

رأس الشاعر بلا تردد، ولكن الرضيّ كان يثق بأن الطائع يعطف عليه، وكان يثق بأن الطائع لا يملك الأمر كله في بغداد.

وفي سنة ٣٧٨ مدح الطائع بقصيدة تفيض بالوداد، إذ يقول:

يا جميلًا جمالُهُ ملْء عيني ... وعظيمًا إعظامه ملءُ قلبي
بك أبصرتُ كيف يصفو غديري ... من صُروف القذى ويأسن سِربي[1]
أنت أفسدتني على كل مأمو ... لٍ وأعديتني على كلِّ خطب
فإذا ما أرد قربي مليكٌ ... قلتُ قربي من الخليفة حسبي
عزَّ شعري إلا عليك وما زا ... ل عزيزًا يأبى على كل خطب
أنت ألبستني العلا فأطِلها ... أحسنُ اللبس ما يجلل عَقبي[2]
إنني عائذٌ بنُعماك أن أكـ ... ـثر قولي وأن أُطوِّل عَتبي
نظرةٌ منك ترسل الماء في عُو ... دي وتُمْطى[3] ظلي وتبنت تُرْبي
ما ترجيت غير جودك جودًا ... أبرجَّى القطار من غير سُحب
لا تَدَعني بين المطامع واليأس ... ووردي[4] ما بين مُر وعَذب

وفي سنة ٣٧٩ مدحه وعاتبه على تأخير الإذن له في لقائه بمجلس خاص، وذلك في قصيدة طويلة نشير إليها بالمطلع:

ضربن إلينا خدودًا وساما[5] ... وقلن لنا اليوم موتوا كرامًا

---

(١) السرب بالكسر: هو القطيع من الظباء والنساء، وهو أيضًا الطريق والبال والنفس والقلب.

(٢) العقب: على وزن كتف هو مؤخر القدم، وسكنت القاف للوزن، ويجلله: يغطيه.

(٣) تمطى: تطيل.

(٤) الورد: بالكسر الماء المورود

(٥) وسام: جمع وسيم والوسامة هي الجمال.

وفي سنة ٣٨٠ مدحه بعدة قصائد أهمها القصيدة النونية:

الآنَ أعربـــــت الظنـــــونُ وعـــلا عـــلى الـــشك اليقـــينُ

وإنما كانت أهم قصائده في تلك السنة أفضل ما نظمت من أجله فقد كان الطائع تأثر من قصيدة قال فيها الشريف:

مَتـــى أنـــا قـــائم أعـــلا مقـــام ولاق نـــور وجهـــك بالـــسلام
ومنـــصرفٌ وقـــد أثقلـــتَ عِطفـــي مـــن الـــنَّعماء والمـــنن الجـــسام
ولي أمـــلٌ أطلـــت الـــصبر فيـــهِ لـــو أن الـــصبر يَنفـــع مـــن أُوامـــي[1]
ومـــا خِفـــت النوائـــب ترتمـــي بي وقـــد أقعَـــى بجامحهـــا لجـــامي
أيعرفنـــي الطـــوى والـــروض حـــالٍ ويغلبنـــي الظـــما والبحـــر طـــام[2]
ولي قُربَـــى رءومٌ كنـــت أرجـــو يمنيـــك أن تقـــرِّب لي مرامـــي
وبـــاب الإذن منـــي كـــلَّ يـــوم يقعقـــع بـــالقوافي والنظـــام
لكـــم أرجـــاءُ زمـــزم والمـــصلَّى وبطحـــاءُ المـــشاعر والمقـــام
وأنـــتم أطـــولُ العظـــماء طَـــولًا وأنـــد في المحـــول مـــن الغـــمام
وأبعـــد موطنًـــا مـــن كـــل عـــارٍ وأمنـــع جانبًـــا مـــن كـــل ذام
وأجـــرى عنـــد مختَلـــف العـــوالي وأفلـــجُ عنـــد معـــتَرك الخـــصام[3]
بآبـــاء مـــضوا وهـــم عـــوارٍ مـــن القـــول المهجَّـــن والمـــلام
وأُمّـــات[4] دَرَجْـــنَ عـــلى الليـــالي وهـــن أصـــحُّ مـــن بَـــيض النَّعـــام

إلى أن يقول:

---

(١) الأُوام: بالضم الظمأ الشديد.
(٢) الطوى: هو الجوع، ويعرقه: يذهب لحمه.
(٣) أفلج: صفة من الفلج بالتحريك وهو النصر.
(٤) أمّات: لغة في أمهات.

ألان[1] جـذبتَ مـن أيـدي الليـالي عنـاني واشـتملتَ عـلى زمـامي
فـما أخـشى الزمـان ولـو تلاقـتْ يـداه مـن ورائـي أو أمـامي

أقول: إن الطائع رقَّ لهذه القصيدة؛ فأمر بأن يسير الشريف إلى داره في يوم الخميس لعشر بقين من رمضان، وجلس له جلوسًا خاصًّا، وكانت خِلَع السواد قد أُعدت له فجُلِبت عليه، وزاد الخليفة في إكرامه؛ فلم يخرج إلا وهو مثقل بالهدايا الفاخرات، وقد ظهر أثر ذلك في النونية إذ يقول:

أتـــرى أمـــين الله إلا مـــن لـــه البلـــد الأمـــينُ
لله دَرُّك حيـــث لا تـــسطو الـــشِّمال ولا اليمـــين
والأمـــر أمـــرك لأمـــمٌ يـــوحي ولا قـــولٌ يبـــين
لمـــا رأيتـــك في مقـــا م يـــستطار بـــه الـــركين[2]
ورأيـــت ليـــث الغـــاب معتـــ ـــرضًا لـــه الـــدنيا عَـــرين
أقـــدمت إقـــدام الـــذي يـــدنو وشـــافعهُ مَكـــين
فلـــذاك مـــا ارتعـــد الجنـــا نُ حَيًّـــا ولا عـــرق الجبـــين
وســـمت بفـــضلك غُـــرةٌ تغـــضي لهيبتهـــا الجفـــون
وامتـــدَّ مـــن نـــور النبـــيِّ عليـــك عُنـــوانٌ مُبـــين
وجمـــالُ وجهـــك لي بنَيـــ ـــل جميـــع مـــا أرجـــو ضـــمين
فأُفيـــضت الخِلَـــع الـــسوا دُعـــليّ ترشُـــفها العيـــون
شرفٌ خُصِـــصت بـــه وقـــد دَرَجـــتْ بغُـــصته القـــرون
وخرجـــتُ أســـحبها ولي فـــوق العـــلا والـــنجم دون
جَـــذِلاً وللحـــسان مـــن أســـفٍ زفـــيرٌ أو أنـــين

أيها السادة ... إلى هنا رأيت صِلات الشريف بالطائع، رأيتم شاعرًا يَمدح

---

(١) مخففة من (الآن).
(٢) الركين: القوي القلب.

وخليفة يُثيب، فهل يدوم هذا النعيم؟

أخشى أن تكون مدائح الرضي بابًا يدخل منه الشر إلى قصر الطائع: فقد أطال في وصفه بالشجاعة والجرأة والبطولة، وأطال في وصف جوائزه وعطاياه، وكان هناك قومٌ لا يرضيهم أن يكون للخلفاء جاهٌ أو مال.

وكذلك تطوع بعض الدساسين وأفهم بهاءَ الدولة أن قصر الخليفة مملوءٌ بالذخائر العظيمة، وزين له القبض عليه، فانخدع بهاء الدولة وتوهم أنه سيظفر بكنوز الأرض حين يقبض علي الطائع، فأرسل إليه يسأله الإذن بالحضور في خدمته؛ ليجدد العهد؛ فأذن له في ذلك، وجلس له كما جرت العادة، فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير، ولما دخل قبَّل الأرض بين يدي الخليفة وأُجلس على كرسي، ودخل بعض الديلم كأنه يريد أن يقبِّل يد الخليفة؛ فجذب الطائع بحمائل سيفه وأنزله عن سريره والخليفة يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي لحظات معدودات أخذ ما في دار الخليفة من الذخائر، ونهب الناس بعضُهم بعضًا، وكاد حبل الأمن ينقطع في بغداد.

وكان الشريف الرضي في مجلس الخليفة في تلك الساعة السوداء، فلم يدفع عنه بيد ولا بلسان، وإنما لاذ بالفرار؛ ليسلم من عدوان الباغين:

وقد كان موقفه في هذه الحادثة الشنعاء شبيهًا بموقف البحتري حين قُتل المتوكل؛ ولكن البحتري كان أشجع وأوفى، فقد دافع عن المتوكل بيديه، ثم رثاه بعد ذلك أشرف رثاء، أما الرضي فترك صاحبه لأيدي الغادرين، وكان يملك الدفاع عنه لو شاء، ثم سجل الحادث بقصيدة أطال فيها الغزل والتشبيب، كأن تلك الفاجعة لم تُنسه ثورة الوجد ولوعة الحنين، ولما وصل إلى صميم الموضوع وصف نفسه بالحزم فقال:

إذا ظننا وقدَّرنا جرى قَدَرٌ ... بنازلٍ غير موهوم ومظنونِ

اعجبْ لُمسكة نفس بعد ما رُميت ... من النوائب بالأبكار والعُون
ومن نجائيَ يوم الدار حين هوى ... غير ولم أَخلُ من حزم ينجّيني
مَرَقتُ منها مُرُوق النجم منكدرًا ... وقد تلاقت مصاريع الردى دوني
وكنت أول طلاّع ثنيتها ... ومن وَرائيَ شرٌّ غير مأمون
من بعد ما كان ربُّ الملك مبتسمًا ... إليّ أدنوه في النجوى ويدنيني
أمسيت أرحمُ من أصبحت أغبطهُ ... لقد تقاربَ بين العز والهُون
ومنظَرٍ كان بالسراء يُضحكني ... يا قُرب ما عاد بالضراء يبكيني
هيهات أغترُّ بالسلطان ثانيةً ... قد ضلَّ ولّاج أبواب السلاطين

ولعلكم أيها السادة في غنى عمن يحدثكم أن بهاء الدولة أظهر أمر الخليفة القادر بالله ونادى بشعاره في أسواق بغداد، وكتب إلى الطائع كتابًا بالخلع وتسليم الأمر إلى القادر، شهَّد فيه الشهود عليه، والمُلك لله الواحد القهار.

ولكن ألا ترون من الظلم أن يقال: إن موقف الشريف شبيهٌ بموقف البحتري، وإن الشريف كان يجب عليه أن يدافع عن الطائع كما دافع البحتري عن المتوكل؟

إن الشبه بين الحادثتين لا يتمُّ إلا من الوجهة الشكلية، أما من حيث الجوهر فهو مفقود؛ لأن شخصية المتوكل غير شخصية الطائع، فقد استطاع بلباقته وبراعته أن يُقنع العالم الإسلامي بأن الخلافة باقية، وأنها لا تزال تملك مصاير الأمور، فترفع من ترفع، وتخفض من تخفض، وكذلك كان الفتك به في مجلس شراب جريمة يثور عليها أضعف الجبناء.

أما الطائع فتولى الخلافة وهي كالقلب المنخوب لا تثبت أمام عاصفة ولا يُحسَب لها يوم الروع حساب، ومن المؤكد أن الشريف لم يرَ فيما صنع بهاء الدولة مع الطائع شيئًا جديدًا، فتلك الصورة المنكرة كانت لها سوابق في غاية من البشاعة والقبح، فقد صيغت على نموذج الحادث الفظيع الذي وقع

للمستكفي بالله يوم دخل عِز الدولة ومعه أتباعه، والمستكفي على سرير الخلافة، فقبَّلوا الأرض بين يديه، ثم تقدم اثنان كأنهما يريدان تقبيل يده فمدها إليهما وهو متلطِّف مترفِّق فجذباه وطرحاه إلى الأرض، ووضعا عمامته في عنقه ثم جراه مهينًا ذليلًا؛ ليُعْتَقَل في دار عز الدولة.

ومن هذا التماثل التام بين ما وقع للمستكفي بالله وما وقع للطائع ترون أن الشريف الرضي كان يتوقع هذه الحوادث، وترون أنه كان يعرف ما يصنع في مثل هذه المواقف ولست أستبعد أن يكون الشريف وطَّن نفسه على إيثار السلامة إن وقع مثل هذا الحادث؛ لأنَّ الظروف لم تكن تسمح أبدًا بتأليف جيش يحارب الديلم ويناصر بني العباس.

والقصيدة التي أشرنا إليها منذ لحظات تشهد بذلك، فهي قصيدة رجل يكرثه التضجر والتألم ولا يهتاج للقتال؛ لأنه كان يعرف أن القتال لا يُطلب منه في مثل تلك الحال.

أضيفوا إلى ذلك أنه كان جرَّب الحوادث وجربته الحوادث؛ فكان يذكر بالتأكيد أن عضد الدولة اعتقل أباه وصادر أملاكه، ثم نفاه، ومع ذلك لم تسقط السماء على الأرض، ولم يُمتَشَق في سبيله سيف، ولم يُبذَل في الدفاع عنه غير قطرات من الدمع، وما أضيَع من لا يحامي عنه أنصاره بغير الدمع!

لست من القائلين بأن الشريف لم يكن يهمه أمر الطائع؛ فذهني لا يسيغ هذا النوع من الدفاع عن الشريف؛ لأني أعتقد أن الشريف كان صادقًا كل الصدق في مودة الطائع، ولعله أصدق عَلوي مدح العباسيين وأطال عليهم الثناء.

إن الأستاذ عبد الحسين الحلي نظر إلى الشريف من وجهة مذهبية حين حكم بأنه كان يداري الطائع، أما أنا فأنظر إلى الشريف من وجهة إنسانية، وأعتقد أن الشريف لم يكن مُداجيًا ولا مُرائيًا ولا وصوليًّا في مودته للطائع،

وإنما كان يراه بقية من بقايا بني العباس الذين أذاعوا معاني العظمة في الأمم الإسلامية زمنًا غير قليل، وكان يتمنى لو يعتدل الميزان فتصبح الخلافة قوة فعلية ترتفع بها العروبة وتنهار أمامها الشعوبية.

ولستُ بهذا القول أُعطي الشريف ما لم يكن له بأهل، لا، فليس من همي أن أمنح الشريف ما لا يملك، وإنما أقول هذا القول؛ فرارًا من ظلم الشريف فإن شعره يشهد بأن توجع لنكبة الطائع، ويشهد بأنه تألَّم لنكوله عن الدفاع عنه في ذلك اليوم المشئوم.

وشاهد ذلك أيها السادة أن الشريف لم يكتفِ بالقصيدة التي صوَّر بها ما وقع في ذلك اليوم، وإنما آذاه وأرمضه أن يرى الطائع مخلوعًا يعيش على هامش الحياة بعد أن كان بالأمس خليفة يُبرم ويَنقض، ويُعطي ويمنع، وكذلك رأيناه يقول:

إن كان ذاك الطَّود خرَّ ... فبعد ما استعلى طويلا[1]
موفٍ على القُلَل الذواهب ... في العُلا عَرضًا وطُولا[2]
قَرْمٌ يسدِّد لَحظهُ ... فترى القُروم له مُثُولا[3]
ويُرَى عزيزًا حيث حلّ ... ولا يُرَى إلا ذليل[4]
كالليث إلا أنه اتخذ ... العُلا والمجد غِيلا
وعَلَا على الأقران لا ... مِثلًا يعدُّ ولَا عديلا[5]
من معشر ركبوا العلا ... وأبوا عن الكرم النزولا

---

(١) الطود: الجبل، وخر: سقط.
(٢) القلل: جمع قلة بالضم وهي القمة.
(٣) القرم: بالفتح الفحل.
(٤) يرى الأولى بالبناء للمفعول وكذلك الثانية، والمعنى: أنه على عظمته متواضع.
(٥) المعنى أنه علا على أمثاله فلا شبيه ولا مثيل.

كَرمُوا فُروعًا بعد ما ... طابوا وقد عُجِموا أُصولًا[1]

نسبٌ غدَا رُوَّادهُ ... يستنجبون لنا الفحولا

يا ناظر الدين الذي ... رجع الزمانُ به كليلا

يا صارم المجد الذي ... مُلِئتْ مضاربه فُلولا

يا كوكب الأحساب أعجـ ... ـلك الدُّجا عنا أُفولا

يا غارب النِّعم العظام ... غدوت معمودًا جزيلا[2]

يا مُصعَبَ العلياء قا ... دتك العلا نِقضًا ذَلولا[3]

لهفي على ماضٍ قَضى ... أن لا ترى منهُ بديلا

وزوال ملكٍ لم يكن ... يومًا يقدّرُ أن يزولا

ومنازلٍ سَطَر الزما ... نُ على معالمها الحُئولا[4]

من بعد ما كانت عـ ... ـلى الأيام مرْباةً زَلُولا[5]

والأُسد ترتكز القنا ... فيها وترتبط الخيولا

من يُسبغ النعم الجسا ... مَ ويصطفي المجد الجزيلا

من ينتج الآمال يو ... مَ تعود بالليّان حُولا[6]

من يورد السُّمر الطوا ... ل ويُطعم البيض النصولا

من يزجر الدهر الغشو ... م ويكشف الخطب الجليلا

وتراه يمنع دوننا ... وادي النوائب أن يسيلا[7]

---

(١) العجم هو الاختبار، والأصل فيه أن يعض الرجل القناة؛ ليعرف صلاحيتها لعمل الرماح.

(٢) الغارب: هو الكاهل، والمعمود: المجروح، والجزيل: هو البعير الذي يقطع القتب غاربه.

(٣) المصعب: الفحل، والنقض: بالكسر المهزول، والذلول: الطَّيِّع.

(٤) المرباة: المكان المرتفع، والذلول: الذي يذل ويسقط من يعلوها.

(٥) حُول: جمع حائل وهي الناقة لم تلقح

(٦) في هذا البيت خيال طريف.

عقّـــاد ألويـــة الملـــو ... ك عـلى العـلا جـيلا فجـيلا
هـذا وكـم حـرب تبـزُّ الأسـ ... ـد سـطوتها الغلـيلا!!
صـــمّاء تخـــرس آلهـــا ... إلا قِراعًـــا أو صـــهيلا
والخيـل عابسـةٌ تجـرُّ ... مـن العَجـاج بهـا ذيـولا
اجتـابَ عارضـها وقـد ... رحـل المنـون بـه هـمـولا
كالثـائر الضرغام وإن ... لـبس الـوغى دقّ الـرَّعيلا
صـانعتُ يـوم فراقـهِ ... قلبًـا قـد اعتنـق الغلـيلا
ظعـن الغنـى عنـي وحـوَّ ... ل رحلـه إلا قلـيلا
إن عـاد يومًـا عـاد و ... جـه الـدهر مقتـبلًا جمـيلا
ولـئن مـضى طـوع المنـو ... ن مؤثّمًـا تلـك السبيلا
فلقـد تخلـف مجـدهُ ... عبئًـا عـلى الـدنيا ثقـيلاً
واسـتذرت الأيـام مـن ... نفحاتـه ظـلًّا ظليلا

وإنما نقلنا هذه القصيدة على طولها؛ لتروا كيف كان وفاء الشريف، فمثل هذه القصيدة لا ينظمها رجل متظرف ولا متكلِّف، وإنما ينظمها رجل محزون وقد عالجنا الشعر سنين فرأيناه لا يُسلِّم زمامه لغير الأوفياء، والشريف في هذه القصيدة وفيٌّ أمين.

وأرجو أن تتذكروا أن هذه القصيدة نُظمت في شعبان من سنة ٣٨١ أي في خلال الأيام العصيبة التي اقترف فيها بهاء الدولة ما اقترف، فهي من أظهر الشواهد على جسارة الشريف.

وفي سنة ٣٩٣ مات الطائع بعد أن عاش مخلوعًا أكثر من عشر سنين وهو في رعاية القادر، وهي رعاية وقعت فيها أعاجيب أشارت إلى بعضها كتب التاريخ، فهل تغافلَ عنه الشريف؟ هيهات، فقد رثاه بقصيدتين هما شاهدٌ على ما كان يملك من الشرف والنبل، وفي الأولى يقول:

إن للطـــائع عنـــدي مِنَّـــةً ... وحِمًـــى قـــد بلّهـــا لي بـــبلالي
لـــيس يُنـــسيها وإن طـــال المـــدى ... مَـــرُّ أيـــام عليهـــا وليـــالي
فـــاتني منـــك انتـــصارٌ بيمينـــي ... فتلافيـــت انتـــصارًا بمقـــالي

وهذه الأبيات تشهد بأن الشريف كان يتألم؛ لنكوله عن نصرة الطائع يوم الدار، يوم هجم عليه بهاء الدولة وأنصاره المجرمون.

وتلك قصيدة طويلة يراها القارئ في الديوان، أما القصيدة الثانية فمطلعها.

ما بَعـدَ يومـك مـا يـسلوُ بـه الـسالي ... ومثـلُ يومـك لم يخطـر عـلى بـالي

والمهم أن نسجل أن الشريف ظلَّ يتوجع لنكبة الطائع مدة طويلة، فرثاه بعد ذلك خِفيةً بقصيدة نتخير منها هذه الأبيات:

ومـــؤمَّر نزلـــوا بـــه في سُـــوقةٍ ... لا شـــكلُه فـــيهم ولا قرنـــاؤهُ
قـــد كـــان يفـــرق ظلـــه أقرانـــه ... ويعـــضُّ دون جلالـــه أكفـــاؤه
ومحجـــب ضُربـــت عليـــه مهابـــةٌ ... يعـــشى[1] العيـــون بهـــاؤه وضـــياؤه
نادتـــه مـــن خلـــف الحجـــاب منيـــةٌ ... أمَـــمٌ فكـــان جوابَهـــا حوبـــاؤه[2]
شـــقت إليـــه ســـيوفه ورماحـــهُ ... وأُمـــيط عنـــه عَبيـــده وإمـــاؤه
لم يُغنـــهِ مـــن كـــان ودَّ لـــو انـــه ... قبـــل المنـــون مـــن المنـــون فـــداؤُهُ
حَـــرَمٌ عليـــه الـــذل إلا أنـــهُ ... أبـــدًا ليـــشهد بـــالجلال بنـــاؤه
أقنَـــى الحيـــاءَ تجمُّـــلًا لـــو أنـــه ... يبقـــى مـــع الـــدمع اللجـــوج حيـــاؤه
فاذهـــب فـــلا بقـــيَ الزمـــان وقـــد هـــوى ... بـــك صَرفـــهُ وقـــضى عليـــه قـــضاؤه

ومن كل ما سلف ترون أن الشريف لم يكن مرائيًا في حب الطائع وأنه ندم

---

(١) في الديوان: (يغشى) بالغين المعجمة وهو تحريف.
(٢) أمم بالتحريك: قريب، والحوباء: بقية النفس.

على أنه لم يدفع عنه بيمينه، وأنه ظل وفيًّا له بعد الخلع وبعد الممات. والظاهر أن الطائع كان أحسن إلى الشريف وإلى أبيه، والإحسانُ يحفظه كرام الرجال وكان الشريف من الأكرمين.

قد تسألون: وماذا صنع الشريف بعد خَلْع الطائع؟

ونجيب بأنه صنع ما يصنع السياسيون، وهل للسياسيين قلوب؟

لقد استقبل الخليفة الجديد بقصيدة شهد فيها أنه جدَّد شرف الخلافة العباسية، وجعله موطِّدًا للبناء الذي وضع قواعده أبو العباس السفاح، واستباح لنفسه أن يخاطب القادر فيقول:

مجـدٌ، أميـرَ المـؤمنين، أعدتَـهُ ... غـضًّا كَنـور المُـورِق الميَّـاسِ
بعثـتَ في قلـب الخلافـة فرحـةً ... دخلـتْ عـلى الخلفـاء في الأرمـاسِ
ومكيـدةٍ أشـلَى عليـك نيوبهـا ... غـضبانُ للقربـى القريبـة نـاسِ
فَغَـرتْ إليـك فُفُتَّهـا وتراجعـت ... ففَرتْـه بالأنيـاب والأضراسِ

ثم مدحه بقصيدة (لمن الخُدوج تهزهن الأينقُ).

وهي القصيدة التي ختمها بقوله:

عطفًـا أميـر المـؤمنين فإننـا ... في دوحـة العليـاء لا نتفـرَّقُ
مـا بيننـا يـوم الفخـار تفـاوتٌ ... أبـدًا كلانـا في المعـالي مُعـرِق
إلا الخلافـة ميزتـك فـإنني ... أنـا عاطـلٌ وأنـت مطـوَّق

فقال له القادر: على رغم أنف الشريف!

وكانت هذه العبارة فيما يظهر أصل الفُرقة بين الرجلين؛ فانصرف الشريف عن مدح القادر وأسقطه من حسابه، ثم مضى يمدح الوزراء والملوك ولذلك حديث طويل يضيق عنه الوقت في هذا المساء.

صلات الشريف الرضي
بالوزراء والأمراء والملوك

أيها السادة ... حدثناكم عن صِلات الشريف بالخلفاء، وفي هذه الليلة نحدثكم عن صلاته بالوزراء والأمراء والملوك. وكنت أستطيع إغفال هذا البحث، أو الاكتفاء بكلمتين موجزتين تفصحان عن جوهر تلك الصلات؛ ولكني راعيت الأدب معكم فآثرت الاستقصاء.

والواقع أن مدائح الشريف ليست كسائر المدائح؛ لأنه لم يكن يتكسَّب بشعره على نحو ما كان يفعل بعض الشعراء الذين يَفِدون من بلاد بعيدة؛ ليبيعوا أشعارهم في بغداد، وإنما كانت مدائحه شاهدًا على اشتباكه في المعارك السياسية التي كانت تثور في فارس وفي العراق، فالشريف الرضي شاعرٌ سياسيٌّ، أعني أن أشعاره كانت وسيلة إلى أغراضه السياسية، أو هي عنوان على متابعته لتقلب الأحوال السياسية، فهو شاعر (متحرك) كما يعبرٌ أهل بغداد في هذه الأيام.

ويجب النص أيضًا على أن ممدوحيه لم يكونوا من الأغبياءِ، فأكثرهم كان يتذوَّق البلاغة العربية، وأكثرهم كانوا من الفتيان البهاليل الذين يهيمون بكرائم المعاني، فليس من المستبعد أن يكون الشريف أنِس بأرواحهم وأذواقهم، فطاب له أن يخصهم بالقصائد الجياد.

والمهم عندي أن تعرفوا أن حرص الشريف على الاتصال بالوزراء والملوك لم يكن حرصًا على منفعة رخيصة تُقوَّم بالدراهم والدنانير، وإنما كان حرصًا على منفعة عالية، هي أن يكون رجلًا له شأن في تصريف المعضلات السياسية، وقد تمَّ له من ذلك بعض ما أراد، فاستطاع أن يكوِّن صلة الوصل بين الحجاز والعراق وبين فارس والعراق، وبين الشام والعراق.

وإليكم أسوق بعض الأمثال:

كانت إمارة الحج إلى أبي أحمد الموسوي ثم إلى ابنه الشريف الرضي، فهل تظنون أن هذا المنصب كان يضاف إلى هذين الرجلين بفضل الوراثة؟

قد يكون ذلك، ولكني أرجو أن تصدقوني إذا قلت: إن هذا المنصب كان يشترط فيمن يتولاه أن يكون على صلات بالقبائل العربية التي كانت تسد المنافذ إلى البيت الحرام.

والتاريخ يشهد بأن أهل العراق وأهل فارس وأهل خراسان انصرفوا عن الحج أعوامًا كثيرة بسبب الخوف من أشواك الطريق، وكان يتفق في أحيان كثيرة أن تُنهَب قوافل الحجيج، وأن يعود الحجاج إلى بلادهم منهوبين ومجروحين، ولا يكفي أن يقال: إن الموسوي كان من الفرسان، وإن ابنه الرضي كان من الفرسان؛ وإنما يجب أن نفهم أن هذين الرجلين كان يعرفان قيمة الصداقة في العلائق (الدبلوماسية) فكانا يتصلان اتصالًا ودِّيًا بأكثر القبائل وينالان بالسلطة الروحية ما تعجز السيوف.

وقد رأيتم فيما سلف أن الموسوي كان يذهب إلى فارس للسفارة بين الشعبين؛ وليقيم قواعد الصلح بين الجيش البغدادي والجيش الفارسي، وهذا يشهد بأن تسوية الشئون المعقدة بين فارس والعراق كانت توجب أن يكون في العراقيين رجال يؤتمنون على الأرواح، ويهمهم أن يسود الصفاء بين أُمَم تفرِّقها العُنصرية ويجمع بينها الدين.

وكانت أشعار الشريف نوعًا من الدعاية للعراق في زمن لم تكن فيه جرائد ولا مجلات: فكان يوزِّع مدائحه ذات اليمين وذات الشمال على من يتوسم فيه القدرة على إنصاف العراق، وكان أبوه من قبلُ يصنع الصنيع نفسه بالوسائل الأدبية والدينية، وذلك أسلوبٌ من التلطف لا يبرع فيه إلا الأقلون.

أترونني أفصحت عما أريد؟

أنا أريد أن أقرر أن الشريف كان في مدائحه للخلفاء والوزراء والملوك رجلاً سياسيًّا، والسياسة لا تنافي الصدق في جميع الأحوال، فهو كان يصادق ويعادي في سبيل وطنه الذي جار عليه الزمان في تلك العهود.

وكان يحاول أن يغنم لوطنه أصدقاء بين أولئك الذين حوَّلوا منادح العراق إلى معسكرات.

وقد حملته هذه الرغبة على أن يفكر تفكيرًا جديًّا في مصاهرة أبي علي وزير بهاء الدولة، وكان بهاء الدولة كما سترون قطب الأقطاب في ذلك الزمان. وهذه المصاهرة لم تكن إلا وسيلة سياسية، فقد كان يدرك جيدًا أن الوزراء في ذلك العهد كان إليهم زمام الملوك؛ لأنهم كانوا يصلون إلى الوزارة بأموالهم وعصبياتهم، وكان إليهم الأمر المطلَق في أكثر الشئون.

وعقليَّة الشريف كانت عقلية سياسية: فهو يسترخص كل شيء في سبيل المجد، ويستبيح اشتراء المناصب، وقد اتفق مرة أن يهجم قوم في حضرته على رجل أسرف في البذل؛ لينال الوزارة على البديهة:

اشـــترِ العـــز بـــما بيـــ ـــعَ فـــما العـــزُّ بغـــالِ
بالقِـــصار الـــصُّفر إن شئـــ ـــت أو الـــسُّمر الطـــوالِ
لـــيس بـــالمغبون عقـــلًا مـــن شَرَى عـــزًّا بـــمالِ
إنـــما يُـــدَّخَر المـــا ـــال لحاجـــات الرجـــالِ
والفتـــى مـــن جعـــل الأمـــو ال أثـــمان المعـــالي

وما نريد أن نغض من شاعرنا، وإنما نريد أن نصوره على ما كان عليه من أخلاق، وليس يؤذيه أن نستبيح من التعبير ما استباح.

ثم أقول مرة ثانية: إنه كان يريد أن يتزوج زواجًا سياسيًّا، والزواج السياسي معروف من قديم الأزمان، وقد أباحه رسول الله ﷺ فدخل في

مصاهرات كثيرة؛ لتصل روحه إلى أشتات القبائل العربية، وما على الشريف من لوم من أن يسلك ذلك المسلك المقبول؛ ليكون صلة الوصل بين فارس والعراق.

ولكنه -وا أسفاه- خاب في مسعاه!

وقد سجَّل خيبته الأليمة بقصيدتين: الأولى بائية، والثانية دالية.

وكان يجب أن نقف طويلًا في تشريح هاتين القصيدتين، ولكن أين الوقت؟ فيكفي أن نذكر أن الشريف شعر بصدمة موجعة حين ضاعت تلك الفرصة الذهبية، وكان للرجل -وهو من شعراء الوجدان- أن يتألَّم لضياع البخت من فتاة نشأت في النعيم؛ والحسنُ المنعَّم له مَذاقٌ خاصٌّ؛ ولكنه وقف حسرته على ضياع المطمَع السياسي فقال في مطلع البائية:

أَمانيُّ نفسٍ ما تُناخ ركابها ... وغيبةُ حظٍّ لا يُرْجَّى إيابها
ووفدُ همومٍ ما أقمتُ ببلدةٍ ... وهنَّ معي إلا وضاقت رحابها
وآمالُ دهرٍ إن حسبتُ نجاحها ... تراجعَ منقوضًا عليَّ حسابها

ثم قال:

ألا أبلغا عني الموفَّق قولةً ... وظنِّي أن الطَّول منه جوابها[1]
أترضى بأن أرمي إليك بهمتي ... فأُحْجَب عن لُقيا عُلًا أنت بابها
وأظما إلى دَرِّ الأماني فتنثني ... بأخلافها عني ومنك مَصابها[2]
وليس من الإنصاف أن حَلّقت لكم ... قوادم عزٍّ طاح في الجو قابها[3]

---

(١) الطول: بالفتح هو الجود.
(٢) الأخلاف: الأثداء، والمصاب بفتح الميم مصدر الصوب أي الانصباب.
(٣) القاب: الفرخ، وهو أيضًا ما بين المقبض والسية من القوس.

وأصبحتُ محصوص الجناح مهضَّمًا ... عليَّ غوشي ذلَّةٍ وثيابها[1]
تُعِدُّ الأعادي لي مرامي قِذافها ... وتنبحني أنّى مررت كلابها
لقد كنت أرجو أن تكونوا ذرائعي ... إلى غيركم حيث العُلا واكتسابها[2]
فهذه المعالي الآن طواعي لأمركم ... وفي يدكم أرسانها ورقابها[3]
إذا لم أرد[4] في عزكم طلب العلا ... ففي عز من يُجدي عليَّ طلابها؟

وهذه الأبيات صريحة في أنه لا يبكي ضياع الحظ من فتاة جميع كان يشتهي أن تكون أُنس حياته، وإنما هو يبكي فرصة سياسية ضاعت بضياع تلك المصاهرة المشتهاة.

وفي القصيدة الثانية يقول:

لك الله ما الآمالُ إلا ركائبُ ... وأنت لها هادٍ وحادٍ وقائدُ
أبى لك إلا الفضلَ نفسٌ كريمةٌ ... ورأيٌ إلى فعل الجميل مُعاود
وَطودٌ من العلياء مُدَّتْ سموكهُ ... فطالت ذُراهُ واطمأن القواعد
وإني لأرجو من عَلائك دولةً ... تذلَّل لي فيها الرقابُ العواند
ويومًا يُظِل خافقَين بمزنةٍ ... رَذَاذُ غواديها الرءوسُ الشوارد[5]
لأعقدَ مجدًا يُعجِزُ الناسَ حلُّهُ ... وتنحلَّ من هام الأعادي مَعاقد
فمن ذا يراميني ولي منك جُنَّةٌ[6] ... ومن ذا يدانيني ولي منك عاضد؟
عليَّ رداءٌ من جمالك واسعٌ ... وعنديَ عِزٌّ من جلالك خالد

---

(١) الجناح المحصوص: هو الذي تساقط ريشه، ويقال كذلك: رأس المحصوص.
(٢) الذرائع: جمع ذريعة وهي الوسيلة.
(٣) الأرسان: جمع رسن بالتحريك، وهو الحبل وما كان في زمام على أنف.
(٤) من ورد يرد.
(٥) الغوادي: جمع غادية وهي السحاب تنشأ غدوة أو مطرة الغداة، والرذاذ على وزن سحاب هو المطر الخفيف، وهذا البيت من وثبات الخيال.
(٦) الجنة: بالضم هي الوقاية.

فـــلا تتركنّـــي عرضـــة لمُـــضاغن ... يُطـــارد في أضـــغانه وأطـــارد
ولا صـــدودٌ منـــك هانـــت عظـــائمٌ ... تَـــشُقُّ عـــلى غـــيري وذلّـــت شـــدائد
ولكنـــك المـــرءُ الـــذي تحـــت سُـــخطهِ ... أُســـود ترامـــي بـــالردى وأســـاود[1]

وهذا المطمح هو من شواهد الفحولة في الشريف، الفحولة الحسية والفحولة المعنوية، وكان شاعرنا يتشهى أن يحكم ويستطيل، وشهوة التحكم والسيطرة من أشرف عيوب الرجال.

أيها السادة ... ما أحب أن أُضجركم؛ فأطوف بكم على جميع ما دونتُ من صلات الشريف بالوزراء والملوك؛ ويكفي أن تتضح الفكرة في أذهانكم؛ لترجعوا إلى أصولها في ديوانه حين تشاءون.

ولكن لا بدَّ من الوقوف عند مسألتين مهمَّتين: الأولى: صلات الشريف بالحمدانيين، والثانية: صلاته ببهاء الدولة الذي كان في زمانه ملك الملوك.

أما صلاته بالحمدانيين: فلها أصول سياسية يعرفها المطلعون على التاريخ وربما جاز أن نحكم بأن هواه معهم يرجع أيضًا إلى أُصول وجدانية، فقد كان يعطف على إحدى نسائهم، أو كانت إحدى نسائهم تعطف عليه. وقد مرت لذلك إشارة لا نعود إليها في هذا المساء؛ والرجل قد يعطف على أُمَّة بأسرها من أجل امرأة يهواها أو تهواه.

وعواطف الشريف نحو الحمدانيين تظهر في مراثيه لمن عرف من رجالهم، كأن يقول:

وسِربٍ بنـــو حَمـــدان كـــانوا حُماتَـــه ... رعـــتْ فيـــه ذُوبـــان الليـــالي العوائـــثُ
فـــأين كُفـــاة القَطـــر في كـــل أزمـــةٍ ... وأيـــن الملاجـــي مـــنهم والمغـــاوث؟

(١) الأساود: جمع أسود وهي الحية الهائلة.

وأيـن الجيـاد المعجـلات إلى الـوغى ... إذا غـام بـالنقع المـلا المتواعـث؟[١]
إذا ما دعا الـذواعن للبـأس والنـدى ... فلا الجودُ منزور ولا الغـوث رائـث[٢]
يَـرِفُّ عـلى نـاديهم الحلـم والحجـا ... إذا مـا لغـا لاغ مـن القـوم رافـث[٣]
من المطعمـين المجدَ بـالبِيض والقنـا ... مـلاء المقـاري والعريـب غـوارث[٤]
إذا طرحـوا عِمَّاتهـم وضـحتْ لهـم ... مفارق لم يَعصب بهـا العـار لائـث[٥]

وقد تفجرت عواطف الشريف نحو الحمدانيين وهو يرثي أبا طاهر بن ناصر الدولة، ويظهر أن صداقته لذلك الأمير بلغت من نفسه كل مبلغ، فقد رثاه أصدقَ رثاء، وتفجَّع عليه أوجع تفجُّع، حتى وقع لقوم من عقيل أن يغضبوا وأن يرد عليهم الشريف فيقول:

أُلام أني رثيـتُ زافـرةً[٦] ... كـانوا نجـوم الفَخـار أو لُمَعـه
إن لا تكـن ذي الأصـول تجمعنـا ... يومًـا فـإن القلـوب مجتمعـه
كـم رحـم بـالعقوق نقطعهـا ... ورَحِـمُ الـود غـير منقطعـه![٧]

وللشريف في ذلك الأمير مرثيتان، الأولى دالية:

تفـوزُ بنـا المنـون وتـستبدُّ ... ويأخـذنا الزمـان ولا يَـرُدُّ
وانظـر ماضـيًا في عُقـبِ مـاض ... لقـد أيقنـت أن الأمـر جِـدُّ

ثم يخاطب المبكيَّ فيقول:

---

(١) المتواعث: الكثير التراب، والملا: الصحراء.
(٢) منزور: قليل، والرائث: البطيء.
(٣) الرافث: الذي ينطق بالفحش.
(٤) المقاري: في الأصل رءوس الآكام وهي هنا الجفان، والغوارث: الجياع ويقال للجائع: غرثان.
(٥) العمات: جمع عمة بالكسر لغة في العمامة وهي مستعملة في مصر.
(٦) الزافرة: الجماعة.
(٧) هذا بيت نفيس.

أَإبـــراهيمُ أمـــا دمـــع عينـــي ... عليـــك فـــما يُعَـــد ولا يُحَـــدُّ
يُغـــصَّص بالأوائـــل منـــه طَـــرفٌ ... ويـــدمَى بـــالأواخر منـــه خَـــدُّ
بكيتـــك للـــوداد ورب بـــاك ... عليـــك مـــن الأقـــارب لا يـــود
وإن بكـــاءَ مـــن تبكيـــه قُربـــى ... لَـــدونَ بكـــاء مـــن يَبكيـــه ود[1]

ثم يقول في تحقير من قتلوه:

قتيـــلٌ فَلَّـــه نـــابٌ كهـــام ... وكـــان العَـــضب ضـــوّاه الفِرنْـــد
وذَلّ بـــذل قاتلـــه فأضـــحى ... لقاتلـــه بـــه عـــزٌّ ومجـــد[2]
فيـــا أســـدًا يـــصول عليـــه ذئـــبٌ ... ويـــا مـــولًى يطـــول عليـــه عبـــد!

والقصيدة كلها على هذا النسق الطريف.

أما القصيدة الثانية فهي أعجوبة في الجودة والرصانة والخيال، وسنعود إلى درسها حين نتكلَّم عن المراثي في السلسلة الثانية من هذه المحاضرات.

قلت: إني لن أُطيل الحديث عن صلات الشريف بالوزراء والأمراء وإني سأنتقل من كلامه عن الحمدانيين إلى وفائه لبهاء الدولة، ولكن لا بدَّ من تذكير القارئ بأن هناك شخصيات سياسية عرضنا لها في مواطن مختلفات من هذه المحاضرات، أمثال: شرف الدولة، وعبد العزيز بن يوسف، والصاحب بن عباد.

وقبل أن نواجه الحديث عن بهاء الدولة نذكر أن الشريف كان له ذوقٌ لطيف في التفرقة بين مقامات الخلفاء ومقامات الملوك، فهو كان ينشد الخلفاء شعره بنفسه، أما الملوك فكان يكتفي بإرسال القصائد إليهم، وقد فَطِن بعض الدساسين إلى هذه التفرقة الذوقية؛ فاغتابوه عند بهاء الدولة واتهموه بالتكبر

---

(١) أرجو القارئ أن يتأمل في عذوبة هذه الأبيات.
(٢) وهذا أيضًا بيت نفيس.

والازدهاء.

فلما بلغته الدسيسة كتب إلى بهاء الدول يقول:

جَناني شجاعٌ إن مدحتُ وإنما ... لساني إنْ سِيمَ النشيد جبانُ
وما ضرَّ قوّالاً أطاع جنانهُ ... إذا خانه عند الملوك لسان
ورُبَّ حَيِيٍّ في السلام وقلبُهُ ... وقَّاحٌ إذا لفَّ الجِياد طِعان[1]
ورُبَّ وقَّاح الوجه يحمل كفُّهُ ... أنامِلَ لم يَعْرَق بهنَّ عنان
وفخرُ الفتى بالقول لا بنشيدهِ ... ويروي فلانٌ مرةً وفلانُ

وللشريف في بهاء الدولة مدائح كثيرةً جدًّا.

فمن هو بهاء الدولة؟ أكان يستحق أن يُنفق الرضي في سبيله كل تلك الثروة من الشعر الجيد؟

نظلِم الأدب والتاريخ ونظلم صديقنا الشريف إذا تركنا القارئ يفهم أن بهاء الدولة لم يكن إلا طاغيةً يُجيد تَلَّ العروش، كالذي صنع مع الطائع.

كان بهاء الدولة -مع غطرسته- شخصية فارسية مصقولة الحواشي، وكان يتذوق الأدب الرفيع، وكانت له أخلاق.

إي والله، كانت له أخلاق!

والشاهد الآتي يُفصح عما نريده:

كان لشرف الدولة خادم اسمه نحرير، وكان وفيًّا لسيده أصدق الوفاء، وكان بهاء الدولة يسمع بوفائه فيشتدُّ شوقه إليه، فلما توفِّي شرف الدولة وتولّى

---

(١) في هذين البيتين يفرق الشاعر بين الوقاحة في القلب والوقاحة في الوجه، والوقاحة هنا معناها الشجاعة، فهي في هذا المقام كلمة ثناء.

الأمر بهاءُ الدولة كان همّ الملك الجديد أن يجتذب نحريرًا إليه؛ ليجري في خدمته على ما كان يجري عليه في خدمة أخيه.

ولكن نحريرًا امتنع، وتظاهر بلبس الصوف؛ ليفهم الناس أنه طلَّق دنياه[1].

قال الراوي: كنت قائمًا بين يدي بهاء الدولة وهو يخطب نحريرًا بقوله: لا تزهد فيَّ مع رغبتي فيك، فأنا أوْلى بك على ما كنت عليه من قبل، ونحرير يقبِّل الأرض ويستعفي إلى أن انتهى بهاء الدولة إلى أن قال له باللغة الفارسية وقد دمعت عيناه: افعل لله! فأقام نحرير على أمر واحد في اللجاج الذي لا يقابَل الملوك بمثله وانصرف من بين يديه[2].

ثم زين السفهاء لبهاء الدولة أن يأذن بالقبض على نحرير.

قال الراوي:

وبقي أبو الحسن محمد بن عمر ونحرير، فقال له محمد بن عمر: يا هذا، قد أسرفت في الدالة[3] ومن أنت وما قدْرُك حتى تمتنع من خدمة هذا الملك العظيم -وأغلظ[4] له في القول ونحرير مطرق-؟!.

فلما زاد الأمر عليه؛ رفع رأسه وقال له: أيها الشريف! أين كان هذا القول في أيام مولاي وأنت ترى أفضل آمالك إذا ابتسمتُ في وجهك؟ فأما الآن وأنا على هذا الحال فاستعمالُ ما أنت مستعمله لؤم قُدرة، وسوء ملكة، وكيف أُلام

---

(١) هذه شاهد جديد على أن التصوف مشتق من الصوف، وهو يؤيد ما قلنا به في كتاب (التصوف الإسلامي).
(٢) تجارب الأمم ج٣ ص ١٥٤، طبع مصر بعناية مرجليوث.
(٣) في تجارب الأمم (الدولة) وهو تحريف.
(٤) في طبعة مرجليوث (فأغلظ) وما أثبتناه أصح.

على ترك الدنيا بعد ملكِ ابتاعني بألف درهم ثم رفعني إلى أن كنت تخدمني ولا أخدمك، وتحتاج إليَّ ولا أحتاج إليك[1].

وما نريد أن نأتي على بقية القصة؛ فليس يسر القارئ أن يعلم ما صنعتْ الدسائس التي انتهت بقتل نحرير، فقد يكون في ذلك ما يُحقِّر الجنس الذي اشترك في تكوينه آدم وزوجته حواء!

وأريد أن أقول أيها السادة: إن بهاء الدولة كان رجلًا له قلب وذلك مما يعطف عليه شاعرًا مثل الشريف، وهو قد استطاع أن يُثبِّت قواعد الملك في العراق، والموصل، وخوزستان، وشيراز، وَكرمان، واستطاع أن يطمئن على بغداد فيتركها ويقيم في خوزستان ويولِّي عليها حاكمًا يسميه: عميد العراق.

ومعنى ذلك أن العراق شهد في عهده أطياف الرخاء.

قلت: إن بهاء الدولة كان يتذوق الأدب الرفيع، وشاهد ذلك أن الشريف كان يداعبه بالشعر؛ فيرسل إليه القصائد الوحشية والقصائد الإنسية.

كان يخاطبه بالشعري الوحشي فيقول:

رأى على الغور وميضًا فاشتاق ... ما أجلب البرقَ لماء الآماق
ما للوميض والفؤاد الخفاقْ ... قد ذاق من بين الخليط ما ذاق
داء غرام ما له من إفراق ... قد كلَّ آسية وقد ملَّ الراق
لآل ليلى في الفؤاد أعلاق ... تزيد من حيث تقضي الأشواق

إلى آخر القصيدة وهي طويلة.

وكان يخاطبه بالشعر الإنسي فيقول:

خلِّ دمعي وطريقَهْ ... أحرام أن أُريقه؟

---

(١) ص ١٥٥-١٥٦.

كمْ خليطٍ بان عني ... ما قضى الدمعُ حقوقه
يا شقيقي والقنا يُغـ ... ـضِب في العدل شقيقَه
عاصيًا ناصحه الأقـ ... ـرب ودًّا ورفيقه
من لبرق هبَّ وهنّا ... من أبانين وسُوقَه؟[1]
من شريقيَّ الحمى ... ينشد نجدًا وعقيقه
من غمام كالمتالي ... ينقل الليل وُسُوقه[2]
لاحَ فاقتاد فؤادًا ... عازبَ اللبِّ مَشوُقه
طالَ ذكر النفس ... أرواح زَرود ويُروقه
وعقابيل غرام ... يُذكِر القلب حقوقه
وخيال دلس القلـ ... ـبُ على العين طُروقَه
كذِب تحسبه الصـ ... ـبُ من الشوق حقيقه
انعمي يا سرحة الحيّ ... وإن كنت سحيقه[3]
أتمنّى لك أن تبـ ... ـقَيْ على النأى وَرِيقة
ثمَرٌ حرَّم ... واشيك علينا أن نذوقه

وهذا نسيبٌ مُرقِص.

ثم يمدح بهاء الدولة فيقول:

يا قِوام الدين والفا ... رج للدين مضيقه
أنت راعيه وهاديـ ... ـه إذا ضلَّ طريقه

---

(١) أبانين: مثنى أبان، وهما جبلان يقال لأحدهما: أبان الأبيض، وللثاني أبان الأسود، وانظر بقية الفروض في معجم البلدان. وسُوقه: بضم أوله موضع بنواحي اليمامة، وقيل: ماء وجبل لباهلة.

(٢) المتالي: الإبل، والوسوق: جمع وسق وهو الحمل.

(٣) سحيقة: بعيدة.

من رجال ركبوا المجـ ـد فما ذمُّوا عَنِيقه[1]
معشرٌ كانوا قَبِيـ ـل العز قِدمًا وفريقه
وملوك في سراهم ضرب المجد عروقه
ومغاوير الحفيظا ت وفُرسان الحقيقه
حَسَبٌ يحسب من فيـ ـه وأعراقٌ عَريقه
من ترى يدفع رَوْقَيـ ـه ومن يطلع نِيقه[2]
لهم الأيدي الطوال الطول والبيض الزَّليقه[3]
ومواريث مقالي الليـ ـل والنار العتيقه
بوجوه واضحات في دجى الأزْل طليقه[4]
وأكُفٌّ منفقاتٍ في الندى الغَمْر عريقه
وبأخلاقٍ رقاقٍ دون أعراض صفيقه[5]
تَخِذُوا المجد أبًا ما استحسنوا قطُّ عقوقه
إن فيهم مَوْلد الملـ ـك ومن قبلُ عَلُوقه[6]
ناشئًا تُسلمه الأمُّ إلى الظِّئر الشقيقه
هم رَمَوْا عني جليل الخطـ ـب يُدمي ودقيقه
طردوا الأيام عن وِرْد دمي طرد الوسيقه[7]
أطلقوني من إسار الدهـ ـر إطلاق الرَّبيقه[8]

---

(١) العنيق: السير.
(٢) الروقان: مثنى روق وهو القرن. والنيق: بالكسر أرفع موضع في الجبل.
(٣) البيض الزليقة: السيوف الماضية.
(٤) الأزل: بفتح فسكون هو الضيق والشدة.
(٥) المراد من صفاقة: الأعراض قوتها وصلابتها.
(٦) العلوق على وزن صبور: المرضع.
(٧) الوسيقة: من الإبل كالرفقة من الناس.
(٨) الربيقة: البهيمة المربوطة في الربقة.

إلى أن يقول:

عشتَ تستدرك فينا ... خَطَل الدهر ومُوقه[1]
واثقًا بالدهر تُعطي ... من رزاياه وثيقه
كلما عِفتَ صَبوح ... عمر عوطيتَ غَبوقه
مَطلَع الشارق إن غا ... بَ رجا النَّاسُ شروقه
آمن المرتع ترعى ... روضة العز أنيقه
إن يكن عيدًا فأيا ... مُك أعياد الخليقه
إنما أنوارُ أحدا ... قٍ ونُوَّارُ حديقه[2]
إن نَعّاق الأعادي ... أسكن الذلُّ نَعيقه
لفظ الملك شجاهُ ... وأساغ اليوم ريقه

وهذا الشاهد المطوَّل لا يهمنا لذاته، كما تظنون، وإنما يهمنا لدلالته على أريحية الشريف وهو يمدح بهاء الدولة، وهذه الأريحية تحتاج إلى قليل من البيان:

إن الشريف ظل موصول الأواصر بمودة بهاء الدولة نحو عشرين سنة، وهي مودَّة كان لها أثر كبير في شاعرية الشريف؛ لأنها أفسحت أمامه المجال للتطريب والتغريد، وراضته على الطواف حول كرائم المعاني، فقد كان الشريف يحب أن يمدح الرجال، لا لتكسُّب ولا لتزلُّف؛ ولكن للمعنى الذي شرحناه في الطبعة الثانية من كتاب (البدائع) وهو معنى دقيق لم يتنبه إليه أحد من الذين أرخوا الأدب العربي، فالمدائح كانت سِجلًا لما يفهم الشعراء من مكارم الأخلاق، وكان الشريف في حدود هذا الفرض يسره أن يتكلم عن الشمائل والخصال التي ترفع أقدار الرجال.

---

(١) الموق: بالضم هو الحمق في غباوة، ويقال: حمق مائق.
(٢) النوار: بضم النون هو الزهر.

فمدائح الشريف صورٌ لما كان يؤمن به من الحقائق الأخلاقية، وشاهدٌ على أنه كان في أعماق قلبه يود التخلق بما اصطفاه لممدوحيه من أخلاق.

وهذه القصيدة فيها إشارة إلى ماضي الفُرس، حتى النار، وهي في شعره نارٌ عتيقة أي كريمة، والعتق هو الكرم في الخيل وفي الصهباء.

وأريد أن أقول: إن ثناء الشريف على ماضي الفرس كان شواهد تلطفه مع بهاء الدولة؛ لأن الشريف له قصائد في تفضيل العرب على الفرس، وبعبارة أدق تفضيل مجد الإسلام على مجد الفرس، كالقصيدة التي قالها حين اجتاز بالمدائن وشهد إيوان كسرى سنة ٣٩٧.

وقربـــوهن ليبعـــدن المغـــارا ويبـــذَّلن بـــدار الهُـــون دارا

وكان يتفق له أن يتغنَّى بمجد العرب وما صنعوا في قهر الفرس وهو يمدح بهاء الدولة، فما تعليل ذلك؟

أغلبُ الظن أن الفرس لم يكن من همهم أن يقاوموا مجد العرب في الحدود التي رسمتها الشُّعوبية، لأنَّ الفرس أسلموا وتعصبوا أشد التعصب للغة العربية، وكان إسلامهم واستعرابهم من أهم الأمجاد في حياة العروبة والإسلام.

وأغلب الظن أيضًا أن الشعوبية لم تكن نزعة إجماعية في حياة الفُرس، وَإِنَّمَا هي مناوشات أدبيه أثارها الأدباء، وهم مصدر الشر في بعض الأحيان!

أقول هذا لأفهم وتفهموا كيف جاز للشريف أن يذكر انتصار العرب على الفرس في قصيدة يمدح بها بهاء الدولة فينص على أن عارض الحرب يوم ذي وقار:

رحـــضَ الأغلـــف في تيـــاره ورد العلـــجُ ومـــا كـــاد يـــرد[1]

(١) الرحض، الغسل، العلج: الرجل من كفار العجم.

يـــصطلي نـــار طعـــان مـــضَّةٍ أوقـــدتْ فيهـــا نـــذار بـــن مَعَـــسِدْ

والحقيقة أن الفرس في مؤلفاتهم وأشعارهم كانوا من نماذج القومية العربية الإسلامية، فلم يكن يجرحهم أن يقول شاعر: إن الإسلام انتصر عليهم؛ لأنهم رحبوا بالإسلام منذ عرفوه، وكانت بلادهم من الحصون التي اعتزت بها لغة القرآن.

وإنما نوهتُ بهذه القضية لأشرح كيف كان الشريف يتردد بين الإشارة بمجد العرب ومجد الفرس، وكيف جاز له أن يدور حول هذه المعاني بلا تهيب ولا إشفاق؟

وما يجوز لنا أيها السادة أن نزن التاريخ بموازين الحوادث في هذه الأيام، فالأمم الإسلامية في هذا العصر يستقلُّ بعضها عن بعض؛ بحيث يظن الغافل أنها كانت كذلك في الأيام الخالية، وما كانت كذلك، وإنما كان يتنقل المؤمن من أرض إلى أرض فلا يفهم أنه انتقل من وطن إلى وطن، وإنما كان يشعر بأنه يسير تحت راية الإسلام، ولم تكن ياء النسب إلا علامة تمييز لا علامة تفريق.

أيها السادة ... كانت مدائح الشريف لبهاء الدولة فرصةً عظيمة لجموح الخيال، ففي تلك المدائح لفتاتٌ ذوقية وروحية وخُلُقية.

والذين اهتموا بغراميات الشريف وقفوا عند الحجازيات، وفاتهم أن الشريف كانت له في مدائحه وثبات غرامية، كأن يقول:

مـــن رأى الـــبرق بغـــوريّ الـــسند في أديـــم الليـــل يَفْـــري ويقُـــدُّ
حـــيرة المـــصباح تزهـــوه الـــصَّبا خَلَـــلَ الظلـــماء يخبـــو ويَقِـــد[1]
كلـــما أنجـــد عُلـــويّ الـــسَّنا قـــام بالقلـــب اشـــتياقٌ وقعـــد
كـــم أضـــاء الـــبرق لي مـــن معهـــد ذاب دمـــع العـــين فيـــه وجمـــد
ومغـــان أنبـــت الحـــسن بهـــا هَيَفًـــا ترعـــاه عينـــي وغَيَـــد

(١) يقد: مضارع وقد.

كلما عاود قلبي ذكرها ... لعب الدمع بجفني وجدَّ
إن ريم السُّرب أدنى لي الجوى ... ونأى بالصبر عني والجَلَد
بنَدَى غضّين غصن ونقا ... وجَنَى عَذْبَيْن شَهْدٍ وبَرَد

وكان يقول:

ذكرتُ على بُعدها من منالي ... منازل بين قبا والمطالي
ومبنَى قباب بني عامر ... على الغُور أطنابهن العوالي
عقائل علّمهن العفافُ ... وصل المطال ومَطل الوصال
مرابع يشكو بهن الجراح ... أُسودُ الشَّرى من ظباء الرمال
مضاحكهنَّ عقود العقود ... وأجيادهن لآلي اللآلي
أبعد الأسى عاد عِيد الغرام ... وقَرفٌ من الشَّوق بعد اندمال؟[1]
هوًى بين مقتصٍّ إثر الغزالِ ... ولي ومنتصّ جيد الغزال[2]
وما طلبُ البذل من باخل ... بميسورهِ غير داءٍ عُضالِ
وما زال يلوي ديون الهوى ... ويؤيسنا من قليل النوال
إلى أن قنعنا بزَوْر المزارِ ... بعد النوى وخيال الخيال[3]

وكأن يقول:

زارَ والركب حرامُ ... أوداعٌ أم سلامُ
طارِقًا والبدر لا ... يحفزهُ إلا الظلامُ
بين جَمْع والمصلى ... رِيم سِرب لا يرام
وحُلولٌ ما قِرَى نا ... زلهم إلا الغرام[4]

---

(١) القرف: قشر الجرح.
(٢) منتص الجيد: مرتفع العنق.
(٣) الزور: بالفتح هو الزائر، والمراد يزور المزار طيف الزيارة.
(٤) الحلول: المقيمون.

بـــدَّلو الـــدور فلـــما نزلـــوا القلـــب أقـــاموا
يـــا خلـــيليَّ اســـقياني زمـــن الوجـــد سَـــقامُ
وصِـــفَا لي قُلْعَـــة الركـــ ـــب وللـيـــلِ مُقـــامُ[1]
مـــن ألالٍ حفـــزوا العِيـــ ـــس كـــما رِيـــع النَّعـــام[2]
فـــزفيرٌ ونـــشيجٌ وعجـــيجٌ وبغـــام
ومِنـــى أيـــن مِنـــى مـــ ـــنى لقـــد شَـــطَّ المـــرام
وهـــل عـــلى جَمْـــع نـــزولٌ وعـــلى الخَيـــف خيـــام؟
يـــا غـــزال الجِـــزع لـــو كـــا ن عـــلى الجِـــزع لِـــمامُ
أحـــسد الطـــوق عـــلى جِيـــ ـــدك والطـــوق لِـــزام
وَأعـــضُّ الكـــف إن نـــا لَ ثنايـــاك البَـــشام[3]
وأغـــارُ اليـــوم إن مـــرَّ عـــلي فِيـــك اللثـــام
أنـــا عرّضـــتُ فـــؤادي أولُ الحـــرب كـــلامُ
أن جعلـــتُ القلـــب مرمـــى كثـــرتْ فيـــه الســـهام
مـــن يـــداوي داء أحـــشا ئـــك والـــداء عُقـــام[4]

وأنا أكتفي بهذه الشواهد الثلاثة؛ لأريكم أن مدائح الشريف في بهاء الدولة

---

(١) القلعة: بضم القاف الارتحال، ولليل مقام: إشارة إلى الرحيل في ظلام الليل.
(٢) ألال على وزن سحاب: اسم جبل بعرفات، قال ياقوت: وأما اشتقاقه فقيل: إنه سمي ألالًا؛ لأن الحجيج إذا رأوه ألوا: أي اجتهدوا. وقد ذكره الشريف في قصيدة أخرى فقال:

فأقـــسم بـــالوقوف عـــلى ألال ومـــن شـــهد الجـــمار ومـــن رماهـــا
لأنـــت الـــنفس خالـــصة وإن لم تكونيهـــا فأنـــت إذن مناهـــا

(٣) البشام: على وزن سحاب شجر يؤخذ منه المسواك.
(٤) داء عقام: بالفتح والضم، والضم أفصح: لا يبرأ منه.

تجمع أطايب من المعاني الذوقية. والقطعة الأخيرة من الشعر النفيس، وعهدي بالأستاذ محمد الهياوي يرحل من (حدائق القبة) إلى القاهرة؛ ليسمعها من الأستاذ أبي بكر المنفلوطي، كأن الشريف هو وحده الذي يحسن أن يقول:

زارَ والركبُ حرامُ أوداعٌ أم سلامُ

أما المعاني الروحية فكثيرة، يمثلها تلطفه مع بهاء الدولة إذ يقول:

لا ضَحا ظلكمُ يومًا ولا مطل الإقبال منكم ما وعد
وتفارطتم على رِفْهِ السُّرَى مورد النعماء والعيش الرغد[1]

وإذ يقول:

سيبلو منك هذا الصوم خِرْقًا رحيب الباع فضفاض الرداء[2]
تصوم فلا تصوم عن العطايا وعن بذل الرغائب والجِباء

وإذ يقول:

لا زعزعتك الخطوبُ يا جَبَلُ وبالعدا حلَّ لا بك العللُ
قد يُوعَكُ الليث لا لذلتهِ على الليالي ويسلَم الوَعَلُ[3]
لا طَرقَ الداء من بصحتهِ يصح منا الرجاءُ والأمل
حاشاك من عارض تُراع بهِ ذاك فتورُ النعيم والكسلُ
النجم يخفى وأنت متضحٌ والشمس تخبو وأنت مشتعل
ما صرف الدهر عنك أسهمَهُ فكل جرح يصيبنا جَلَل[4]
باقٍ تخطّاك كل نائبةٍ إلى العدا والنوازل العُضلُ
فما يقول الأعداء لا بلغوا السُّ ـؤْل لوا أدركوا الذي أملوا

---

(١) تفارطتم: تقاسمتم.
(٢) الخرق بالكسر: الظريف في سخاوة والفتى الحسن الكريم الخليقة.
(٣) الوعل: تيس الجبل.
(٤) الجلل: بالتحريك معناه هنا الهين، و(ما) ليست نافية وإنما هي ظرفية.

بنـا الأذى لابكـم إذ نـزل الخـ ـطب طَروقًـا وصـمَّم الأجـل
ودمـتمُ للعُـلا وعيـشُكُم غـضٌّ وراووق عـزِّكم خَـضل
لا عجـبٌ أن نَقـيكمُ حـذرًا نحـن جُفُـونٌ وأنـتمُ مُـل

وإذا يقول في تعزيته عن إحدى بناته وهي التي عقد عليها للخليفة القادر بالله:

لَهَـانَ الغمـد مـا بقـيَ الحسامُ وبعـضُ الـنقص آونـةً تمـامُ
إذا سـلك العـلا سَـلِمَتْ قـواه فـلا جَـزَعٌ إذ انـتقص النظـام
وأهـون بالمناكـب يـوم يبقـى لنـا الـرأس المقـدّم والسّنام
ومـا شـكوى المناهـل حـين تمسي مغيـضةً إذا بقـيَ الغـمام
وهـل هـو غـير فـذّ أخلفتـهُ لنـا العليـاء والـنعم التُّـوامُ
ومـا شَررٌ تَطـارَح عـن زنـادٍ بمفتقَـدٍ إذا بقـيَ الـضرام
أفـق يـا دهـر من أمـسيت تحـدو وقـد منـع الخزامـة والزمـام
قـدعتَ مـبرّز الحلَبـات يغـدو جموحًـا لا ينهنهـه اللجـام[1]
ولـودًا مثـل مـا خالـستَ منـهُ وأنـت بمثلـه أبـدًا عُقـام[2]

أما اللفتات الخلقية فكثيرة جدًّا، كأن يقول:

كـان قـضاء الإلـه مكتوبًـا لـولاك كـان العـزاء مغلوبًـا
مـا بقيـتْ كفـك الـصناع لنـا فكـل كـسر يكـون مرءوبًـا[3]
مـا احتـسبَ المـرء قـد يهـون ومـا أوجـعَ مـا لا يكـون محسوبًا!
نهـضًا بهـا صـابرًا فأنـت لهـا والثِّقـل لا يعجـز المـصاعيبا

---

(١) القدع: الكبح.
(٢) العقام والعقيم: من العقم وهو انقطاع النسل.
(٣) الكف الصناع: الماهرة في الصنع، وليست من الصنيع بمعنى الإحسان كما في هامش طبعة بيروت.

فقد أرثك الأسى وإن قدمتْ عن يوسفٍ كيف صبرُ يعقوبا[1]

وما نقصر المعاني الخُلقية على الشعر الذي يجري مجرى الأمثال، وإنما هي تشمل كل ما أشاد فيه بالشمائل والخصال، ومن الواضح أن هذا الحكم ينساق على جميع المدائح في الشعر العربي؛ ولكن لا مفرَّ من الاعتراف بأن الشريف كان ينوِّه بخلائق الرجال وهو يُحسها أقوى إحساس.

أما بعدُ، فليس من همنا أن نستقصي ما قال الشريف في بهاء الدولة، فذلك بحثٌ يطول، ويكفي أن تكونوا عرفتم أن الشريف عاش مدة وهو في حركة عقلية وذوقية ومعاشية بفضل ذلك الملك، وتشهد قصائد الديوان بأن بهاء الدولة أغدق عليه نعم التشريف والتبجيل وأنه كان يعتمد عليه في كثير من الشئون.

وفي جمادى الآخرة سنة ٤٠٣ مات بها الدولة؛ فرثاه الشريف بهذه القصيد الباكية:

دع الذَّميل إلى الغايات والرّتكا ماذا الطِّلاب أترجو بعدها درَكا[2]
مالي أُكلِّفها التهجير[3] دائبة على الدُّجى وقِوام الدين قد هلكا
حُلَّ الغُروضَ فلا دار ملائِمةٌ ولا مَزُورٌ إذا لاقيتَه ضحكا[4]
اليوم صرَّحت الجُلى وقد تركتْ بين الرجاء وبين اليأس معتَركا[5]
رزيئةٌ لم تَدَع شمسًا ولا قمرًا ولا غمامًا ولا نجمًا ولا فَلَكًا
لو كان يُقبَل من مفقودها عِوضٌ لأنفق المجدُ فيها كل ما مَلَكا
قد أُدهش المُلك قبل اليوم من حَذَر وإنما اليومَ أذرى دمعه وبكى

(١) الأسى: بضم الهمزة جمع أسوة وهي القدوة في العزاء.
(٢) الذميل والرتك: من ضروب السير.
(٣) التهجير: السير في وقت الهجير.
(٤) الغروض: جمع غرض وهو للرحل كالحزام للسرج.
(٥) الجلى: الأمر العظيم.

أمسى بها عاطلاً من بعد حِليتهِ ... وهادمًا من بناء المجد ما سمكا[١]
مَن للجياد مراعيها شكائمُها ... يحمِلْن شَوك القنا اللذاع والشَّككا؟[٢]
يطا بها تحت أطراف القنا زلقًا ... من الدماء ومن هام العدا نَبَكا[٣]
من للظبا يختلي زرع الرقاب بها ... حكم القصاقص لا عقلٌ لما سفكا؟[٤]
من للقنا جعلت أيدي فوارسه ... من للقلوب لها الأطواق والمسكا؟[٥]
من للأسود نهاها عن مطامعها ... فكم وردنَ فريسًا بعد ما انتهكا؟
من للخطوب ينجِّي من مخالبها ... وينزع الظفر منها كل ما سدكا؟[٦]
من معشر أخذوا الفضلَى فما تركوا ... منها لمن يطلب العلياء متَّرَكا
قُدَّوا من البيض خَلقًا والحيا خُلُقًا ... عيصًا ألف بعيص المجد فاشتبكا[٧]
لو أنهم طبعوا لم ترض أوجههم ... داري الليل لو كانت لها سلكا
هم أبدعوا المجد لا أن كان أولهم ... رأى من الجد فعلاً قبله فحكى
الراكبين ظهورًا قلما رُكِبتْ ... والمالكين عنانًا قلما مُلِكا
يا صفقةً من بياع كلها غَرَرُ ... مَن ضامن للعلا من بعدها الدركا[٨]
خلالها كل ذئب مَعْ أكيلتهِ ... من واقع طار أو من عاجز فنكا
الموت أخبث من أن يرتضي أبدًا ... لا سُوقةً بدلًا منه ولا مَلِكا
لا تتْبعوا في المساعي غير أخصهِ ... فأخصرُ الطُّرق في العلياء ما سلكا
ما مثلُ قبرك يُستسقَى الغمام لهُ ... وكيف يسقي القطار النازل الفَلكا؟

---

(١) سمك البناء: ارتفع.
(٢) الشكك جمع شكه بالكسر: وهي السلاح.
(٣) النبك: جمع نبكة بالتحريك وتسكن وهي أكمة محدودة الرأس.
(٤) الاختلاء: القلع، والقصاقص: الأسد، والعقل: الدية.
(٥) المسك: جمع مُسكة بالضم وهي ما يمسك به.
(٦) سدك: ثبت ولزم.
(٧) العيص: بالكسر الشجر الكثيف الملتف.
(٨) الغرر: بالتحريك وهو المعرض للضياع.

لا يُبعِـــد الله أقوامًـــا رُزِئـــتهمُ ... لو ثُلِّموا من جُنُوب الطود لانهتكا![1]
فقـدتهم مثـلَ فقـد العـين ناظرهـا ... يبكـي عليهـا بهـا يـا طـول ذاك بُكـا
إذا رجـا القلـب أن ينـسيه غـصتهُ ... من يُحدِث الدهر أدمى قرحه ونكـا
إن يأخـذ المـوت منَّـا مـن نـضنُّ بـهِ ... فـما نبـالي بمـن بقّـى ومـن تركـا
إنّي أرى القلـب ينـزو لادّكـارهمُ ... نَزْو القطاطـة مـدُّوا فوقهـا الشّرَكا[2]
لا تبـصر الـدهر بعـد اليـوم مبتـسمًا ... إن الليـالي أنـست بعـده الـضحكا

وكذلك كان بهاء الدولة آخر من اعتز الشريف بمدحه بين الملوك، وربما كان صادقًا فيما ادعاه من ذهاب الضحك بذهاب ذلك الفقيد، فإنَّ الشريف لم يُعمَّر من بعده طويلًا.

(١) هذا المعنى نفيس جدًّا.
(٢) القطاطة: هي القطاة.

العلا والمعالي في قصائد الشريف

أيها السادة

أريناكم فيما سلف صورًا كثيرة من صلة الشريف بعصره، وصلاته بمن عرف فيه من عُلماء وشعراء وأمراء وخلفاء وملوك، وأريناكم كيف عرف النعيم والبؤس والضحك والبكاء.

والآن نحدثكم عن غرامه بالمجد، وهيامه بالعلياء، وفنائه في التخلق بأخلاق الأبطال.

والشريف في هذه الناحية هو صورة الشاعر الحق؛ لأن الشاعر الحق لا يخلو قلبه أبدًا من التسامي إلى كرائم المقاصد وشرائف الغايات، وهو قد يلهو وقد يلعب، ولكنه يظلُّ مشغول القلب بما يتسامى إليه، وتدور خواطره حول أمانيه في كل وقت، وإنْ ظنَّه الناس من اللاهين.

وما رأيتم من لَهْوِ الشريف، وما سترون لم يكن لَهْوَ خِصيان، وإنما كان لَهْو فحول، فهو لم يكن في غرامياته من الشعراء الضعفاء الذين يستريحون إلى البكاء والأنين، وإنما كان شاعرًا فحلًا يرى الحُسْن لم يُخْلَق إلا لغرامه الجَموح، وسترون فيما بعد أنه تزوج وأنجب، ولم يترك الدُّنيا إلا وهو ملء العيون والقلوب.

أيها السادة

نحن مُقْبِلون على مصافحة الجبل الأشمِّ، نحن مقبلون على مواجهة الفارس الذي بذَّ جميع الفرسان حين قال:

نبهتُهم مثل عوالي الرماح ... إلى الوغى قبل نُمُوم الصباح
فوارسٌ نالوا المُنَى بالقَنا ... وصافحوا أغراضَهم[1] بالصِّفاح

(١) في الديوان "أعراضهم" والصفاح: السيوف.

لغـــارةٍ ســـامعُ أنبائهـــا ... يَغَـصُّ منهـــا بـــالزُّلال القَـــرَاح
لـــيس عـــلى مُـــضْرِمها سُـــبَّةٌ ... ولا عـــلى المُجلِـــب منهـــا جُنـــاح[1]
دونكـــمُ فابتـــدروا غُنْمهـــا ... دُمَـــى مباحـــاتٌ ومـــالٌ مبـــاح[2]
فإننـــا في أرض أعـــدائنا ... لا نطـــأ العـــذراء إلا سِـــفاح[3]
يـــا نَفـــسُ مـــن هـــمٍّ إلى هِمَّـــةٍ ... فلـــيس مـــن عِـــبء الأذى مُستراح
قـــد آن للقلـــب الـــذي كـــدَّهُ ... طـــولُ مُناجـــاة المُنـــى أن يُـــراح
لا بـــدَّ أن أركبهـــا صـــعبةً ... وقاحـــةً تحـــت غـــلام وَقَّـــاح[4]
يُجهِـــدها أو يَثنـــي بـــالردى ... دون الـــذي قـــدَّر أو بالنجـــاح
الـــراحُ والراحـــةُ ذلُّ الفتـــى ... والعـــزُّ في شرب ضَريـــب اللقـــاح[5]
في حيـــث لا حُكَـــم لغـــير القنـــا ... ولا مُطـــاعٌ غـــير داعـــي الكفـــاح
وأشـــعثِ المفـــرِق ذي همـــةٍ ... طوَّحـــه الهـــمُّ بعيـــدًا فطـــاح
لمـــا رأى الـــصبر مـــضِرًّا بـــه ... راح ومـــن لا يُطِـــق الـــذل راح
دفعًـــا بـــصدر الـــسيف لمـــا رأى ... أن لا يُـــرَدَّ الـــضيمُ دفعًـــا بـــراح
متـــى أرى الـــزوراء مُرْتجَّـــةً ... تمطـــر بـــالبيض الظُّبـــا أو تُـــراح؟
يـــصيح فيهـــا المـــوت عـــن أَلْسُن ... مـــن العـــوالي والمـــواضي فِـــصاح
بكُـــلِّ روعـــاءَ عَظِينيَّـــةٍ[6] ... يحثُّهـــا أروع شـــاكي الـــسلاح
كـــأنَّما ينظـــر مـــن ظلِّهـــا ... نعامـــةً زيَّافـــةً بالجنـــاح

---

(١) المجلب في هذا البيت هو الذي يكثر الصياح من الفزع، والمراد وصف هذه الحرب بالقسوة والعنف بحيث لا يكون على الهارب منها جُناح.
(٢) الدمى: جمع دمية بالضم، والمراد بها المرأة الجميلة، وهي في الأصل صورة توضع في المحراب.
(٣) هذا البيت قوي جدًّا.
(٤) الغلام هو الفتى في شعر الشريف، والوقاحة هي الشجاعة.
(٥) الضريب: اللبن، واللقاح: النوق، والمفرد لَقُوح على وزن صَبُور.
(٦) العظينيَّة: المنتفخة البطن من أكل العظون، وهو شجر (أحمد عباس الأزهري).

متى أرى الأرض وقد زُلزلت ... بعارض أغبرَ دامي النَّواح؟[1]
متى أرى الناس وقد صبَّحوا ... أوائل اليوم بطعن صُراح؟
يلتفت الهارب في عِطْفِهِ ... مروَّعًا يرقُب وَقْع الجِراح
متى أرى البِيض وقد أمطرت ... سيل دم يَغلب سيل البِطاح؟
متى أرى البيضة[2] مصدوعةً ... عن كل نشوانَ طويلِ المِراح؟
مضمَّخ الجِيد نَؤوم الضُّحى ... كأنَّه العذارةُ ذات الوِشاح
إذا رَدَاح الرَّوع عنَّت لهُ ... فسرَّ إلى الكَعاب الرَّداح[3]
قومٌ رَضوا بالعجز واستبدلوا ... بالسيف يَدْمَى غَربُهُ كأس راح[4]
توارثوا الملك ولو أنجبوا ... لوَرَّثوه عن طعان الرماح
غطى رداءُ العزِّ عوراتِهم ... فافتضحوا بالذُّلِّ أيَّ افتضاح
إنيَ والشاتمَ عرضي كمَنْ ... روَّع آسادَ الشَّرى بالنُّباح
يطلب شأوي وهو مستيقنٌ ... أنَّ عناني في يمين الجِماح
فارم بعينيك مليًّا ترى ... وقع غُباري في عيون الطِّلاح
وأرقَ على ظَلَعِك هيهاتَ أنْ ... يُزَعزِع الطَّودُ بمَرِّ الرِّياح
لا همَّ قلبي بركوب العلا ... يومًا ولا بلَّ يدي بالسماح
إنْ لم أنلها باشتراطٍ كما ... شئتُ على بيض الظُّبا واقتراح
يطمح مَنْ لا مجدَ يسمو بهِ ... إني إذًا أُعذَر عند الطِّماح
وخطة يضحك منها الردى ... عراء تبري القوم بري القِداح
صبَّرْتُ نفسي عند أهوالها ... وقلت من هَبْوتها لا بَراح

---

(١) النواح: هي النواحي: أُعِلتْ بحذف الياء.
(٢) البيضة هنا: ما يلبس من الحديد.
(٣) الرَّدَاح على وزن (سَحَاب): هي الكتيبة الثقيلة الجرارة، وهي أيضًا المرأة الثقيلة الأوراك وبهذا يفهم البيت.
(٤) الغَرب بالفتح: حد السيف.

إمـــا فتًـــى نـــال العـــلا فاشـــتفى أو بطـــل ذاق الـــردى فاســـتراح

ماذا ترون، أيها السادة؟ حدثوني، ماذا ترون؟

هل رأيتم في الشعر كله قصيدًا يشبه هذا القصيد؟

إن باب الحماسة في ديوان الحماسة لو وُضِع كلُّه في الميزان لشالت كفته ورجحتْ كِفة هذه القصيدة، ولكن أين من يفهم المعاني؟!

إنَّ هذا القصيد خليقٌ بأن يكون "نشيد الفُتُوَّة العربية"، وأهلٌ لأنْ يحفظه جميع الشبان في سائر البلاد العربية؛ فهو جذوةٌ من الفُتُوَّة، وقبَسٌ من الرجولة، وشِهابٌ من العزم المصمَّم الذي يُطيح المصاعب والأهوال.

أرأيتم:

نبهـــتهم مثـــل عـــوالي الرمـــاحْ إلى الـــوغى قبـــل نمـــوم الـــصباح

أرأيتم هذه الصورة، صورة الفتك، وصورة القائد الذي يختال بما يصنع وهو ينبه جنوده إلى الحرب قبل أن تظهر تباشير الصباح؟!.

أرأيتم كيف وصف جنوده بأنهم مثل عوالي الرماح؟!.

انظروا هذه الصورة، ثم تذكَّروا ما يقابلها من الصور، فهناك شعراء ينبهون رفاقهم أيضًا، ولكنَّهم لا ينبهون إلى الاصطباح بالحرب، وإنما ينبهونهم إلى الاصطباح بالصهباء.

أرأيتم كيف ينبه الجنود:

لغـــــارةٍ ســـــامعُ أنبائهـــــا يَغَـــصُّ منهـــا بـــالزُّلال القَـــراح

أرأيتم هذه الصورة، صورة الحرب التي تُغِصُّ سامعَ أخبارها بالماء القَراح؟ فكيف ترونها تصنع بمن يصطلي لظاها؟

أرأيتم كيف يشوِّق جنوده إلى الحرب؟!، فيقول:

دونكمُ فابتدروا غُنْمَها ... دُمَى مباحات ومالٌ ومباح

فهو يُطْمِعهم فيما سينالون من الأموال ومن النساء، وهي مطامع حسيَّة كانت على الدهر من أعظم مغانم الحروب.

أرأيتم كيف يحدِّد مقامه ومقام جنوده من الحقائق الأخلاقية؟!، فيقول:

فإننا في أرض أعدائنا ... لا نطأ العذراء إلا سِفاح

وهذه الأخلاق تبدو في بشاعة الوحشية، ولكنَّ للشاعر عذرًا وأنتم تلومون، فهو يسجِّل أخلاق الجنود المغاوير، والجنود المغاوير لا يعرفون المصقول من آداب الناس؛ فالجندية هي في ذاتها وحشية، وهل اشتُقَّت الفروسية إلا من الافتراس؟

ثم يقول:

يا نفسُ من همٍّ إلى همَّةٍ ... ليس من عبء الأذى مستراح

قد آن للقلب الذي كدَّهُ ... طولُ مناجاة المُنَى أنْ يراح

فيصوِّر لكم قلق الرجل الطَّمَّاح الذي تُغْرقه مطامحه في بحر من الهموم فلا يرى نجاته في غير القتال.

ثم يقول:

لابُدَّ أن أركبها صعبةً ... وقاحةً تحت غُلام وقاح

يُجهدها أو يثنني بالردى ... دون الذي قدَّر أو بالنجاح

والغلام في هذا الشعر هو الفتى ، والشاعر لا يرى لنفسه غير غايتين: النصر، أو الموت، وهو معنى سيكرره في آخر القصيدة؛ إذ يقول:

إما فتًى نال العُلا فاشتفى ... أو بطل ذاق الردى فاستراح

وهو بهذا سبق الفرنسيين في هذه الحكمة العالية، سبقهم بمئات السنين إلى الحكمة المسطورة على محراب البانتيون في باريس: Vaincre ou mourir.

ولم يكن الشريف أول من قال هذا المعنى بين شعراء العرب، ولكنَّه أورَدَه موردًا قويًّا جدًّا، بحيث لا يكون من المغالاة أنْ نعدَّه من معانيه المبتكرات.

ثم يقول:

الـــراح والراحـــة ذلُّ الفتـــى ... والعِـــزُّ في شرب ضَريـــب اللقـــاح
في حيـــث لا حُكْـــمَ لغـــير القنـــا ... ولا مُطـــاعٌ غـــير داعـــي الكفـــاح

فنفهم عن طريقه أعظم معضلة في تربية الأبدان والنفوس، وهل نسيتم أن الخلفاء كانوا يرسلون أبناءهم ليتربوا في البادية؟ هنا نفهم السر: فاللغويون يظنون أن الخلفاء كانوا يرسلون أبناءهم إلى البادية؛ لينْشَأوا على فصاحة الأعراب، وهذا له وجه، وإنما كان الخلفاء يرسلون أبناءهم؛ لينْشَأوا على الصراحة والصرامة والطغيان. فالحكم في البوادي لا يكون لغير السيف والرمح، وعيشُ البادية مِرانٌ على الخشونة والصلابة والفتك.

وقد سمعتم ألف مرة أن الترف هو داءُ الأمم، وداؤها العقام الذي يعزُّ منه الشفاء، وإنما كان الترف داء الأمم؛ لأنه يجردها من الخشونة التي لا يمكن بغيرها صراعٌ ولا قتال.

إن ربيب البادية هو وحده الذي يقدر على منازلة الطبيعة في رُعودها وبُروقها وجحيمها، أمَّا ربيب الحواضر فهو كما قال توفيق البكري: "غادةٌ ينقُصها الحجاب، ينظر في المرآة، ولا ينظر في كتاب"، أو كما قال الشريف:

مـــضمَّخ الجِيـــد نَـــؤوم الـــضُّحَى ... كأنـــه العـــذراءُ ذاتُ الوشـــاح
إذا رَدَاح الـــروع عنَّـــت لـــه ... فـــرَّ إلى ضـــم الكعـــاب الـــرداح

وأنتم ترون أنَّ الأمم التي ليست عندها بادية، تخلق لنفسها بادية، وهل

وأنتم ترون أنَّ الأمم التي ليست عندها بادية، تخلق لنفسها بادية، وهل كان نظام الكشافة إلا رجوعًا إلى النظام البدوي الذي مكَّن أسلافنا من أن يكونوا أشجارًا قوية تقاوم الزعازع في مختلف البقاع والأجواء؟.

إنما كان الترف داء الأمم؛ لأنه يورث اللين، والشَّاب اللَّيِّن لا يصلح لقتال ولا صراع.

ويصوِّر الفتى الصوَّال فيقول:

وأشعثِ المفرق ذي همةٍ ... طوَّحه الهمُّ بعيدًا فطاح
لمَّا رأى الصبر مضِرًّا به ... راح ومن لا يُطِق الذُّل راح
دفعًا بصدر السيف لما رأى ... أن لا يُرَدُّ الضيمُ دفعًا براح

فالفتى عنده هو الأشعث المفرِق، أمَّا صاحب المفرق المعطر فليس من الفتيان، الفتيان المغاوير الذين يأبون الضيم، ويقارعون الخطوب، وأنتم قد ترون في دنياكم فتيانًا من أبناء الزمان يضيِّعُون في تزيين مفارقهم ما يضيِّعون، وهم فتيان لهم شأن في التمدن الحديث، وإليهم مصاير الأمور في أكثر الأحيان، ولكنهم سيظلون حيث وَقَفَتْهُمْ نفوسهم الصغيرة، فلا يعرفون دفع الضيم بالسيف حين لا يغنى دفعه بالراح، فهم كما قال الشريف:

قوم رضوا بالعجز واستبدلوا ... بالسيف يدمَى غَرْبُهُ كأس راح
توارثوا الملك ولو أنجبوا ... لورَّثوه عن طعان الرماح

وللشريف في هذه القصيدة إشارات لا تخفى عليكم، فقد وجَّه إليخصومه كلمات أشد من وقع النَّبل، وحق لمثله أن يقول:

يطمح من لا مجدَ يسمو به ... إني إذًا أُعذَر عِند الطِّماح

صدقت أيها البطل، صدقت!

ويتوثب الفارس إلى الفتك فيقول:

سأتركُ في سمع الزمان دَوِيَّها ... بقرعَيْ ضراب صادقٍ وطعان
وأخصف أخفاقًا بوقع حوافر ... إلى غاية تقضي منيّ وأماني
فإن أسْر فالعلياء همّي وإن أُقِمْ ... فإنّي على بكر المكارم باني
وإنْ أمضِ أترك كلَّ حيٍّ من العدا ... يقول: ألا لله نفسُ فلان!

فهذا الفارس ينكر الترقب، ويراه من العجز، ويشوِّقه أن يتأثر المتنبي الذي كان يرى المجد في الفتك والطعان، ويؤمن بأنه الفائز في كل حال، فهو إن نهض فإلى الحرب، وإن قعد فلبناء المجد، ويشعر بأنَّ أعداءه سيترحَّمون عليه يوم يموت.

والأبيات الآتية قالها الشاعر في مطلع صباه، والظاهر أنه كان مفطورًا على الفتوَّة منذ الحداثة، وإلا فكيف صح له أن يقول وهو في سن المراهقين:

ستعلمون ما يكون منّي ... إن مَدَّ من ضبعيَّ طولُ سنّي
أأدَّعُ الدنيا ولم تَدَعْني ... يلعبُ بي عناؤها المعنّي؟
ناطحةً بالجُمِّ هام القِرن ... نطاحَ رَوْقِ الجازئ الأغنّ[1]
وسِعْتُ أيامي ولم تَسَعْني ... أفْضُل عنها وتضيق عني
لِمْ أنا مثلُ القاطن المُبِنّ[2] ... أسحب بُرْدَيْ ضَرَع وأفن[3]
ولي مضاءٌ قطُّ لم يَخُنّي ... ضميرُ قلبي وضميرُ جَفني[4]
أحصُل من عزمي على التمنّي ... وليتني أفعل أو لو انّي
راض بما يُضوي الفتى ويُضني ... سَّس آبائي وسوف أبني
قد عزَّ أصلي ويعزُّ غصني ... غَنِيتُ بالمجد ولم أستغن

(١) الجمّ: جمع أجمّ، وهو الرجل بلا رمح، والكبش بلا قرن. والقِرن بالكسر :هو كفؤك في الشجاعة. والرَّوق بالفتح: القِرن، والجازئ الأغنّ: كناية عن الظبي.
(٢) الضَرَع بالتحريك: هو الذُّل. والأفن: ضعف العقل.
(٣) يقال: بن بين، وأبن يبن إذا أقام، فالمُبنّ: هو القيم.
(٤) ضمير الجفن: هو العين وقد يراد به السيف.

قد عزَّ أصلي ويعزُّ غصني ... غنيتُ بالمجد ولم أستغن
إن الغِنَى مجلبةٌ للضَّنِّ ... وللقُعود والرضا بالوَهْن
الفقر يُنْمَى والثراء يُدني ... والحرص يُشقي والقُنوع يُغني
إن كنتُ غير قارح فإني ... أبذُّ جَرْيَ القارح المُسِنِّ[1]
جُنِنْتُ بأسًا والشجاع جنِّي ... آثارُ طعن الدهر في مجنِّي
تشهد لي أن الزمان قِرني ... سوف ترى غبارها كالدَّجن
قساطلا مثل غوادي المُزن ... تجري بضرب صادق وطعن[2]
جريَ عزالي[3] المطر المستنّ ... إن غِبتُ يومًا عنك فاطلبني
بين المواضي والقنا تجدني ... أمام جيش كجُنُوب الرَّعن[4]
جون الذُّرَا أقود مُرْجَحِنَّ ... أنفُضُ عنِّي نقعَه بِرُدني[5]
لتعرفنِّي ولتعرفني ... أيام أُفني بالقنا وأُغني
أُقِرُّ عين الفاقر[6] المُرِنِّ ... عساي أنفي الضيم أو لعنِّي
كم صبر خافي الشخص مستجن ... منطمر من الأذى في سجن
مرتهن بهمة تعني ... يا ليتها بنهضة فدتني
من قبل أن يَغْلق يومًا رهني[7] ... متى تراني والجواد خِدني
والنَّصل عيني والسنان أُذني ... وأُمِّيَ الدرع ولم تلدني

---

(١) القارح من ذوي الحافر: بمنزلة البازل من الإبل.
(٢) القساطل: جمع قسطل، أو قسطال وهو الغبار.
(٣) العزالي: جمع عزلاء وهي في الأصل مصبُّ الماء من الراوية.
(٤) الرَّعَن بالفتح: أنف يتقدم الجبل.
(٥) الأقود: المستطيل. والمُرْجَحِنّ: المرتفع. والنقع: الغبار. والردن: الكم.
(٦) في الديوان (الفاقد)، والفاقر أظهر في المعنى، وهو الذي يكسر الفقار. والمرن: المصوت، ويقال أيضًا: قوس مرنان. و (لعنِّي) لغة في (لعلِّي).
(٧) قال الفيروزأبادي: غلق الرهن كفرح استحقه المرتهن، وذلك إذا لم يفتك في الوقت المشروط، قلت: وهذه العبارة هنا: كناية عن الموت.

أجـرُّ فـضل ذيلهـا الـرفن[1] ... مـا احتـبس الـرزق فـساء ظنـي
ولا قرعـتْ مـن قُنـوطٍ سـني ... يـا أيهـا المغـرور لا تهجنـي
وعـذ بإغـضائيَ واسـتغذني ... واحـذر عـداء قـاطع في ضـمني
ينطـق عنـي بلـسان ضـغني ... نبهـت يقظـان قليـل الأمـن
مخـرَّق الثـوب بطعـن اللُّـدن[2] ... يـا دهـر سـيفي معقـلي وحـصني
والخـوف يغـري طلبـي فخِفْنـي ... يـا ليـت مقـدروك لم يـؤمْني[3]
جنيـت مـن قبـلُ وسـوف أجنـي ... أثنـي يـديّ والعـزم أن أُثنـي

فما رأيكم في هذا الطفل الذي أنضجه العزم، وسقته نفسه ذوب الحديد المتوقد؟

ما رأيكم في الطفل الواعد الذي يصرخ فيقول:

سـتعلمون مـا يكـون منـي ... إن مـدَّ في ضـبعيَّ طـولُ سـني

ما رأيكم في الطفل الذي يبدأُ بمحاسبة نفسه فيقول:

أأدع الـدنيا ولم تـدَعني ... يلعـب بي عناؤهـا المعنِّـي

ما رأيكم في الطفل الذي يرى نفسه قرين الزمان:

إن كنـت غـير قـارح فـإني ... أبـذُّ جـري القـارح المـسن
جُننـت بأسًـا والـشجاع جنـسي ... آثـارُ طعـن الـدهر في مجنـي
تـشهد لي أن الزمـان قَـرني ... وسـوف تـرى غبارهـا كالـدجن

ما رأيكم في الذي يتشوَّف إلى مصيره في الفتوَّة فيقول:

متـى تـراني والجـواد خِـذني

---

(١) الرفن: الطويل.
(٢) اللدن: الرماح.
(٣) لم يؤمْني: لم يصبْني.

والنَّصْلُ عيني والسنان أُذني
وأُمِّي الدرع ولم تلدني

إنَّ هذه القصيدة من أنفَس ما قال الفتيان، فليحفظها وليتأدب بها كرام الفتيان.

وصح لهذا الفارس وهو في السادسة عشرة أن يقول:

أمِنْ شوقٍ تعانقني الأماني ... وعن ودٍ يخادعني زماني؟
وما أهوى مصافحة الغواني ... إذا اشتغلت بناني بالعنان
عدمت الدهر كيف يصون وجهاً ... يعرِّض للضراب وللطعان ؟
تعرَّفني بأنفسها الليالي ... وآنف أن أُعرِّفها مكاني
أنا ابن مفرِّج الغمرات سوداً ... تلاقي تحتها حلق البِطَان[1]
وجدي خابط البيداء حتى ... تبدَّى الماء من ثغب الرعان[2]
قضى وجياده حول المعالي ... ووفدُ ضيوفه حول الجفان
تُكفِّنه ظُبا البيض المواضي ... ويغسِله دم السُّمر اللدان
نشرت على الزمان وشاح عز ... ترنح دونه المقل الرواني
خفيري في الظلام أقبُّ نهدٌ ... يساعدني على ذمِّ الزمان[3]
جواد تُرْعد الأبصار فيه ... إذا هزأت برجليه اليدان
كأنِّي منه في جاري غدير ... أُلاعب من عناني غصن بان
حيِيٌّ الطرف إلا من مكرٌّ ... يبين من خلائقه الحسان
إذا استطلعته من سجف بيت ... ظننت بأنه بعض الغواني

---

(١) البطان على وزن كتاب: حزام القتب.
(٢) الرعان: جمع رعن، وهو أنف الجبل ،أو الجبل الطويل. والثغب بالتحريك: هو الغدير.
(٣) الأقب: الضامر. والنهد: الفرس الحسن الجميل.

سأطلع من ثنايا الدهر عزمًا ... يسيل بهمَّة الحرب العوان
ولا أنسى المسير إلى المعالي ... ولو نسيتْهُ أخفاف الحواني[1]
وكنَّا لا يروِّعنا زمان ... بما يعدي البعاد على التداني
ونأنف أن تُشبِّهنا الليالي ... بشمس أو سنا قمر هِجَان[2]
فها أنا والحبيب نودُّ أنَّا ... تدانينا ونحن الفرقدان
ولبل أدْهم قلق النَّواصي ... جعلت بياض غرته سناني
وصبح تطلع الآجال فيه ... وناظر شمسه في النقع عاني[3]
عقدت ذوائب الأبطال منه ... بأطراف المثقفة الدواني

والأغرب والأعجب أنْ تعلموا أنَّ هذا الشعر هو مطلع قصيدة في المدح وهي تجربة طريفة؛ فقد كان الشعراء يبدءون قصائد المدح بالنسيب، وكثر منهم ذلك حتى صح للمتنبي أن ينقدهم فيقول:

إذا كان مدحٌ فالنسيب المقدم ... أكُلُّ فتى قد قال شعرًا مُتيَّمُ

والمهم أن تعرفوا ما في هذه القصيدة من الشاعرية، المهمُّ أن تعرفوا أن ذلك الفتى كان يشعر بأنه أعلى من الأماني والزمان؛ فيقول:

أمن شوق تعانقني الأماني ... وعن ودٍّ يخادعني زماني؟

وأي شاعرية أمجد وأعظم من شاعرية من يُمْتدَح بأن جدَّه كفنته السيوف، وغسلته الرماح:

قضى وجيادهُ جول العوالي ... ووفدُ ضيوفه حول الجفان
تكفَّنه ظُبا البيض المواضي ... ويغسِله دم السُّمر اللدان

---

(١) المراد بالحواني: الإبل. والشاعر يتمثلها دائبة الحركة.
(٢) الهجَان على وزن كتاب: الخالص البياض.
(٣) العاني: هو الأسير.

وهل رأيتم أحلى وأعذب من شاعرية الفارس الذي تغزل في جواده فيقول:

خفيري في الظلام أقبُّ نَهْدٌ ... يساعدني على ذمِّ الزمانِ
جوادٌ تُرعَد الأبصار فيه ... إذا هزأت برجليه اليدان
كأني منه في جاري غدير ... أُلاعب من عناني غُصن بان
حييٌّ الطرف إلا من مِكَرٍّ ... يبيِّن من خلائقه الحسان
إذا استطلعتَهُ من سَجْف بيتٍ ... ظننتَ بأنَّه بعض الغواني

ذلكم هو الفارس، وتلكم هي الفروسية، والذي يقول هذا الشعر فتًى كان يرشِّح نفسه لإمارة الحج، ومنصب القضاء، ونقابة الأشراف، وكذلك كان أسلافنا فتيانًا يستهويهم جمال الخيل وميادين القتال.

وقد ظن جامع الديوان أن الشريف وصف الأسد، وما وصف الشريف الأسد بلى، وصف الشريف الأسد؛ لأنه وصف نفسه، فقال:

سيُرعِب القومَ مني سَطْوُ ذي لبد ... له بعثَّرَ أعراسٌ وولدان[1]
لا يَطعَم الطُّعم إلَّا من فريستهِ ... إنْ يعدَم القِرن يومًا فهو طيَّان[2]
ماشَى الرفاق يراعي أين مسقطهم ... والسمع منتصب والقلب يقظان
يستعجل الليلة القمراء أوبتها ... إذا بنو الليل من طول السُّرى لانوا
حتى إذا عرَّسوا في حيث تُفرشِهم ... نمارقَ الرمل أنقاءٌ وكثبان
دنا كما اعتسَّ ذو طِمرين لَمَّظه ... من فضلة الزاد بالبيداء ركبان[3]
ثم استقرت به نفس مشيَّعةٌ ... لها من القَدَر المجلوب مِعْوان
فعاث وما عاث واستَبلى عقيرتهُ ... يجرها مطعم للصيد جَذلان

---

(١) عَثَّر بفتح العين، وفتح الثاء مشددة: اسم مأسدة.
(٢) طيَّان: جائع، وهو من الطوى.
(٣) عسَّ، واعتسَّ: طاف بالليل. والتلمظ تتبع اللُّماظة بالضم: وهي بقية الطعام.

قِرنٌ إذا طلب الأوتار عن عرض ... لم تفَد منه دماءَ القوم ألبان
وغلمة أخذوا للروع أُهبتهُ لف ... البطون على الأعواد خُمصان[1]
طارت بأشباحهم جُرْدٌ مسوَّمةٌ ... كأنما خطفت بالقوم عقبان
من كل أعنقَ ملطوم بغُرتِه ... كأنَّه من تمام الخلق بنيان[2]
يمدُّ للجَرس مثل الآستين إذا ... خان التوجس أبصارٌ وآذان[3]
فاستمسكوا بنواصيها وقد سقطت ... من غائر الجري ألباب وأرسان
كعمت فاغرة الثغر المخوف بهم ... يهفو بأيمانهم نَبْعٌ ومُرَّان[4]
كأنَّ غرَّ المعالي في بيوتهمُ ... بيضٌ عقائل يحميهن غَيْرانُ
إلى كم الرحم البلهاء شاكية ... لها من النعي إعوالٌ وإرنان
حيرى يُضِلُّونها ما بيننا ولها ... منَّا على عُدَوَاء الداء نِشدان
النَّجْر متفقٌ والرأي مختلفٌ ... فالدار واحدة والدين أديان[5]
وثمَّ أوعية الإحسان مكفأَة ... فوارغٌ ووعاءُ الشر ملآن
إنَّا نُجِرُّهُمُ[6] أعراضنا طمعًا ... في أن يعودوا إلى البُقْيا كما كانوا
أنَّى يُتاه بكم في كل مظلمة ... وللرشاد أماراتٌ وعنوان
مِيلوا إلى السَّلم واسعةٌ ... واستوضحوا الحقَّ إن الحقَّ عُريان
يا راكبًا ذرعتْ ثوبَ الظلام به ... هوجاءُ مائلة الضبعين مِذعان
أبلغْ على النأى قومي إن حللت بهم ... أنَّى عميدٌ بما يلقون أسوان

---

(١) خمصان: ضامرون.
(٢) الأعنق: القوي العنق. وملطوم بغرته: كناية عن البياض.
(٣) الجرس: الصوت أو خفي الصوت. والآستان: مثنى آسة، واحد الآس وهو يصف الجواد بدقة السمع.
(٤) كعمت بهم الثغر المخوف: سددته بهم. والكعم في الأصل: شد فم البعير؛ لئلا يعض. والنبع والمُرَّان من الأشجار: التي تتخذ منها الرماح.
(٥) النجر بالفتح هو الأصل.
(٦) نجرهم أعراضنا: نطعمهم أعراضنا، كناية عن الصفح.

يـا قـوم إنَّ طويـل الحلـم مفَـسدةٌ ... وربـمـا ضرَّ إبقـاءٌ وإحـسان

مـالي أرى حوضـكم تعفـو نـصائبُهُ ... وذودُكـم ليلـة الأوراد ظمـآن[1]

مـدفَّعين عـن الأحـواض مـن ضَرَع[2] ... ينـضو بهـامكم ظلـمٌ وعـدوان[3]

لا يُرهَـبُ المـرءُ مـنكم عنـد حفظتـهِ ... ولا يراقَـبُ يومًـا وهـو غـضبان[4]

إن الأولى لا يعـزُّ الجـار بيـنهمُ ... ولا تُهـان عـواليهم لـذُلَّان[5]

كـم اصـطبارٌ عـلى ضـيم ومنقـصةٍ ... وكـم عـلى الـذل إقـرارٌ وإذعـان

وفـيكم الحامـل الهمهـام مـسرحةُ ... داج ومـن حَلَـق المـاذيِّ أبـدان[6]

والخليـل مخطفـة الأوسـاط ضـامرةٌ ... كـأنَّهنَّ عـلى الأطـواد ذؤبـان

اللهَ اللهَ أن يبتـزَّ أمـرَكم ... راع رعيتُـه المعـزيُّ والـضان[7]

ثُـوروا لهـا ولـتهُن فيهـا نفوسُـكُم ... إن المناقـب لـلأرواح أثـمان

فمِـنْ إبـاء الأذى حلَّـت جماجمهـا ... عـلى مناصـلها عـبسٌ وذبيـان

وعن سيوف إباء الضيم حين سَطَوْا ... مـضى بغـصته الجعـديُّ مـروان

فـإن تنـالوا[7] فقـد طالـت رمـاحُكمُ ... وإن تُنـالوا[7] فللأقـران أقـران

ذلك وصف الأسد كما تصوَّره جامع الديوان، فماذا ترون في هذا القصيد؟

إن الشاعر هنا قويُّ الروح جدًّا، ولا يمكن إدراك قوة الروح في هذا

---

(١) النصائب: حجارة حول الحوض، ويشد ما بينها من الخصاص وبالمدر المعجون. والأذواد: جمع ذود بالفتح، وهو جماعة الإبل.

(٢) الضَّرَع بالتحريك: هو الذُّل.

(٣) الحِفظة بالكسر: هي الحمية والغضب، ومثلها الحفيظة.

(٤) ذُلَّان بالضم: ذليل.

(٥) الهمهام: الأسد. والماذيّ: كل سلاح من الحديد.

(٦) بالبناء للمفعول.

(٧) بالبناء للفاعل.

القصيد إلَّا بقراءته مرتين أو مرات، وهو شبَّه نفسه بالأسد، وساقه ذلك إلى وصف الأسد، ولكن أي وصف؟ إنه وقف عند المعاني النفيسة التي تصور ما في الأسد من عزَّة وكبرياء.

ثم تحدث عن رفاقه في الحرب أجلَّ حديث فجعل المعالي في بيوتهم بيضًا عقائل تحميها الغيرة، ويحرسها الإباء.

ثم التفت إلى قومه فعنَّفهم على التنابذ والتقاطع، وعجب من أن يتفق الأصل ويختلف الرأي، وجزع من تعدد الأديان مع وحدة الوطن.

ثم استصرخهم إلى حماية الوطن، وذكَّرهم بالذين نثروا جماجمهم على المناصل في سبيل الحفاظ.

والقصيدة جيدة جدًّا، ومن العجب أن يسكت عنها نقاد المعاني.

وللشريف قصائد طوال قصرها على همومه في المعالي، منها الميمية:

أرى نفسي تتوق إلى النجوم ... سأحملها على الخطر العظيم

وفيها يقول:

ولي أملٌ كصدر الرمح ماض ... سوى أن الليالي من خصومي
ويمنعني المدامَ طروق همِّي ... فما يحظَى بها إلا نديمي
وما أوفت على العشرين سني ... وقد أوفى على الدنيا عزيمي[1]

وله فيها نفثات موجعات:

أرى الأيام عاديةً علينا ... بِبِيضٍ من نوائبها وشِيم[2]
يضلُّ نفوسَنا داءٌ عُقامٌ ... فيُسلمنا إلى أرض عقيم

---

(١) في الديوان (غريم) وهو تحريف، العزيم: مذكر العزيمة.
(٢) الشيم: جمع شيماء، وهي السوداء.

ونُتبع بالدموع وأيُّ دمع ... يُجير ولو أقام على السُّجوم
ويُفردنا الزمان بسلا قريب ... يُذِمُّ من الزمان لا حميم[1]
ونلقى قبل لقيان المنايا ... رماحَ الداء تطعن في الجسوم[2]

وفيها يقول:

ألا مَن مبلغ الأحياء أني ... قطعتُ قرائن الزمن القديم؟
وأنِّي قد أبيتُ مقامُ رحلي ... بوادي الرمث أو جبل الغميم
وعن قُرب سيشغلني زماني ... برعي الناس عن رعي القُروم[3]
وما لي من لقاء الموت بدٌّ ... فما لي لا أشدُّ له حزيمي[4]
سألتمس العُلا إمَّا بعُرب ... يروُّون اللهاذم أو بِرُوم

وهذا كلامٌ نفيس جدًّا، وهو قويُّ الدلالة على خطر ما كان يصطرع في تلك النفس من آمال.

وله ميمية أخرى منها هذه الأبيات:

وما ابنُ غِيل تُذيع الموتَ طلعتُهُ ... إذا تطلَّعَ غَضبانًا من الأجم[5]
يجلو دُجَى شدقه عن صبح عاصلة ... مطرورة كشَبا المطرورة الخذُم[6]

---

(١) يذم من أذم، إذا رفع أسباب الذم واللوم.
(٢) سنذكر في (بكاء الشباب) بالجزء الثاني أن الشريف كان يشكو علة خفية يكتمها عن الناس، وهذا البيت من شواهد ذلك.
(٣) القروم: الفحول، بمعناها الأصلي، والمعنى: أنه سينتقل من رعاية الإبل إلى رعاية الناس.
(٤) الحزيم على وزن أمير: هو الصدر.
(٥) الغيل: هو الشجر الكثير الملتف، وهو الأجمة.
(٦) العاصل والعصلة: السهم الشديد، والمراد الناب. والمطرورة: المحددة. والخذم: القاطعة.

يومًـا بأقـدم منـي في مُلملمـةٍ[1] شَعْواءَ تعزِف بالعقبان والرَّخم

وله ثالثة جمع فيها بين الفخر والنسيب، فقال:

ألا خبرٌ عن جانب الغَور واردٌ تَرامَى به أيدي المطيِّ الرواسم
وإني لأرجو خطوةً لوذعيَّةً تُجيب بنا داعي العُلا والمكارم
نداوي بها من زفرة الشوق أنفسًا تطلعُ ما بين اللهى والحيازم
وإنِّي على ما يوجب الدهر للفتى لو سامه حمل الأمور العظائم
مقيمٌ بأطراف الثنايا صبابة أُسائل عن أظعانكم كل قادم
وأرقب خفَّاق النسيم إذا حدا من الغرب أعناق الرياح الهواجم
بناتِ السُّرى هذا الذي كان قلبُهُ يَسُومك أن تصلَي بنار العزائم
ومن كل وضَّاح الحسام مشمرًا إذا شحبت فينا وجوه الأراقم
إذا شهد الحربَ العوانَ تدافعتْ صدور المواضي في الطلى والجماجم
وعفَّر فرسان العدا ودماؤهم جوامدُ ما بين اللحى والعمائم
حدا فقدُهُ كلَّ العيون إلى البكا فقطَّع أرسان الدموع السواجم
وما خطرتْ منه على المجد زلةٌ فيقرع في آثارها سِنَّ نادم
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً ألاطمُ أعناق الرُّبا بالمناسم؟
وهل تقذف البيداءُ رحلي إليكمُ تنفِّس عن ليلي أنوف المخارم؟
ولا بدَّ أن ألقى العدا في حميلة من الخيل تولي بالقنا والصورام

والجمع بين الفخر والنسيب كثير في شعر الشريف، وهو شاهد على اشتباك النوازع في تلك الروح، فذلك قلب يجمع بين العنف واللطف، والقسوة واللين، وهو قلبٌ عامر النواحي، فيه حنان الأطفال، وصيال الأبطال، ويرقّ فتحسبه نسيبًا، ويقسو فتحسبه جحيبًا، وانظروا كيف يقول وهو يجمع بين الفخر والنسيب:

---

(١) الململة: هي الحرب.

يـا دارُ مـا طربـتْ إليـكِ النـوقُ ... إلا وربعُـك شـائقٌ ومـشوقُ
جاءتـك تمـرح في الأزمَّـة والـبُرَى ... والزجـرُ وِردٌ والـسِّياط عَلِيـق
ونَحـنُّ مـا جـدَّ المـسير كـأنَّما ... كـلُّ الـبلاد محجَّـرٌ وعقيـق
دارٌ تملَّكهـا الفـراق فرِقُّهـا ... بالمَحْـل مـن أسر الغـمام طليـق
شرِقَـتْ بأدمعهـا المطـيُّ كـأنما ... فيهـا حنـين اليَعْمَلات شـهيق
الآنَ أقبـل بي الوقـارُ عـن الـصبا ... فغضـضت طـرفي والظبـاء تـروق
ولـو انَّنـي لم أُعـطِ مجـدي حقَّـهُ ... أنكـرت طعـم العِـزِّ حـين أذوق
رُمـتُ المعـالي فـامتنعنَ ولم يـزلْ ... أبـدًا يمانـع عاشـقًا معـشوق
وصـبرت حتـى نلـتهنَّ ولم أقـل ... ضـجرًا دواءُ الفـارك[1] التطليـق
مـا كنـت أول مـن جثـا بقميـصه ... عَبَـقُ الفخـار وجيبـه مخـروق
كثـرت أمـانيُّ الرجـال ولم تـزل ... متوسـعات والزمـان يـضيق
مـن كـل جـسم تقتـضيه حفـرةٌ ... فكأنَّـه مـن طينهـا مخلـوق

والقصيدة طويلة جدًّا، ويكفي أن ننبهَ إلى بعض المحاسن فيما أنشدناه.

والشاعر في هذا النسيب يجعل المطيَّ باكيات، والشعراء يتصورون المطيَّ باكيات، ولكنها في هذه المرة تبكي لبكاء الشاعر، فهي لا تحنُّ إلى الوطن الذي ستعود إليه، وإنما تبكي على الديار التي يفارقها صاحبها الأمين.

ويصور الشاعر ما يقع من النزاع بين العقل والهوى، فيقول:

الآن أقبـل بي الوقـار عـن الـصبا ... فغضـضت طـرفي والظبـاء تـروق

ثم ينصُّ على أن العزَّ لا طعم له إلَّا إنْ ناله الرجل عن طريق الكفاح، فيقول:

ولـو أنـني لم أُعـطِ مجـدي حقَّـهُ ... أنكـرت طعـم العـزِّ حـين أذوق

---

(١) الفارك: المرأة تبغض الرجل.

ويرى المعالي معشوقات، فيقول:

رُمتُ المعالي فامتنعن ولم يزل ... أبدًا يبانع عاشقًا معشوقُ

وقد صدق: فالعزائم كالقلوب لها صَبَوات، والمعالي أحق بالعشق من الملاح، ويتأثرُ الخلق النبيل خُلقُ الفتيان الذين يمتدحون بالقميص الممزَّق، فيقول:

ما كنت أول من جثا بقميصه ... عَبقُ الفخار وجيبه مخروق

وعبق الفخار أشرف من عبق الطِّيب، وإن غضب الشُّبان الظرفاء.

والنصُّ على الخشونة والتشعث في شجعان الفتيان قديمٌ في الشعر العربي، فما ابتكره الشريفُ، ولكنَّ إلحاحَه في توكيد هذا المعنى له دلالة قوية عند من يعقلون، وانظروا أيضًا كيف يقول:

وعدتَ يا دهر شيئًا بتُّ أرقبُهُ ... وما أرى منك إلا وعد عُرقوب

وحاجة أتقاضاها وتمطلني ... كأنَّها حاجة في نفس يعقوب

لأُتعبن على البيداء زاحلةً ... والليلُ بالريح خفَّاق الجلابيب

في فتيةٍ هجروا الأوطان واصطنعوا ... أيدي المطايا بإدلاج وتأويب[1]

من كل أشعث ملتاث اللثام لهُ ... لحظٌ تكرِّره أجفانُ مَذءوب

يوسِّد الرحلُ خدًّا ما توسّدهُ ... قبل المطَالب غيرُ الحُسْن والطِّيب

وهو في هذه المرة يجعل جنوده شبانًا نشأوا في النعيم، ثم قهرهم حب المعالي على فراق النعيم، وهذا أبلغ في تصوير المجد.

ويصور قلق الفتى الصوَّال، فيقول:

سئمتُ زمانًا تنتحيني صروفُهُ ... وُثوبَ الأفاعي أو دبيبَ العقارب

مُقامُ الفتى عجزٌ على ما يضيمُهُ ... وذلُّ الجريء القلب إحدى العجائب

---

(١) التأويب: الرجوع. والإدلاج: السير بالليل.

سأركبها بَزْلاء إمَّا لمادح ... يعدِّد أفعالي وإمَّا لنادب[1]
إذا قلَّ عزم المرء قلَّ انتصارُهُ ... وأقلعَ عنه الضيم دامي المخالب
وما بلغ المرمى البعيد سوى امرئ ... يروح ويغدو عرضه للجواذب
وما جرَّ ذلًّا مثلُ نفس جزوعةٍ ... ولا عاق عزمًا مثلُ خوف العواقب
ألا ليت شعري هل تسالمني النوى ... وتخبو همومي من قِراع المصائب؟
إلى كم أذود العين أن يستفزَّها ... وميض الأماني والظنون الكواذب؟
حُسِدتُ على أني قنعت فكيف بي ... إذا ما رمى عزمي مجال الكواكب
وما زال للإنسان حاسدُ نعمةٍ ... على ظاهر منها قليل وغائب
وأبقت ليَ الأيام حزمًا وفطنةً ... ووقَّرن جأشي بالأمور الغرائب
توزَّع لحمي في عواجمَ جَمَّةٍ ... وبان على جنبيَّ وَسْمُ التجارب

وفي هذه القصيدة يبدو الشريف هادئ النفس، ولكنَّه هدوءُ مَنْ يُزْعجه الهدوء؛ وكيف يهدأ من يتصور الحوادث وهي تدب دبيب العقارب، أو تثب وثوب الأفاعي؟

وهو يرى مُقامَ الفتى على الذل عجزًا قبيحًا، ويرى ذل القلب الجريء إحدى الأعاجيب، وانظروا الصورة الشعرية التي يمثلها الشطر الثاني من هذا البيت:

إذا قلَّ عزم المرء قلَّ انتصارُهُ ... وأقلعَ عنه الضيمُ دامي المخالب

هو يرى الذل من ثمار الجزع، ويرى خوف العواقب داء يقتل عزائم الرجال.

وهناك دالية نرى تنبيهكم إليها من أوجب الفروض، وهي مما جمع فيه بين الفخر والنسيب:

---

(١) البزلاء: الناقة القوية.

لأي حبيب يَحْسُنُ الرأي والودُّ ... وأكثر هذا الناس ليس له عهدُ؟
أكلُّ قريب لي بعيدٌ بودِّهِ ... وكلُّ صديق بين أضلعه حقد؟
ولله قلبٌ لا يَبُلُّ غليلهُ ... وصالٌ ولا يُلهيه عن خِلِّه وعد
يكلفني أن أطلب العز بالمنى ... وأين العلا إن لم يساعدنيَ الجَدُّ؟
أحنُّ وما أهواه رمحٌ وصارمٌ ... وسابغةٌ زعفٌ وذو مَيْعة نَهْد(١)
فيا ليَ من قلب معنًّى به الحشا ... ويا ليَ من دمع قريح به الخد
أُريد من الأيام كل عظيمةٍ ... وما بين أضلاعي لها أسدٌ وَرْدُ
وليس فتى من عاق عن حمل سيفه ... إسارٌ وحلّاه عن الطلب القِدّ(٢)
وإذا كان لا يمضي الحسام بنفسهِ ... فللضارب الماضي بقائمه الحدّ
وما العيش إلا أن تصاحب فتيةً ... طواعن لا يَعنيهم النحس والسعد(٣)
إذا طربوا يومًا إلى العز شمَّروا ... وإن نُدبوا يومًا إلى غارة جَدُّوا
وكم ليَ في يوم الثوية رقدةٌ ... يضاجعني فيها المهنَّد والغِمد
ولو شاء رمحي سدَّ كلَّ ثنيةٍ ... تطالعني فيها المغاوير الجُرد
نصلْنا على الأكوار من عجز ليلة ... ترامى بنا في صدرها الغَور والوهد
طردنا إليها خُفَّ كل نجيبةٍ ... عليها غلامٌ لا يبارسه الوجد
ودُسنا بأيدي العيس ليلًا كأنما ... تشابَهَ في ظلمائه الشَّيب والمُرد
ألا ليت شعري هل تبلِّغني المنى ... وتلقى بيَ الأعداء أحصنةٌ جُرد
يعيد عليه الطعن كل ابن همة ... كأنَّ دم الأعداء في فمه شهد
يضارب حتى ما لصارمه قُوًى ... ويطعن حتى ما لذابله جهد(٤)

---

(١) الزعف: هي الدروع الواسعة المحكمة.
(٢) حلاه مخفف من حلّاه بمعنى: منعه. والقدُّ: القيد.
(٣) طواعن: جمع طاعن، وجمع فاعل على فواعل للعاقل قليل، ولكن له شواهد كثيرة في شعر الشريف.
(٤) الصارم: السيف. والذابل: الرمح.

إذا عـــربيٌّ لم يكـــن مثـــل ســـيفهِ مـضاءً عـلى الأعـداء أنكـره الجَـد

القصيدة طويلة، وفي هذه النفثات كفاية.

والشاعر يذكر أن قلبه يكلفه طلب العز بالأماني، ثم يثور على هذا المطلب؛ لأنه يعرف أن المعالي لا تنال بالأماني، وإنما تُنال بالجهاد.

ويرى أن الحسام إن لم يَمض بنفسه فليس له حدٌّ، وإنما الحدُّ للضارب الماضي، وهذا معنًى نفيس.

وإليكم بيت القصيد:

إذا عـــربيٌّ لم يكـــن مثـــل ســـيفهِ مـضاءً عـلى الأعـداء أنكـره الجَـد

وانظروا روعة الفخر في هذه الأبيات:

شـــبابي إن تكـــن أحـــسنتَ يومًـــا فقـــد ظَلَـــمَ المـــشيبُ وقـــد أســـاء
ويـــا معطـــي النعـــيم بـــلا حـــسابٍ أتـــاني مـــن يقـــتِّر لي العطـــاء
متـــاعٌ أســـلفتناه الليـــالي وأُعجِلنـــا فأسرعنـــا الأداء
سأمـــضي للتـــي لا عيـــب فيهـــا وإن لم أســـتفد إلَّا عنـــاء
وأطلـــب غايـــةً إن طوحـــتْ بي أصـــابت بي الحـــمام أو العَـــلاء
أنـــا ابـــن الـــسابقين إلى المعـــالي إذا الأمـــد البعيـــد ثنَـــى البطـــاء
إذا ركبـــوا تـــضايقت الفيـــافي وعطَّـــل بعـــضُ جمعهـــم الفـــضاء
نـــماني مـــن أبـــاة الـــضيم نـــام أفـــاض عـــليَّ تلـــك الكبريـــاء
شـــأونا النـــاس أخلاقًـــا لِـــدانا وأيمانًـــا رطابًـــا واعـــتلاء
ونحـــن النـــازلون بكـــل ثغـــر نُريـــق عـــلى جوانبـــه الـــدماء
ونحـــن الخائـــضون لكـــل هـــول إذا دبَّ الجبـــان بـــه الـــضَّراء[1]

(١) دب الضراء: مشى في خفية.

ونحـــن اللابـــسون لكـــل مجـــد ... إذا شـــئنا أدراعًـــا وارتـــداء
أقمنـــا بالتجـــارب كـــلَّ أمـــر ... أبـــى إلَّا اعوجاجًـــا والْتـــواء
نجـــرُّ إلى العُـــداة سُـــلاف جـــيش ... كعـــرض الليـــل يتَّبـــع اللـــواء
نُطيـــل بـــه صـــدى الجُـــرد المـــذاكي ... إلى أن نُـــورد الأسَـــل الظِّـــماء[1]

أقف عند هذا الحد، أيها السادة، فما يتسع وقتي للنصِّ على جميع المواطن التي تحدَّث فيها الشريف عن العُلا والمعالي، وهي محفوظة في مذكِّراتي، وأنا أضنُّ بها على تلاميذي؛ لأني أُحب لتلاميذي أن يرجعوا بأنفسهم إلى ديوان الشريف، وأن يرفعوا ما أقام أستاذهم من قواعد البناء.

أُحبُّ أن يرجع تلاميذي، فيفتشوا على ما أغفلتُ من القصائد، أُحب لهم أن يطيلوا صحبة هذا الروح المتوقد الذي أقام الشرائع لعزائم الفتيان.

وأنتهز هذه الفرصة، أيها السادة، فأعتب على القدماء من مؤرخي الأدب العربي، فقد رأيت أن هذا الشاعر لم يفْتِنهم إلا بقصائد الحجازيات.

ولو أنَّ الله كان هداهم فالتفتوا إلى أشعاره في المعالي، كما التفت أبو تمام إلى أشعار العرب في المعالي؛ لأخرجوا من ديوان الشريف مجموعة نفيسة تنفع أجزل النفع في توجيه الشبان إلى التخلق بأخلاق الأبطال.

واسمحوا لي أيها السادة أن ابتكر عبارة جديدة هي عبارة (معالي الشريف)؛ فهي عندي أفحل، وأصدق من (حجازيات الشريف)، وهي أعظم من (زهديَّات أبي العتاهية)، و(تشبيهات ابن المعتز)، و(مدائح البحتري)، و(خمريات أبي نواس)، إنَّ (معالي الشريف) قصائد مقدودة من الفُتُوَّة، ومَنحوتةٌ من العزيمة، والنظرُ فيها يعود على الروح بأقباس الفحولة، والبطولة، ويُدخل على الدم جبروت النار والحديد.

---

(١) المذاكي من الخيل: التي أتى عليها بعد قروحها سنة، أو سنتان.

الشريفُ كاتبًا ومؤلفًا

١- في الرابع عشر من صَفر سنة ١٣٥٧ فرغت من كتاب "عبقرية الشريف الرضي" وأنا اليوم في اليوم السابع والعشرين من المحرَّم سنة ١٣٥٩، وقد لا أفرغ من هذه الحواشي إلا في الرابع عشر من صَفر؛ لأني مُوَزِّع الوقت والجهد بين أسفار وشواغل لا تمنحني من هدوء البال ما أريد.

فأين كنت من صُحبة الشريف قبل فراق عامين؟

كنت أنهيت القول في حياته الشعرية، ولم يبق إلا أن أتحدث عن مكانته في الكتابة والتأليف، فما الذي جدَّ بعد ذلك الفراق؟

ظهرتْ فصول عن الشريف الرضي في مجلة "الغَرِيّ" كتبها سماحة السيد محمد الحسين آل كاشف الغطاء، وهو من أكابر أهل العلم بالنجف، ولكن تلك الفصول لم تحملني على أن أرجع إلى كتابي بشيء من التغيير أو التعديل؛ لأن طريقتي في البحث تختلف عن طريقته كلَّ الاختلاف، ولأني أحرص دائمًا على تجنُّب الطريق المسلوك عساني أوفَّقُ إلى رأي طريف.

٢- والآن أرجع إلى الشريف الكاتب والمؤلف بعد أن استجمعت عامين، فأقول:

لم يصح عندي أن الشريف كان من كتاب الرسائل القِصار أو الطوال، وإن كنت احتفظت بالآثار التي نقلتها مجلة "العرفان" عن كتاب "الدرجات الرفيعة، في أعيان الشيعة" للسيد علي خان الشيرازي[1].

وتعليل ذلك سهل فالشريف غلبتْ عليه النزعة الشعرية في كل ما يتصل

---

(١) قيل: إن المراسلات بينه وبين الصابي بلغت ثلاثة مجلدات، ولكنا لا نعرف مكان تلك الرسائل حتى نحكم له أو عليه.

بنقد المجتمع أو الإفصاح عن الوجدان.

والثروة التي أُثِرت عنه في التأليف لا تنفي ما أقول؛ لأن تأليف الكتب غير إنشاء الرسائل، فالمؤلف يتخذ أسلوبًا في التعبير يغاير أسلوب النثر الفني، قد يبعُد عنه أشدَّ البعد في كثير من الأحايين.

الشريف كاتب بلا جدال، ولكن طريقته في التعبير طريقة علمية لا فنِّية، وإن غلبتْ عليها الصنعة في بعض الأحوال.

والمهمُّ هو النصُّ على أن الشريف شاعر أولًا وقبل كل شيء، فحياته الشعرية هي ثروته الباقية على الزمان، وإن كان من أعاظم الباحثين في الحدود التي تسمح لرجل مثله بأن يكون من أقطاب الحياة الفكرية العلمية في عصر "إخوان الصفا".

ومعاذ الأدب أن أستخفَّ بآثار الشريف في ميادين والفكر العقل؛ فقد بلغ الغاية في كتاب "المجازات النبوية"، وكتاب "حقائق التأويل"، ولو كان الشريف غير شاعر لاستطاع أن يزاحم أماثل العلماء، ولكن عبقريته الشعرية جنت عليه، فخفَّ ميزانه في الحياة العلمية بالقياس إلى بعض معاصريه ومنهم أخوه الذي أتى بالأعاجيب في الفقه والتوحيد.

ولو أن الرضي وقف عند آثاره العلمية لكان له مكان بين أقطاب المؤلفين لكنه شَغَل الناس بشعره الفائق، فظنوه وسطًا بين الباحثين، وهو عند التأمل من أساطين الفكر المنظم الدقيق.

٣- وهنا تسنح الفرصة لتسجيل خَصِيصة من خصائص الشريف:

فأشعاره لا تشهد بأنه من المشتغلين بالعلوم اللغوية والشعرية؛ لأنها في الأغلب خالية من السِّمات الاصطلاحية؛ لأنها أدبٌ صرف لا يعرف البَهْرج والتزويق إلَّا في الحدود المقبولة من الصنعة الشعرية، و لو قيل: إن الشريف

شاعر بدويٌّ ينطق بالفطرة والسليقة، وإنه أميٌّ لا يقرأ ولا يكتب لجاز ذلك في أذهان من يجهلون مكانته في التاريخ.

الشريف شاعرٌ بدويٌّ منقطع عن الحياة العلمية أشد الانقطاع وهو في هذه الناحية ظاهر كل الظهور بحيث يُظَنُّ أنه لم يعرف من حياة العلم ما عرف بشارٌ، وأبو نواس، وابن الرومي، والمتنبي.

والشريفُ في شعره بعيدٌ كل البعد من أساليب العلماء من نحاة ولغويين وفقهاء، وهو شاعرٌ بدويٌّ لا تظهر عليه سيما الحضارة إلَّا في ترف العقل والذوق، وهو في شعره أقلُّ حضارةً من عمر بن أبي ربيعة، ومن الكميت، ومن جميل مع أنه نشأ في بغداد وعرف المترفين أهل فارس وأهل العراق.

والشريف في شعره نموذج للسليقة البدوية التي لم تعرف من الحضارة غير أطياف، ولم تسمع بقعقعة النحاة واللغويين في بغداد.

٤- فإذا انتقلنا إلى نثر الشريف رأينا شخصية جديدة، رأينا عالمًا يشهد نثره العلمي بأنه من أقطاب الأدباء، رأينا رجلًا يكتب في العلوم اللغوية والشرعية بأسلوب مضمَّخ بعطر الأدب الرفيع.

وكذلك نعرف أن للشريف شخصيتين مختلفتين بعض الاختلاف: شخصية الشاعر المطبوع، وشخصية العالم الأديب.

فكيف اتفق لصديقنا الشريف أن يكون كذلك؟!

أغلبُ الظن أن الرجل كان يعمد إلى الابتكار والابتداع؛ كان يرى شعراء عصره قد غلبت عليهم المظاهر الحضرية، فآثر التفرد بالشمائل البدوية، فهو في الشعر بدويٌّ وهو في العلم أديب. وتلك خصيصةٌ نادرة في ذلك الزمان.

تظهر هذه الخصيصة إذا وازنَّا بينه وبين أخيه، وقد نشآ في بيت واحد،

وتلقيا العلم في الحَداثة على رجل واحد هو الشيخ المفيد، فأخوه المرتضَى يكتب كما يكتب العلماء، ويشعر كما يشعر العلماء، ونفسيتُه نفسية عالم لا نفسية أديب، حتى قيل: إن المرتَضى كان يحرص على منافع دنياه حرص الفقهاء، أما الرضيُّ فكان رجلًا سمحًا يجود بما يملك، ويرى الكرامة أثمن ما يحفظ الأحرار من ذخائر الوجود.

٥- شخصيةُ الشريف شخصيةٌ معقَّدةٌ عند من يجهل، ولكنها في غاية من البساطة والوضوح عند من يعرف، هو رجلٌ يحب التفرد بكرائم المعاني، فهو يشتهي أن يكون شاعرًا لا كالشعراء، وأن يكون عالمًا لا كالعلماء، وقد وصل إلى ما يريد.

ولو اتسع المجال لدرس خصائص الشريف لوصلنا إلى طرائف؛ فأنا أعتقد أن لغة الشريف في شعره تجمع النوادر من الألفاظ البدوية، وأن لغة الشريف في نثره تجمع الأطايب من المصطلحات العلمية.

ومن المحتمل أن لا تكون حياة العلم عرفت باحثًا أمضى قلمًا من الشريف قبل ذلك العهد، وقد قوي عندي الظن بأنه مهَّد السبيل لعبد القاهر الجرجاني، فعبد القاهر عندي تلميذ الشريف في الميادين البيانية، وليس كتاب "دلائل الإعجاز" إلا خطوة ثانية بعد كتاب "المجازات النبوية"، وإن كان الجرجاني أقدر من الرضي على الإفاضة والاستقصاء.

٦- قد أقول: إن البويطي في "الأم" هو أول عالم شرَح دقائق الفقه بأسلوب أدبي، وإن سيبويه في "الكتاب" هو أول نحوي شرح تكوين الجُمل بعبارة أدبية، ولكني مع ذلك مقهورٌ على الاعتراف بأن الشريف تفرَّد من بين سائر الباحثين بأسلوب يجمع بين الرقة والجزالة في شرح أغراض القرآن والحديث.

فكيف اتفق ذلك للشريف؟.

أعتقد أن مرجع ذلك إلى أخلاقه الشخصية:

فالشريف كان رجلًا صريحًا في جميع ما يتناول من الشئون، وأظهر صفة من صفات الشريف هي بغض النفاق ، ألم يتخذ الحج موسم صيد وهو نائب عن خليفة المسلمين؟.

كان الشريف يرى أن التعبير الصريح عن أوطار القلوب لا يقع إلَّا من أشراف الرجال، وبهذا الرأي صح له أن يعبر عن أحلام هواه بقصائده خالية من شوائب الزور والرياء.

وقد انساق هذا الطبع السَّمح إلى حياته العملية، فعبَّر عن أغراضه في اللغة والفقه والتوحيد بعبارات هي أسلس وأرشق من تبختر الجدول الرَّقراق.

٧- وهنالك خَصِيصة ظاهرة من خصائص الشريف، هي اندماجه اندماجًا كليًا في الجوِّ الذي يعيش فيه؛ فهو في الشعر يخيَّل إليك أنه لا يحلِّق في غير الأجواء الشعرية، ويكاد من يطلع على ديوانه يؤمن إيمانًا جازمًا بأنه لم يعرف التعبير عن أغراضه بغير القوافي، ومثَله في ذلك مَثَل ابن الرومي، وقد قيل: إن الشعر كان أقل أدواته، وهو قولٌ لا نصدِّقه إلا بعناء؛ لأن شاعرية ابن الرومي أدَّتْ إلينا محصولًا يمنع من الاطمئنان إلى أنه كان يعبِّر عن أغراضه بغير القوافي، وقد قرأنا مرةً أن البحتري كان من المؤلفين فلم نصدِّق؛ لأن البحتري فيما نرى لا تجود فطرته بغير الغناء.

وقد اتفق لأبي تمام أن يكون مؤلفًا، ولكن كيف؟ غَلَبَ عليه التصنيف في اختيار الأشعار، وهي فَنٌّ ينساق مع ذوق الشاعر كل الانسياق.

٨- يمكن للشاعر أن يكون مؤلفًا، كما يمكن للمؤلف أن يكون شاعرًا، ولكن الذي وقع للشريف عَجَبٌ من العجب، فمؤلفاته تشهد بأنه أديب،

ولكنها توهمك أنه لم يكن شاعرًا تُعَدُّ جياد أبياته بالألوف.

ما الذي نراه حين نقرأ مؤلفات الشريف؟.

نجد رجلًا يُحيل على مباحثه الماضية بأسلوب يُشعرنا بأنه قضى دهره وهو مشغول بالتأليف، نجد رجلًا يحدثنا أن مؤلفاته بلغت العشرات في موضوعات مختلفات، وتشهد قوةُ تعبيره، وغزارةُ علمه بأن (المؤلف) هو الشخصية الأصيلة التي تحتل صدر ذلك الباحث الجليل.

ومؤلفات الشريف تقنعنا بأنه لم يعرف غير الحياة العلمية، ولم يُعانِ شواغل السياسة والشعر والحب، ولو أن ديوان الشريف كان ضاع وبقيت مؤلفاته لما صدَّق أحدٌ أنه كان من أعلام الشعراء، فضلاً عن التصديق بأنه أشعر قريش.

٩- يضاف إلى ذلك أن الشريف المؤلف كان واسع الأفق؛ فهو يكتب في الفقه والتوحيد والنحو والبيان، وله إشارات إلى مؤلفات الأكابر تدل على أنه من المطلعين على ذخائر العلوم الأدبية والشرعية، وله توجيهات لكلام من سبقوه، توجيهات تشهد بأنه تناول حياة التأليف بالنقد والتمحيص والتهذيب، والشريف العالم شخصيةٌ هائلةٌ جدًّا، وهي تنسيك مواهبه الأدبية والسياسية والوجدانية، وتفرض عليك الإيمان بأنه لم يُجد غير ذلك الفن من فنون التفكير الحصيف.

فكيف اتفق له ذلك؟

لا تنس أنه كان إمامًا من أئمة الدين، وأن شهرته بالشعر والحب كانت تؤرِّقه من وقت إلى وقت؛ لأنها كانت دعامة يعتمد عليها أعداؤه في الغض من مكانته الدينية، مِسَاهم يهوِّنون من شأنه فيُقْصونه عن مناصب التشريف باسم الدين.

فهل نستطيع أن نقول: إن الشريف كان يتعمد الكتابة في الشئون اللغوية والعلمية؛ ليصد عن مجده الأدبي والسياسي عُدوان خصامه ومنافسيه.

لذلك شواهد في العصر الحديث، فقد كان شاع أن الشيخ محمد عبده رجلُ أدبٍ لا يصل ذهنه إلى قرارة العلوم الأزهرية، فحمله ذلك على الدفاع عن سمته العلمية، فألَّف في شئون دقيقة لا يحسنها إلا الأزهريون المتفوقون.

١٠- لم يبق عندي شكٌ في أن الشريف كان يفهم جيدًا أنه مُعرَّضٌ للأكاذيب والأراجيف؛ بسبب إيغاله في شعاب الصبابة والوجد، وبسبب حيرته في بيداء الحياة السياسية، فلم يكن له بدٌّ من تمزيق الحبائل التي ينصبها أعداؤه وحاسدوه، وكذلك أقبل على التأليف بعزائم الفحول؛ ليقيم الأدلة والبراهين على أنه أهلٌ للتشريف باسم العلم والدين،فما الذي وصل إليه؟

ما زال الرجل يُبدئ ويعيد، حتى أتى بالغرائب والعجائب في ميادين الفكر والعقل، وحتى صحَّ القول بأنه تفرَّد بآراء لم يهتدِ إلى مثلها الأسلاف.

١١- وهنا تظهر خصيصة جديدة من خصائص الشريف، هي خصيصة العالم المزوَّد بأدوات الأدب، والأدب هو ديوان العرب، وهو التعبير الصادق عن ذوقهم الأصيل.

ولو بقيت آثار الشريف لجاز القول بأنه طرازٌ فريد بين أقطاب المؤلفين، ولكانت له منزلة تعزُّ على من رامها وتطول.

على أن الآثار الباقية لهذا الباحث المبتكِر لم تُخيِّب ظنون محبيه، فهي تدلُّ على القيمة الأصيلة لمواهبه العقلية، وهي تُعرب عن قدرته على التصرف في علوم القدماء.

١٢- وليست أولئك الخصائص هي كل ميزات الشريف المؤلف، فهناك

خصيصةٌ أعظم وأروع، وهي طغيان العقلية العلمية على النزعة المذهبية.

كان الشريف شيعيًّا، والشيعة فيما يظهر كانت لهم آراء خاصة في فهم أغراض القرآن والحديث، والشريف نفسه لم يحفظ القرآن إلَّا في سن الثلاثين مع أنه نشأ في بيت من بيوتات الدين، وتلك ظاهرة قد تُوهِم أن حفظ القرآن لم يكن عند جماعته فرضًا على المشتغلين بالشئون الدينية، ومن أجل ذلك كثُرت القالة حول أولئك القوم، واحتاجوا إلى الدفاع عن أنفسهم من هذا الجانب الدقيق.

وحين زرت السيد آل كاشف الغطاء بالنجم رأيت أمامه نسخة من المصحف الشريف، فحدَّق في وجهي وقال: اشهدْ أنك رأيت المصحف في يدي وقد زرتني على غير ميعاد!

وإنما احتاج الرجل هذه العبارة؛ لأن في الشيعة فرقة لا تهتمُّ كثيرًا بالمصحف الشريف، وهي فرقة لا يرضى عنها جمهور الشيعة في العراق.

والمهمُّ هو النصُّ على أنَّ الشريف كان شيعيًّا سليمًا، أعني أنه كان مسلمًا صحيح العقيدة، والتشيع في جوهره لا ينافي الدين إلا حين يُوكَلُ أمرُه إلى الجهلاء من أهل الانحراف.

ولا يحتاج الشريف إلى من يشهد له بصحة الدين، وهو من عظماء المؤمنين، وإنما انساق القول إلى فضل هذا الرجل في حماية البيئات الشيعية من ضلالات الذين كفروا باسم التشيع، وهو فضلٌ عظيم.

مَثَل الشريف بين أهل التشيعُ كَمَثَل الجاحظ بين أهل الاعتزال، فالجاحظ لا يدرك مراميه غير الخواصِّ، وكذلك الشريف لا يدرك مراميه غير الخواصِّ.

وأقول: إنَّ اهتمام الشريف بشرح خصائص البلاغة القرآنية والبلاغة النبوية هو دحضٌ للمفتريات التي وُجهت إلى التشيع والتي ادَّعت أن الشيعة

لا يهتمون بالقرآن والحديث.

ومن هنا نفهم أن الشريف المؤلِّف كان معلِّمًا عظيمًا، وكان من الساهرين على رعاية الوحدة الإسلامية، وهو بالتكريم خليق.

النَّفحاتُ السارية في مؤلفات الشريف هي أنفاس المؤمن الحق، المؤمن الخالص من شوائب الابتداع والتجديف[1].

١٣- يؤيد هذا ما أُثِر عن الشريف من الاهتمام بدرس مذهب الشافعيِّ وهو مذهبٌ سُنِّيٌّ أصيل، ولا يقال: إن مرجع ذلك إلى عذوبة لسان الشافعيِّ فيما يتصلُ بأهل البيت، لأن تعظيم أهل البيت مما يرعاه السنيون كما يرعون كرامة سائر أهل العلم والدين.

وإمارة الحج التي وُكلتْ إلى الشريف وإلى أبيه من قبل تشهد بأن التشيع لم يكن يُنظر إليه بعين الغضب والمقت، فقد كان مذهب أهل السنة هو السائد يومئذٍ في العراق، ولم يكن السنيون يرون ما يمنع من أن تكون إمارة الحج لرجل شيعيٍّ في مثل فضل الشريف.

فما معنى ذلك؟

معناه أن الغلو في التحاقد بين المذاهب الإسلامية لم يكن يقع إلا من أهل الغفلة والحمق، أما أهل اليقظة والعقل فكانوا يعرفون أن الاختلاف في الفروع لا يضير مع الاتفاق في الأصول، وكذلك اشترك عقلاء السنة والشيعة في الالتفاف حول راية القرآن والحديث، ولن تمر أعوام طوال قبل أن تسود

---

(١) في كتاب (التصوف الإسلاميّ) تفاصيل وافية عن أصل فكرة التشيع وعما عرض لها في ميادين الأدب الأخلاق، وعن صلتها بالسياسة الإسلامية، وكذلك تحدثنا عنها بالتفصيل في كتاب (المدائح النبوية) فليرجع القارئ إلى هذين الكتابين إن كان يهمه الاستقصاء.

الألفة بين سائر المذاهب الإسلامية، ويحلُّ الوفاق مكان الشقاق.

١٤- ومهما يكن من شيء، فالخلاف بين السنة الشيعة هو جزء من ماضينا، وهو خلاف كان له فضلٌ عظيم في يقظة العقول والآراء، فواجبنا اليوم هو الدعوة إلى التآخي الصحيح بحيث يمكن نسيان ما وقع في ماضينا من صراع ونضال.

والعِبرة من هذا الكلام: هي إبراز شهامة الشريف، الشريف الشيعي الذي عاش في عصور لا تخلو من ظلمات، واستطاع مع ذلك أن يكون مثلا في السماحة والمذهبية، وأن يظفر بعطف من ترجموا له من أهل السُّنَّة، وأهل السُّنَّة رجالٌ ينصبون الموازين لأقدار الرجال.

١٥- وهنا ملاحظة تستحق التسجيل.

لما دخلت العراق وجدت قومًا من أهل العلم يحقدون عليَّ أشنع الحقد؛ بسبب كتاب (الأخلاق عند الغزالي)، ثم هالني أن أعرف أنَّ السيد هبة الدين الشهرستاني من أولئك الحاقدين وهو شيعيٌّ لا سُنيٌّ، فكيف يتعصب للغزالي وهو خصمه في المذهب؟.

تعصَّب الشهرستاني للغزالي لمعنًى نبيل هو الغضب للنيل من إمام جليل مثل الغزالي، وكذلك تكون شمائل العلماء.

ورأيت هناك باحثًا يعطف عليَّ لاهتمامي بدرس أشعار الشريف وهو الأستاذ عباس العزَّاوي فقدَّرت أنه شيعيٌّ،ثمَّ عرفت أخيرًا أنَّه سنِّيٌّ،وكذلك يكون الصدق في فهم المعاني.

ورأيت الأستاذ طه الراوي يحفظ ديوان الشريف عن ظهر قلب فحسبت ذلك بِرًّا بالعصبية المذهبية، ثم عرفت أنَّه سُنِّيٌّ لا شيعيٌّ، وطه الراوي من أعيان الفضل والعلم والذوق في بغداد.

صديقنا الشريف هو الذي سنَّ شريعة التسامح بين المذاهب والآراء، وفضلهُ على الشيعة عظيم؛ لأنه خلق لهم صداقات في البيئات السنيَّة، وحفظ لهم مكانة عالية في العراق بفضل جهاده في الأدب والدين.

ونحن في مصر لا نحسُّ الخلافات المذهبية، ويؤذينا أن نعرف أن إخواننا في الدين يثور بينهم الخلاف من حين إلى حين، فهل أرجو التقرب إلى الله بتهوين شأن تلك الخلافات!، وهل أستطيع الترحم على الشريف؛ لأنه منحني الفرصة لهذه الكلمات التي أردت بها التقريب بين القلوب.

الله يشهد أني أكتب هذا وأنا متوجع، فما يرضيني أن يقال: إن في المسلمين أقوامًا يخاف بعضهم بأس بعض.

الخلاف جميل على شرط أن لا يصل إلى القلوب.

الخلاف نعمة ربانية إذا وقف عند اصطراع العقول، فإن جاوز ذلك فهو رجسٌ من عمل الشيطان.

الشقاقات المذهبية لم يعرفها الشرق والغرب إلَّا في عصور الظلمات، ونحن في عصر النور، فإن لم يكن بدٌّ من الخلاف فلنختلف في أساليب الخلاص من أقفاص الظلم والاضطهاد، والقراء يعرفون ما أعني ومن أعني.

يرحم الله الشريف، فقد داس الشهوات المذهبية بقدميه، فظفر بالإعزاز والتبجيل من الجميع ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

١٦- أيراني القارئ حددت خصائص الشريف كاتبًا ومؤلفًا؟

لقد وضعت الأساس لمن يهمُّه أن يستقصي أحوال الشريف في الكتابة والتأليف، ولم يبق إلَّا أن أقدِّم بعض الشواهد التي تعين مذاهبه في التعبير، فما هي تلك المذاهب؟.

أنا أعتمد في تحديد مذاهبه الإنشائية على كتابين اثنين: المجازات النبوية، وحقائق التأويل.

أمَّا كتاب المجازات النبوية فقد طُبع أولًا في بغداد طبعًا ممسوخًا تأذَّى به روح المؤلف، ثم طُبع أخيرًا في القاهرة بعناية الأستاذ محمود مصطفى المدرس بكلية اللغة العربية، وقد تأنقت مكتبة مصطفى الحلبي بإخراجه في حُلَّة رقيقة الحواشي.

وأمَّا كتاب "حقائق التأويل" فقد طُبع بالنجف، وأخرجه (منتدى النشر) في رونق جميل.

١٧ - ما هي تلك المذاهب الإنشائية؟

نلمح أولًا: أنَّ الشريف الكاتب قصير النفس، فهو لا يُطنب إلَّا في قليل من الأحايين.

ونلاحظ ثانيًا: أن الشريف الكاتب قليل الفضُول فهو لا يتكلم إلا بميزان.

ونرى ثالثًا: أن الشريف المؤلف قليل الاستطراد، وهذا يشهد بأن النزعة الفنية أغلب من النزعة العلمية؛ لأن العلماء الذين سبقوه كانوا يتخذون الاستطراد وسيلة إلى عرض ما تقضي به المناسبة من المعارف الأدبية واللغوية والشرعية.

ونشهد رابعًا: إن الحَرْفيات قد تسيطر عليه، فقد همَّه أن يسجل أن قول الرسول في أُحدٍ: «**هذا جَبلٌ يُحبنا ونُحبُّه**» محمولٌ على المجاز؛ لأن الجبل على الحقيقة لا يُحِبُّ ولا يُحَب.

وهذا خطأ من الشريف ساقه إليه خضوعه للحرفيات في بعض الأحوال،

فالرسول في رأيي أراد الحقيقة لا المجاز، وسرُّ ذلك لا يدركه غير من يطمئن إلى فكرة "وحدة الوجود".

ونسجِّل خامسًا: أن الشريف يحرص بعض الحرص على السجع والازدواج، ولذلك شواهد مبثوثة في المجازات النبوية وحقائق التأويل يدركها المطالع بدون عناء.

ونقرر سادسًا: أنه قد ينسى الزخرف نسيانًا تامًّا في بعض المواضع، فيصبح أسلوبه، وهو مثل أعلى في سماحة التعبير، كأن يقول في تلخيص ما قاله علي بن عيسى النحوي في أحوال كان:

"قال لي في القراءة عليه: إنَّ لـ(كان) أربعة مواضع:

أحدها: أن تكون مستقلة بالفاعل غير مفتقرة إلى الخبر، نحو: كان الأمرُ، أي حدث ووقع.

والثاني: أن تكون ممنوعة من الحدث مفتقرة إلى الخبر، نحو: كان زيدٌ منطلقًا ويكون عمروٌ شاخصًا.

والثالث: أن تكون زائدة، مثل قولهم: زيدٌ -كان- منطلقٌ، وما -كان- أحسنَ زيدًا، أيْ: ما أحسنَ زيدًا، كقول الشاعر: "وجيران لنا كانوا كرام" إذا لم تجعل (لنا) الخبر وجعلته صفة جيران كأنك قلت: "وجيران لنا كرامٍ كانوا".

والرابع: أن تكون كصار، تقول: كان زيدٌ منطقًا، أي صارت حاله هذه؛ تريد هو الآن كذا لا فيما مضى، وأنشد قول الشاعر:

بفيفـــاء فقـــر والمطـــيُّ كأنهـــا قَطا الحَزْن قد كانت فراخًا بُيُوضُـها

يريد صارت فراخًا. قلت أنا: والصحيح في رواية هذا البيت (قد صارت فراخًا بُيوضها) وإنما غير ليوافق الاستشهاد، فلأجل ذلك ضعف هذا القسم

من بين أقسام كان"[1].

فهذا كلامٌ تقريري يقوم على أساس الدقة والجلاة، ثم ختمه بلفتة نقدية تؤرخ عبث النحاة برواية الشعر ليوافق الاستشهاد!.

وهذه اللمحة تبيح لنا أن نسجل -سابعًا- أن الشريف في مؤلفاته كثير الاهتمام بشرح الدقائق النحوية،والنحو كان في تلك العهود ميدانًا لسباق القرائح الجياد.

١٨- أما بعدُ، فتلك حال الشريف الكاتب والمؤلف، وهي تجلوه في صورة تُضيف إلى حياته الشعرية ألوانًا من الظلال، وهي تؤكد ما قلناه من أنه شاعرٌ مثقف يرى الوجود في ظواهره وخوافيه بعين الناقد البصير الذي لا يشغله التأمل في جمال الوجود عن النظر في فهم الرجال لحقائق الوجود.

الشريف عجيب حقًّا، فهو تارةً يحدِّثك بأنه كان يقرأ على شيخه فلان بابَ كذا من أبواب النحو، وأن شيخه قال له: كَيْت وكَيْت، وتارةً يحدثك بأنه كان يقرأ على شيخه فلان بابَ كذا من أبواب الفقه، وأن شيخه قال له: زَيْتَ وزَيْت، وحينًا يذكر أنه اختلف مع بعض أشياخه في فهم آية أو حديث، وأنه اعترض بكَيْتَ فأجيب بزَيْت، وأحيانًا يتحدث عن مصاولاته مع اللغويين وما نقل عنهم من توجيه كلام الأعراب، وفي هذا الجو المُشَبَّع بأقباس المجادلات النحوية والفقهية والأدبية واللغوية لا ترى الشريف إلا شيخًا يجادل أهل العلم والأدب والدين في مساجد بغداد وهو في زيِّ المجاورين الذين شرفهم الله بالانقطاع إلى البحث والتنقيب في مخلَّفات القدماء.

ثم تلتفت فتسمع أنه كان فارسًا لا يُشق له غبار، ثم تنظر فتعرف أنه كان من أقطاب السياسة ومن أهل البصر بتدبير المكايد في ظلام الليل.

---

(١) انظر حقائق التأويل ص ٢٢١، ٢٢٢.

ثم يصل إلى علمك أنه كان عاشقًا يحسُّ الجمال بأروع مما أحسَّ عُمر وكُثَيِّر وجميل، ثم تسمع أنه صال وجال في أشهر الأقطار الإسلامية بالشرق.

ثم تعلم أنه كان مدير مدرسة، وأنه مع ذلك تعقب أخبار الماجنين والعابثين، ثم تعرف أنه كان رَبَّ بيت وله أهلٌ وأبناء.

فما معنى هذا التعقيد الغريب؟.

معناه أن الشريف الرضيَّ كل منوَّع المواهب، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، فلا يَعْجَب الكسالى المتزمتون مِن ظَفره بحسن السمعة في جميع ما اخترق من الميادين، ولا يستكثروا عليه أن يكون من أفاضل المؤلفين،وأكابر المربين، وأشاوس الفرسان، وأماجد العُشاق، وأماثل العارفين الواصلين، ولو عُرف قبره على التحقيق لكان مثابةً لطلاب الخيرات والبركات، رحمه الله وطَيَّب مثواه، وجعلنا من أصدقائه الأوفياء!!

نهج البلاغة والشريف

١- خلَّف الشريف فيما خلف كتابًا نفيسًا هو "نهج البلاغة" وهو مجموعة كبيرة من الخطب والرسائل والوصايا والحكم والمواعظ المنسوبة إلى أمير المؤمنين[1].

وما أحب أن أعيد ما قلته عن أمير المؤمنين في كتاب "المدائح النبوية"، ولا ما قلته عن نهج البلاغة في كتاب "النثر الفني"، أو كتاب" وحي بغداد".

وإنما يهمني أن أنشئ فصلًا جديدًا عن نهج البلاغة أحدد به موقع ذلك الكتاب من الأدب العربي، وأكمل به المباحث التي عرضتُ لها من قبل، وأنا بعيد كل البعد من التحيز لذلك الكتاب، أو التحامل عليه.

٢- لقد ثارت الشكوك حول نسبة محصول نهج البلاغة إلى أمير المؤمنين، وهذه الشكوك مما يشرِّف ماضينا؛ لأنها فرعٌ من التحقيق العلمي الذي تفوَّق فيه أسلافنا أشد التفوق ،وما يجوز القول بأن تلك الشكوك قامت جميعًا على أساس النزعات المذهبية، فقد كان في أسلافنا رجالٌ لا يهمهم غير الحق ولا يستهويهم غير الصدق ولا يرضيهم أن يُزَوَّر التاريخ.

٣- وقد حدثنا ابن أبي الحديد عن ألوان تلك الشكوك، وهي تُلخص في أن كثيرًا من أرباب الهوى يقولون: إن كثيرًا من نهج البلاغة كلامٌ مُحْدَث صَنَعه قوم من فصحاء الشيعة، وربما عَزَوْا بعضه إلى الرضي أبي الحسن وغيره.

---

(١) أمير المؤمنين هو اللقب الاصطلاحي لعلي بن أبي طالب، فإن رأى القارئ هذا اللقب في كتاب قديم من غير نص على اسم الملقب فليعرف أن المراد به هو علي بن أبي طالب وإذا رأيت بين الأسماء اسم عبد الأمير فاعرف أن المراد عبد علي بن أبي طالب.

ونحن نعتب على ابن أبي الحديد بعض العتب، فإن عبارة "أرباب الهوى" لا تخلو من جفاء، وفيها غضٌّ من أقدار الباحثين الذين أرادوا أن يمسُّوا نهج البلاغة بالوضع والتزييف.

٤- والحقُّ أن الأدب العربي تعرَّض إلى شُبُهات كثيرة من هذا اللون؛ فقد كان للأحزاب السياسية والدينية دخْلٌ في تلوين الآثار الأدبية، وقد حدَّثنَا بعض المؤرخين عن أشعار أضيفت إلى كثير من القبائل الجاهلية، ألم ينص صاحب الأغاني على أن يزيد بن المفرغ هو الذي صنع الأشعار المنسوبة إلى القبائل اليمنية؟.

٥- ونزاع المذاهب لم يكن أقل من نزاع القبائل، فقد وصل الخصام بين الأمويين والعلويين إلى أقصى حدود القسوة والعُنْف، ومن المستبْعد أن يكون أنصار العلويين قد تفرَّدوا بالتجمل وإيثار الصدق في محاربة أعدائهم من الأمويين وهل يجوز أن يلتزم العلويين الصمت وهم يرون طلائع الشر تفاجئهم من كل باب؟.

لا يقول بذلك إلَّا من يجهل كيف تأرثت نار العداوة بين الحزبين لذلك العهد، العداوة التي قضت بأن يأمر بنو أمية بسبِّ عليٍّ فوق المنابر، وبأن ينهوا الناس عن تسمية أبنائهم باسمه، وهذا الحمقُ السياسي غير مستغرب؛ فقد رأينا له شبيهًا في زماننا يوم أمرت إحدى الوزارات المصرية بأن لا يذكر سعد زغلول في الجرائد!.

فالذي يتهم الشيعة بأنهم أنطقوا عليًّا بأقوال لم يَقُلها؛ ليؤيدوا قضيتهم المذهبية لا يبعدُ في حُكمه عن الروح الذي كان سَرىَ في الخصومات السياسية لتلك العهود.

٦- ولهذا الرأي شاهد من التاريخ؛ فقد أسرف الشيعة في تحقير يزيد حتى صار مثلًا في الرقاعة والسُّخف، ومع ذلك رأينا من يرفع يزيد إلى صفوف

العظماء، كالذي صنَع مؤلِّف "نجباء الأبناء" فهو يرد مقالة بقالة؛ ليرفع عن يزيد إصر الأراجيف.

وعلى ذلك لا يُستغرب في شِرعة العقل أن تكون مناقب الأمويين والعلَويين مدخولة في كثير من الشئون وفقًا لما اصطلح عليه العرُف السياسي من تحقير الأعداء وتعظيم الأصدقاء.

والعُرف السياسي خلقَه أسلافنا، أو سلكوا فيه مسالك اليونان والرومان وهو عُرفٌ يقضي بأن لا ترى في صديقك غير الحَسن، ولا ترى في عدوِّك غير القبيح.

والأدب العربي مَدينٌ للإفك السياسي أكبر الدَّين؛ فبفضل ذلك الإفك خُلقت محامدُ ومثالبُ هي صور وروائع من الشمائل الإنسانية، ولو خلا أدبنا من ذلك الافتعال الجميل أو البغيض لصار مثلًا في العُجف والهُزال.

٧- وأقول بصراحة إن التزيد على أمير المؤمنين أمرٌ واقع، وهذا التزيد يشرِّف من اقترفوه؛ لأنه يشهد بأنهم كانوا رجالًا أقوياء يعرفون كيف يتسلَّحون للحرب السياسية، وهي حربٌ لا ينهزم فيها غير من يتورعون عن الابتداع والافتعال!

وسيأتي يوم نعرف فيه أقدار الكُتَّاب البارعين الذين أمدُّوا الحرب السياسية بوَقود من سِحر الفصاحة والبيان، والذين أذاعوا في محصول الأدب العربي روح القوة والنضال.

٨- التزيُّد على أمير المؤمنين أمرٌ واقعٌ، والتنصلُ منه جهل، ولكن المشكلة هي وضع "نهج البلاغة" في موضعه الصحيح.

عندنا في هذا المقام مشكلتان:

الأولى: عبقرية عليِّ بن أبي طالب، عبقريته الخطابية والإنشائية.

والثانية: ضمير الشريف الرضي.

والمشكلة الأولى تحدثتُ عنها في كتاب "النثر الفني" فقد كان معروفًا أن ابن أبي طالب له مجموعة من الخطب، مجموعة تحدث عنها الجاحظ في مَطلع القرن الثالث، وهل يُعقَل أن تضيع آثار ابن أبي طالب ضياعًا مطلقًا، وكان في زمانه وبشهادة خصومه من أفصح الخطباء،كان عليٌّ خطيبًا مفوَّهًا، وكان كاتبًا فصيحًا.

فأين ذهبت آثاره في الخطابة والإنشاء؟

وهل يُعقَل أن تضيع آثاره وحولَه أشياع يحفظون كلَّ ما ينسَب إليه؟

هل يُعقل أن يحفظ الناس أشعار العابثين والماجنين من أهل العصر الأموي وينسوا آثار خطيب قُتل بسببه ألوف وألوف من أبطال الحروب؟

ومن الذي يتصور أن الذاكرة العربية تحفظ أشعار النصارى واليهود وتَنسَى خُطب الرجل الذي غُسِّل بدمه في يوم من أيام الفتن العمياء؟

وإذا جاز أن يحفظ الناس ما دسَّه المغرضون على أمير المؤمنين فكيف يجوز أن ينسوا ما نُسب إليه على وجهٍ صحيح؟

وأين العقل الذي يقبل القول بأن عليًّا لم يَحْيَ بيانُه إلا في الآثار المفترَيات؟ أين ونحن نجزم بأن في الشيعة أنفسهم رجالًا من العرب الصُّرحاء الذين يؤذيهم الكذب والافتعال؟.

وهل كان الشيعة إلا قومًا تستهويهم السياسية حينًا، ويأسرهم الصدق في أحايين؟

لا مفرَّ من الاعتراف بأن "نهج البلاغة" له أصل، وإلَّا فهو شاهد على أن الشيعة كانوا أقدر الناس على صياغة الكلام البليغ.

٩- أما ضمير الشريف الرضي فهو عندي فوق الشُّبهات، وهو قد خَدَم التشيُّع بالصدق لا بالافتراء، فإن كان جَمْع آثار عليِّ بن أبي طالب خدمة سياسية لمذهب التشيُّع فهو ذلك، ولكنها خدمة أُدِّيتْ بأسلوبٍ مقبول هو إبراز آثار أمير المؤمنين، ولا يعاب على الرجل أن يخدم مذهبه السياسي، بجميع الوسائل والأساليب ما دام في حدود العقل والذوق.

فإن قيل: إن النقد الصحيح يشهد بأن في مجموعة "نهج البلاغة" أشياء يبعدُ صدُورها من عليِّ بن أبي طالب بسبب الغُلُو في العصبية، أو بسبب ضعف الديباجة، أو بسبب التكلف الذي خلَتْ منه لغةُ الصدر الأول، بسبب الكلمات الاصطلاحية التي لم تَشع في ذلك العهد، إن قيل ذلك فنحن نُجيب بأن إصر تلك الأشياء لا يقع على عاتق الشريف، وإنما يقع على عواتق من سبقوه من الذين طاب لهم أن يُنطقوا أمير المؤمنين بأقوال رأوها تؤيد مذهبهم بعض التأييد.

أنا لا أقول بأن مجموعة "نهج البلاغة" صحيحةُ النسب إلى أمير المؤمنين في كل ما اشتملت عليه، ففيها فقرات وفصول ينكرها الناقد الحصيف.

ولكني أقول بأن آثار عليِّ بن أبي طالب تعرَّضت لمثل ما تعرضت له سائر الآثار الأدبية والسياسية والدينية، ثم أجزم بأن ما فات الشريف من التحقيق لم يقع عن عمد، وإنما وقع عن جهل بما تعرضت له تلك الآثار من الوضع والافتراء.

١٠- وهذا الحكم القاسي لا يطوَّق به عنق الشريف إلَّا إنْ ثبت أنَّ مجموعة "نهج البلاغة" لم تُعرَّض بعد وفاته للزيادات والإضافات التي تُوجبها النزعة المذهبية في عصور وصل فيها الكفاح السياسي إلى أبعد حدود

القسوة والعُنف، فإن ثبت بعد البحث أنا سَلِمَتْ من الزيادات فهي شاهد على أن الشريف كان يَعُوزه التدقيق في بعض الأحايين.

أما اتهامُهُ الكذب على أمير المؤمنين في سبيل النزعة المذهبية فهو اتهامٌ مردودٌ، ولا يَقبله إلا من يجهل أخلاق الشريف.

١١- ومهما تكن حال "نهج البلاغة" فهو وثيقةٌ أدبية وتاريخية وسياسية قليلة الأمثال، هو إن صحَّ صورة من صور النضال السياسي في مطلع العصر الأموي، وإن لم يصح فهو أيضًا صورة لذلك النضال حَسْبما فهمت الأجيال التي سبقت مولد الشريف، وهو كذلك ثروةٌ أدبية ولغوية تؤرِّخ اللغة في ذلك العهد، أو تؤرخ ما فهم الناس أنها كانت عليه في ذلك العهد، وهو أيضًا يصور ما فهم العرب من أصول السياسية والمعاش وتدبير الملك في أعقاب عصر النُبُوَّة، أو ما تمثلوه بعد ذلك من تلك الأصول.

هو في جميع الاحتمالات خِدمةٌ أدَّاها الشريف إلى اللغة والأدب والساسية والأخلاق.

وإني لأعتقد أن النظر في كتاب نهج البلاغة يُورث الرجولة والشهامة وعظمة النفس؛ لأنه فيضٌ من روح قهَّار واجَه المصاعب بعزائم الأسود.

١٢- وهناك خدمة ثانية أدَّاها كتاب نهج البلاغة للغة العربية، فقد كان فرصة ثمينة لحركة الأفهام والعقول.

ألا تعرفون شرح ابن أبي الحديد؟

إن ذلك الشرح هو من ذخائر اللغة العربية؛ ففيه فوائد أدبية ولغوية وتاريخية وفقهية لا يستهين بها إلَّا الغافلون عما في ماضينا الأدبي والعلمي من أطايب وفرائد آيات.

١٣- فإن ذكرتُم أن نهج البلاغة شُرح نحو أربعين مرة، وإن ذكرتم أن فيه فصولًا تُرجِمتْ إلى بعض اللغات الشرقية والغربية، وإن ذكرتم إنه فتَح أمام النقد أبوابًا ومذاهب، وإن ذكرتم أن له فضلًا على أكثر الفصحاء من الخطباء، وإن ذكرتم أنه أشهر مجموعة وأكبر مجموعة حفظت منسوبة إلى عصر الخلفاء، وإن ذكرتم أن له شرْقًا وغَرْبًا، ولم تَخْلُ منه مكتبة عربية أو أعجمية من المكتبات التي تستوفي المراجع، وإن ذكرتم أن مُفَنِّديه لم ينكروا قيمته الأدبية.

إن ذكرتم كل هذه الخصائص عرفتم أن الشريف خدم الأدب واللغة والأخلاق بجمع أصول ذلك الكتاب الفريد، وصدق أبو فراس حين قال:

ومـــن شرفي أن لا يـــزال يعينـــي حسودٌ على الأمـر الـذي هـو عائـبُ

زكي مبارك

مصر الجديدة

في الثامن من صفر سنة ١٣٥٩